التاريخ السياسي

للدولة الخوارزمية

تأليف

دكتورة عفاف سيد صبره

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر

دار الكتاب الجامعي

٨ شارع سليمان الحلبي بالقاهرة

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

التاريخ السياسي
للدولة الخوارزمية

تأليف

دكتورة عفاف سيد صبره

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ — ١٩٨٧ م

الناشر
دار الكتاب الجامعي
٨ شارع سليمان الحلبي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبعه وسار على نهجه وسنته الى يوم الدين • وبعد ••

يسرني أن أقدم للمكتبة التاريخية كتابا يدور حول التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية •

والحقيقة أن ما دفعني لدراسة هذا الموضوع هو اهتمامي الكبير ، وميلي لدراسة الدويلات الاسلامية التي ظهرت في المشرق على عهد الخلافة العباسية •

فلقد شهد المشرق الاسلامي ظهور دويلات كثيرة استقلت عن الخلافة العباسية منذ فجر تاريخها ، بدءا بالدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م وتتالت بعدها دويلات عديدة الا أنها اختلفت في علاقاتها بالخلافة العباسية ما بين دولة مستقلة استقلالا تاما ، ودولة مستقلة استقلالا اسميا •

ولقد لعبت دويلات المشرق الاسلامي دورا كبيرا ورئيسيا بوصفها دويلات حدود أو أطراف ، حيث جاورت معظم هذه الدويلات أقوام وثنيين ، لذا فقد كان لهذه الدويلات شرف نشر الاسلام بين هذه الأقوام التركية والفارسية والهندية • ولقد وضح في هذه المنطقة غلبة العنصرين الفارسي والتركي وكانت بصمات هذين الشعبين قوية بصورة كبيرة في تحديد مسارات هذه الدول •

ولقد كانت الدولة الخوارزمية احدى هذه الدويلات التى نشأت على الثغر التركى فى مواجهة مع الأتراك الوننيين فى منطقة خوارزم الذى يحده من الغرب بلاد الترك الغربية ومن الجنوب خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضا ٠

لذلك لعب حكام هذه المنطقة دورا هاما فى التاريخ الاسـلامى لم يظهر ويتضح الا عند ظهور دولة السلاجقة ٠ والحقيقة أن المسلمين الأوائل اهتموا بفتح هذه المنطقة من العالم منذ فجر حركة الفتوحات الاسلامية فى عصر الخلفاء الراشـدين ، وخلال العهد الأموى الذى شهد تدفق السيل الاسلامى الى هذه المناطق بقيادة قتيبة بن مسـلم الباهلى ٠

ويرجع تأسيس الدولة الخوارزمية كدولة ذات مدلول سياسى — كما ذكرت — مرتبطا بالسلاجقة ، ويعتبر أنوشتكين هو المؤسس الأول ٠ وأعقبه ابنه آتسـز الذى وطد أركان هـذه الدولـة وبدأ منذ عهده الصراع السـياسى مع الدولة السلجوقية فى فارس خاصـة على عصر السلطان سنجر ٠

ولقد توالى الحكام من سلالة آتسز على حكم الدولة الخوارزمية التى بدأت تتسع رويدا رويدا على حساب جيرانها ، وذاع صيتها ، وبدأت تظهر بكيان سياسى خاص ٠ ووالت هجماتها على جيرانها من دولة الأتراك القراخطائيين ٠ والغوريين وتأرجحت علاقاتها بالخلافة العباسية طبقا للوضع السياسى القائم ٠

والحقيقة ان ظهور الدولة الخوارزمية يعتبر تأكيدا للعنصر التركى وتوطيدا له فى حكم أجزاء كثيرة من العالم الاسلامى ٠ خاصة وان هذه الدولة ليست هى الدولة الاسلامية الأولى التى ظهرت فى العالم الاسلامى وانما سـبقتها دويـلات مثل الدولتين السـامانية والغزنوية ٠ حتى الخوارزميين ورثوا كثيرا من ممتلكات هاتين الدولتين ٠

كما أن الدور السياسى الذى لعبته هذه القوة السياسية فى هذه المنطقة كان دافعا لى على الاهتمام بالتأريخ لها ، لأن ما كتب باللغة العربية عن هذه المنطقة وعن هذه الدولة تفصيليا لا يتعدى أن يكون شذرات فقط ، اللهم ما كتبه الأستاذ حافظ حمدى عن الدولة الخوارزمية والمغول ، والشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى وما كتبه نافع العبود فى رسالة للماجستير عن الدولة الخوارزمية ، وكذلك كتاب الدكتور / سعد بن حذيفة الغامدى عن أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق ، فهذه هى تقريبا المراجع الحديثة التى تخصصت فى دراسة الدولة الخوارزمية ، لذلك كان لزاما أن نعطى هذه الدولة حقها فى الدراسة ، خاصة وان دورها السياسى ترك تأثيرا بعيدا على جميع مناطق المشرق •

ولقد آثرت أن أجعل دراستى تهتم اهتماما كبيرا بأهمية عنصر الأتراك فى العالم الاسلامى ، ودورهم السياسى ، وان أبين تاريخ خوارزم من البداية منذ وصول الاسلام الى هذه الأصقاع ، كما كان اهتمامى كبيرا بالعلاقات السياسية التى ربطت هذه الدولة مع جيرانها والحروب التى خاضتها وأثرها فى اتساع وانكماش هذه الدولة •

ومن أهم النقاط التى برزت فى هذه الدراسة مدى العلاقة التى ربطت الدولة الخوارزمية خلال حكم سلاطينها المختلفين مع الخلافة العباسية ، ودور الخلافة العباسية فى هذه الآونة فى التصدى للأحداث الجارية ، حتى فقدت الخلافة نفوذها فى العراق العجمى وبلاد الجبل والحقيقة ان هذه الدولة بدأت تتبلور بعد سقوط آخر سلاطين سلاجقة فارس وهو السلطان طغرل حيث ورثت الدولة الخوارزمية السلطان السياسى للدولة السلجوقية فى هذه المنطقة ، خاصة بعد قضائها على القراخطائيين وعلى دولة الغور التى نافستها السلطان السياسى خلال هذه الفترة •

ولقد كان لموقع هذه الدولة الهام أكبر الأثر فى تلقيها الضربات من القوات الغازية التى بدأت تغير على هذه المنطقة من العالم ، وأقصد بهم قبائل المغول الذين خرجوا من مواطنهم فى منغوليا ، وبدءوا فى الاغارة على الأقاليم المجاورة ، فنجحوا فى سحق قوى الأتراك القراخطائيين ، ثم بدءوا يدقون أبواب الدولة الخوارزمية ، حتى ان السلطان علاء الدين خوارزمشاه لعب دورا كبيرا فى كونه أول قوة اسلامية تتصدى لهذا الغزو ، حتى انتهى الأمر بموته ، وقيام ابنه جلال الدين منكبرتى بتحمل تبعة الجهاد الاسلامى ضد هؤلاء المغول .

ولقد أسهبنا وقدمنا للدور الكبير الذي قام به جلال الدين وانحدار قواه على يد المغول ثم هروبه الى بلاد الهند ، الا أنه ما لبث أن عاد وكون جيشه واستولى على معظم ممتلكاته فى وقت انشغال دولة المغول بوفاة زعيمها جنكيزخان .

وقام خلال هذه الفترة بتوسيع بلاده الا أنه اصطدم خلال هذه الفترة بقوى سياسية كبيرة ممثلة فى الدولة الأيوبية التى كانت لها أتابكيات كثيرة فى هذه المناطق ، وكذلك بدولة سلاجقة الروم ، ودولة الكرج ومع شيوخ الباطنية الاسماعيلية .

وفعلا نجح جلال الدين فى التصدي لجميع هذه القوى فسحق قوى السلاجقة ، واستولى على الأتابكيات الأيوبية ، وسيطر على بلاد الكرج وهاجم معظم القلاع الاسماعيلية .

ومن هنا نرى أن وجود جلال الدين فى هذه المنطقة وأثناء الغزو المغولى كان كما ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى مثل سد بأجوج ومأجوج فقد كان الحائط النحاسى الذى تلقى الضربات المغولية وحمى الخلافة العباسية من خطر أصبح وشيكا .

ورغم هذه الجهود الا أن جلال الدين انتهى وقتل بعد هزيمته المتكررة على أيدى المغول الذين توحدت قواتهم تحت زعامة الخان

الجـديد أوكتاى ، فانتهى بذلك جـلال الدين واختفى من المسـرح السياسى •

ورغم ذلك فان الجنود الخورازميين كان يحدوهم الأمل فى تكوين وطن لهم تحت قيادات جديدة من رجال الجيش الخوارزمى فانساحوا فى الأرض يعرضون خدماتهم على الأيوبيين خاصة الصالح نجم الدين الذى استعان بهم فى توطيد ملكه ، كما كان لهم دور فى دخول القدس بعد أن حاول الصليبيون استعادته ، ومع كل هذه الأعمال الايجابية الا أن هؤلاء الخوارزمية من الممكن أن نعتبرهم من العناصر الهدامة •

فقد استرسل معظم المؤرخين فى وصفهم بأنهم كانوا مصدر دمار وخراب وسفك للدماء وهتك للأعراض اينما حلوا ، كما أنه يجب علينا أن نضيف الى سلبياتهم انهم بصراعاتهم السياسية فى مواطنهم فتحوا الطريق فعلا أمام المغول للانتصار عليهم حتى تحقق حلم المغول فى اسقاط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ •

ولا ننسى فى هـذه العجالة أن نقول : أن هؤلاء الخوارزميين شاركوا فى الفوضى السياسية التى سادت العالم الاسلامى فى هذه الآونة فقد شاركوا فى الصراع بين أبناء البيت الأيوبى ، هذا الصراع الذى لم يكن له نتيجة الا توسع الصليبيين على حسابهم وتكرار حملاتهم على بلاد الاسلام وفتح الطريق أمام المغول ، وقد كان من الممكن أن تتحد القوى الاسلامية جميعها لاخراج الصليبيين من أراضيهم بدلا من التحالف معهم ، أو التجهيز لوقف الزحف المغولى الذى استولى على معظم الأراضى الشرقية وعلى ممتلكات الخوارزميين فى أراضى الكرج وقضى على سلطان سلاجقة الروم لتضيع هذه الممالك الاسلامية الهامة التى لعبت دورا كبيرا طوال التاريخ فى دفع القوى النصرانية والوثنية عن الأراضى الاسلامية •

وأخيرا ليكن لنا من الماضى عبره ، نعتبر بها فى تاريخنا المعاصر ، وحتى يعلم الأبناء أخطـاء الآباء ويتدارسـوها ويتجنبوها ، ولتتعلم الدول والشعوب دروسا من الماضى علها تفيق من سـباتها وتعلم أن الوحدة الاسلامية هى الأساس الأول فى قهر العدوان الموجه ضـدنا من القوى الاسـتعمارية الدولية • وعلينا أن نذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين • وادعوا الله سـبحانه وتعالى أن يلقى هـذا العمل العلمى المتواضع قبولا ، فآن اصبت فمن الله سبحانه وتعالى وان أخطأت فهذه هى سمة البشر •• والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل •

وصدق الله العظيم حيث يقول :

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنو ربنا انك رءوف رحيم » •

المؤلفـة

د / عفاف سـيد صبره

مدينة نصر ١٤٠٨هـ

١٩٨٧م

الفصل الأول

التطور السياسي لمدينة خوارزم

حتى العصر السلجوقى

خوارزم اسم لناحية كبيرة قصبتها الجرجانية ، كان أهلها يسمونها كركانج وهى ولاية متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة[1] .

ويذكر ابن الكلبى ان اسحق بن ابراهيم الخليل ، ولد الخزر والبزر والبرسل ، وخوارزم ، وفيل[2] .

وهناك أقوال أخرى حول أصل تسمية هذه المنطقة وهو انه كان لاقليم خوارزم فى صدر العصور الوسطى قصبتان أولاهما فى الجانب الغربى أى الفارسى من نهر جيحون تسمى الجرجانية والأخرى فى الجانب الشرقى — أى التركى — من النهر يقال لها كاث .

ومدينة كاث مازالت قائمة الا أن مدينة العصور الوسطى ربما كانت تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقى البلدة الحديثة وكان لكاث فى الأزمنة القديمة قهندز « قلعة » فخر بها النهر وأتى عليها وكان الجامع والحبس على ظهر القهندز ، وقد أتى فيضان النهر على هذه الأجزاء ،

---

(1) ابن عبد الحق البغدادى « مراصد الاطلاع عن أسماء الأمكنة والبقاع » جـ ١ ، ص ٤٨٧ .

(2) ياقوت الحموى « معجم البلدان » جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .
والمقصود بالفيل مدينة سمرقند . انظر :
البلاذرى « فتوح البلدان » جـ ٣ ، ص ٥١٨ .

فلم يبق منها رسما ولا طللا حتى كتب ابن حوقل ، فابتنى الناس مدينة جديدة الى الشرق من الأولى على مسافة من نهر جيحون تقيها عواقب طغيانه(٣) .

أما قصبة خوارزم الثانية التى أصبحت بعد سقوط كاث أولى مدن الاقليم ، فكانت الجرجانية وهى مدينة عظيمة مشهورة على شاطىء جيحون من امهات المدن جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات .

ويذكر ياقوت الحموى رواية أخرى وهى أن أحد الملوك القدماء غضب على أربعمائة من أهل مملكته ، وخاصة حاشيته فأمر بنفيهم الى موضع منقطع عن العمارات بحيث يكون بينهم وبين العمائر ، مائة فرسخ(٤) ، فلم يجدوا على هذه الصفة الى موضع مدينة كاث وهى احدى مدن خوارزم ، فجاءوا بهم الى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا ، فلما كان بعد مدة جرى ذكرهم على بال الملك ، فأمر قوما بكشف خبرهم ، فجاءوا فوجدهم قد بنوا أكواخا ، ووجدوهم يصيدون السمك وبه يتقوتون ، واذا حولهم حطب كثير ، فقالوا لهم : كيف حالكم فقالوا عندنا هذا اللحم ، وأشاروا الى السمك ، وعندنا هذ الحطب ، فنحن نشوي هذا بهذا ، ونتقوت به ، فرجعوا الى الملك ، وأخبروه فسمى بذلك الموضع خوارزم ، لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والحطب رزم فصار خوارزم(٥) .

وقد اتفق الجغرافيون المسلمون فى تحديدهم لاقليم خوارزم فذكروا أن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية ، ومن الجنوب خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضا(٦) .

---

(٣) لى سترانج : « بلدان الخلافة الشرقية » ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٤) الفرسخ يساوى ثلاثة اميال .
(٥) ياقوت : « معجم البلدان » ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٦) الاصطخرى : « المسالك والممالك » ، ص ٢٩٩ .
ابن حوقل : « صورة الارض » ، ص ٤٧٧ .

ويقع اقليم خوارزم فى وقتنا الحاضر ضمن الاتحاد السوفيتى ووزعت بين جمهوريتين هما أوزبكستان وتركمانستان السوفيتيين وذلك بعد غزو الروس لها وخلعهم أميرها خان خيوه السيد عبد الله خان بهادر سنة ١٩٢٤ م(٧) .

ان دراستنا للتطور التاريخى لمنطقة خوارزم يدفعنا الى الدخول فى حركة الفتوحات الاسلامية التى انبعثت من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدثت غزوتى مؤسة وتبوك اللتان كانتا بداية على الطريق ، ثم اكتمل نموها ونضجها بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقيام الخلفاء الراشدين بأمر الأمة الاسلامية .

وتعددت ميادين الفتح الاسلامى فى الشمال والجنوب والشرق ، وحققت انتصارات ضخمة أذلت بها دولتى الفرس والروم فسقطت الأولى ، وانحسرت الثانية ، وبلغت جذوة الفتوح الاسلامية ذروتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والمعروف أنه بعد سقوط المدائن ونهاوند أن المقاومة الفارسية تركزت حول كسرى يزدجرد ، الذى فر من بلاده ليجمع قواته لمهاجمة المسلمين الذين ظلت جنودهم تتعقبه تريد أن تنال منه(٨) .

معنى هذا أن المسلمين نجحوا فى الاستيلاء على الأقاليم الفارسية، فتوجهوا صوب مدن خراسان ، وكان على قيادة الجيش الاسلامى الأحنف ابن قيس ، وبعدها أصبحوا وجها لوجه مع العناصر التى تعيش فيما وراء النهر ومعظمها عناصر تركية ، وقد كتب الأحنف بن قيس الى عمر

---

(٧) بارانسكى : « جغرافية الاتحاد السوفيتى » ، ص ٣٢٥ — ٣٣٠ .

(٨) شكرى فيصل : « حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول » ، ص ٢٠٤ .

يخبره بفتح خراسان، فقال « لوددت أنى لم أكن بعثت اليها جندا ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر فقال على ولم يا أمير المؤمنين فقال لأن أهلها سينفضون فيها ثلاث مرات فيجتاحون فى الثالثة فكان أن يكون ذلك بأهلها أحب الى أن يكون بالمسلمين »[٩] . ويقال بأنه لما بلغ عمر بن الخطاب غلبه الأحنف بن قيس على المروتين[١٠] وبلخ كتب الى الأحنف ، « أما بعد فلا تجوزن النهر ، واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر ، واياكم أن تعبروا فتفضوا »[١١] .

ولما بلغ الأحنف عبور خاقان الصغد نهر بلخ . مددا ليزدجرد جمع جنده ، وقال انكم قليل ، وان عدوكم كثير ، فلا يهولنكم ، « فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »[١٢] ارتحلوا من مكانكم هذا فاستتروا الى هذا الجبل ، فاجعلوه فى ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم ، وقاتلوهم من وجه واحد ففعلوا ، وأقبل الترك حتى نزلوا بهم ، وكان من عادة الترك أن لا يخرجوا حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كلهم يضرب طبلة ثم يخرجون بعد خروج الثالث، فلما كان وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبلة ، ثم وقف من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الأحنف فقتله ، وخرج آخر من الترك ففعل مثل صاحبه الأول فحمل عليه الأحنف فقتله ، ثم خرج ثالث فحمل عليه الأحنف فقتله ثم انصرف الأحنف الى معسكره دون أن يعلم أحد بذلك ، فخرج الأتراك بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مقتلين فتشاءم خاقان وتطير وقال قد طال مقامنا ، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط ، ما لنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا .

---

(٩) الطبرى : « تاريخ الرسل والملوك » ، جـ ٤ ، ص ١٦٨ .

(١٠) مرو الروذ ومرو الشاهجان .

(١١) الطبرى : نفسه .

(١٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

وفى عهد عثمان بن عفان توجه الأحنف بن قيس الى طخارستان فتح الطالقان ، صلحا ، وسار الى بلخ ، فصالحه أهلها ثم سار الى خوارزم، وعبر نهر جيحون فصالحه أهالى ما وراء النهر[١٤] .

ويورد البلاذرى روايات متعددة عن عبور العرب النهر فيقـــول ان عبد الله بن عامر عبر النهر وأحرم لله شكرا ، ويضيف قائلا أن الحكم بن عمرو الغفارى هو أول من صلى وراء النهر[١٤] ، ويقول فى وضع آخر أن سعيد بن عثمان هو أول من قطع النهر بجنده[١٥] ، يقول أيضا بأن يزيد بن معاوية ولى سلم بن زياد فصالحه أهل خوارزم على أربعمائة ألف ، وحملوها اليه وقطع النهر ومعه امرأته وكانت أول عربية عبر بها النهر ، على الرغم مما ذكر حول هذا الموضوع فان عبور النهر حسبما أشار اليه البلاذرى لا يعنى الفتح الحقيقى لهذه البلاد ، انما يبدأ مع بداية عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الا أن ما حصل من اقتحام خاقان الترك للنهر انما هو لمجابهة العرب مساعدة منه ليزدجرد ، لكنه لم يظفر بشىء فعاد أدراجه من حيث أتى .

ويهمنا الآن أن نلقى نظرة على أن المسلمين فيما بعد وخاصة على عصر الوليد بن عبد الملك بدءوا يعدون العدة لغزو البلاد الشرقية خاصة الثغور التركية فيما وراء النهر .

وقبل أن ندخل فى حديث الفتح المنظم على يد الفاتح قتيبة بن مســلم الباهلى هناك ملاحظات لابد أن نوردها وهى :

الملاحظة الأولى ، التداخل والتعقيد ، وسببه أن هذه الفتوحات مرت فى أدوار مختلفة ، لم يكن هذا الفتح الذى بدأ الخطى الى غايته

---

(١٣) الطبرى : نفسه .

(١٤) البلاذرى : « فتوح البلدان » جـ ٥ ، ص ٤١٦ .

(١٥) نفسه ، ص ٤١٧ .

ثم لم يرجع عنها كما كان الحال فى فتح الشام أو فتح مصر مثلا وانما هى فتوح أدركتها الفتن الداخلية(١٦) .

والسبب الثانى أن هذه الفتوحات فى هذا الانسياح كانت كالموجة تكون لجتها فى موضع حيث يكون عظم الماء ، وتكون ذيولها وأطرافها فى موضع آخر بعيد ، فلم تتركز دائما فى مكان واحد ، ولكنها كانت تنساب فى أكثر من مكان(١٧) .

والسبب الثالث يرجع الى هذا البعد البعيد الذى اتساق اليه المسلمون فما من شك أن خطوط ما بينهم وبين مراكزهم التى انطلقوا منها استطالت وامتدت .

والسبب الآخر كثرة الانتقاض والارتداد ، ولم تكن هذه الانتقاضات شرا على المسلمين دائما ، ولكنها كانت خيرا لهم فى بعض الأحايين ، وكانوا يفيدون منها أن يجترءوا على فتح ما كانوا صالحوا عليه أو على فتح ما لم يتقدموا فى فتحه(١٨) .

قد ظل الحال على ذلك فى هذه البلاد ، ما بين انتقاض وارتداد الى أن قامت الدولة الأموية بعد الاضطرابات السياسية التى مر بهـا العالم الاسلامى على عهد عثمان بن عفان ؓ وما بعده حتى آل الحكم الى معاوية بن أبى سفيان ، الذى انتقل بخلافته الى دمشق موطدا العزم على برنامج اصلاحى داخلى وخارجى .

وقد كان مجال الفتوحات طوال عهد معاوية بن أبى سفيان موجهـا صوب البيزنطيين على جبهات الشام وافريقيا والبحر المتوسط ، واعتمدت

---

(١٦) شكرى فيصل ، ص ١٩٨ .

(١٧) نفســه .

(١٨) نفســه .

سياسة الأمويين فيما بعد معاوية الى ضرورة القضاء على الفتن الداخلية والحركات الدينية والسياسية فى البلاد ، وقد انقضى زمان يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم فى هذه المشاكل ، حتى نجح عبد الملك بن مروان ٨٦/٩٩ هـ فى القضاء عليها نهائيا ، ونظم أمور دولته ثم رسم سياسته لاستكمال الفتوحات الخارجية لتوطيد الاسلام فى مختلف الجهات .

ففى الوقت الذى ارتقى فيه الوليد عرش الخلافة كان الحجاج ابن يوسف أميرا على العراق آنذاك ، وضمت اليه جميع ولايات المشرق ، وكانت الثغور الشرقية معرضة دائما لهجرة الأتراك الطبيعية من آسيا الوسطى وغير مأمونة من غاراتهم ، ولهذا فكر الحجاج جديا فى وضع حد لهذه الغارات ، وبذلك تصبح هذه البلدان المجاورة لهم ، فولى قتيبة ابن مسلم الباهلى ولاية خراسان ، وطلب اليه فتح بلاد ما وراء النهر وفى هذا يقول بارتولد « أحرز العرب أهم انتصاراتهم فى آسيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان(١٩) .

وكان الحجاج قد ولى يوسف بن المهلب بن أبى صفرة ولاية خراسان سنة ٨٠ هـ ، فغزا غزوات كثيرة فى بلاد الترك ، وفتح كثيرا من البلدان كما يقول البلاذرى(٢٠) ، وعلى الرغم من كل ما بذله المسلمون من جهود لفتح بلاد ما وراء النهر الا أن تقدمهم كان بطيئا ، ولم تتوطد أقدام المسلمين فى هذه المنطقة الا حينما ولى الحجاج قتيبة سنة ٨٦ هـ(٢١) . فلما وصل الى مرو أعاد اليها الأمن والاستقرار ، واستعد لفتح

---

(١٩) بارتولد : « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى » ، ص ٣٧ .
(٢٠) البلاذرى : « فتوح البلدان » ج ٣ ، ص ٥٠٤ .
(٢١) أفاد قتيبة بن مسلم من جهود المهلب بن ابى صفرة وابنه يوسف ابن المهلب ، وافاد من غزوات من قبله ، غير انه كان نسيجا خاصا من الرجال وكان عمله فى الفتوح ، ونجاحه فيها عملا فريدا حاول المؤرخون أن يتعرفوا أسبابه منها مساندة الحجاج له ، وتوحيده للقبائل العربية ، وتقربه من الغرب . انظر :
Gibb. «The Arab Conquest in Centeral Asia». pp. 29—30.

بلاد ما وراء النهر ، فلما ســـار اليها قتيبة سارع الأتراك من بخارى والصغد لانجاد اخوانهم[٢٢] .

والمعروف تاريخيا أن سكان حوض النهر ، وسكان الصغد ليسوا تركا فى الأصل فهم ايرانيون يتكلمون لغة ايرانية[٢٣] وفى فترة الفتوح هذه كان الأتراك قد وسعوا مملكتهم فى اتجاه الغرب على عهد قابغان قاغان الذى يدعوه الصينيون متشوى بد أن حرروها من الســـيطرة الصينية ، واستقر واحد منهم بوصفه طرخانا فى سمرقند عاصمة بلاد الصغد فيما وراء النهر على الضفة الجنوبية من الزرفشان « نهر الصغد ونهر الصغانيان » وعلى الضفاف السفلى من هذا النهر تقع بخـــارى حيث كانت احدى الأسر التركيـــة الحاكمة تبسط سلطانها على رعيـــة مختلطة فارسية وتركية[٢٤] .

وترجع الأسباب المباشرة ، والتى دعت قتيبة بن مسلم للاتجاه شرقا صوب خوارزم بعد استيلائه على الأراضى الفارسية الى ما رواه البلاذرى فهو يطلق على منطقة خوارزم اسم خارزم ، وقد شـــاركه مجموعة كبيرة من المؤرخين المسلمين الرأى على أن ملك هذه البـــلاد يوسف المدعو جنغان ، وقابغان[٢٥] كان ضعيفا ، لذلك غلبه أخوه خر زاد حتى أن الملك لم يكن له أمر ولا نهى فى البلاد[٢٦] ، حتى أن الطبرى

---

(٢٢) عبد العزيز الليمل : « نفوذ الأتراك فى الخلافة العباسية » ، ص ١٨٢ .

(23) Gibb (H.A.R).
The Arab Conquest in Centeral Asia. p. I.

(٢٤) بروكلمان : « تاريخ الشعوب الاسلامية » ج ١ ، ص ١٦٤—١٦٦ .

(٢٥) أبى محمد احمد بن أعثم : « كتاب الفتوح » ج ٧ ، ص ٢٣٥ .
وكان يطلق عليه فى المصادر الاسلامية قبعان ، قابعان ، قانمان .

(٢٦) نفســـه .

يذكر أن هذا الأخ كان يحتال ويستولى على ممتلكات أخيه الملك وتعدى ذلك الى المتاع الشخصى كالجوارى والدواب ، بل وصل به الحال الى القيام باغتصاب النساء والفتيات « فكان اذا بلغه أن لأحد منهم بنتا أو أختا أو امرأة جميلة أرسل اليه فغصبه وخذ ما شاء وحبس ما شاء لا يمتنع عليه أحد ولا يمنعه الملك »(٢٧) . لذلك استاء الملك من سلوك أخيه ، ورأى أن يكتب الى قتيبة يدعوه سرا ليسلم اليه البلاد ولم يطلع أحد من مرازبته ولا دهاقينه على ما كتب حتى أنه بعث بمفاتيح البلاد المصنوعة من الذهب « بل بذل له مائة ألف رأس ومتاعا سماه له فى كتابه على أن يدفع اليه أخاه ويملكه فى بلاده »(٢٨) .

ولا ينفى المؤرخون المسلمون عن قتيبة أنه كان يستعد لغزو هذه البلاد والأطراف ، وهذا كان ضمن الخطة التى رتبها مع الحجاج بن يوسف الثقفى . فيؤكد بن أعثم والطبرى على أن الوقت الذى وصل فيه رسول الملك قابغان كان نهاية الشتاء « فى وقت قد تهيأ فيه قتيبة للغزو »(٢٩) وقد اشترط على قتيبة فى حالة انتصاره أن يسلمه أخاه وجميع أعداءه داخل بلاده لينتقم منهم ، وفى نظير ذلك « سيسلمه مائة ألف رأس ومتاعا سماه له فى كتابه »(٣٠) .

عندئذ تجهز قتيبة لاستكمال الدور الذى بدأه فى بلاد المشرق ، واتخذ من هذه الظروف سببا مباشرا للتوجه بالحملة صوب منطقـة خوارزم ، فأعلن على جنوده أنه يستعد لغزو بلاد الصـغد ، حتى لا تتسرب أنباء الحملة الى الخوارزميين ، وفعلا تأكد أهل البلاد أن

---

(٢٧) الطبرى : « تاريخ الرسل » جـ ٨ ، ص ٨٣ ، ابن الأثير : « الكامل » جـ ٤ ، حوادث سنة ٩٣ هـ .

(٢٨) ابن أعثم : « كتاب الفتوح » ، ص ٢٣٥ .

(٢٩) البلاذرى : « فتوح البلدان » ، ص ٥١٨ .
الطبرى نفسه .

(٣٠) ابن أعثم ، ص ٢٣٥ .

قتيبة خرج الى الصغد فعلا حتى أن خر زاد « قال لأهل مملكته ان قتيبة يريد السفر وقد أمنتم من حربه وأن يغزوكم فى هذه السنة »[٣١]

استخلف قتيبة على مرو ثابتا الأعور مولى مسلم ، وقد نجح هذا المولى فى أن ينشر الخبر بين المرازبه والدهاقين من أهل البلاد بفكرة خروج قتيبة الى الصغد •

وكان لهذه الخطة أثرها فى ابراز عنصر المفاجأة للعدو اذ ما لبث أهل خوارزم أن وجدوا قتيبة وجيشه المسلم قد عبروا النهر ، ووصلوا الى مدينة هزار سب[٣٢] لذلك فزع أهل البلاد فزعا شديدا ، واقبلوا على الملك قابغان ليرى رأيه فى هؤلاء المسلمين •

وهنا يختلف الرأى بين الطبرى وابن أعثم حول الموقف الذى وقفه أهل البلاد من قتيبة • فبينما يرى الطبرى أن المسلمين عندما وصلوا الى أبواب خوارزم قال ملكهم لأهله « ما ترون قالو نرى أن تقاتله »[٣٣] لكن الملك رفض قتاله بحجة أنه ليس له طاقة بحرب قتيبة وجيش المسلمين ، لما يعرفوه عنهم من ضروب الشجاعة والصبر على القتال وما أبلوه من انتصارات على الجبهة الشرقية وقال « قد عجز عنه من هو أقوى منا »[٣٤] • ورأى أن يبذل المال لقتيبة ، ويصرفه عن البلاد فوافق أهل البلاد على رأى المللك ، لذلك اجتمع قتيبة بالملك جنغان خوارزم شاه فتوجها الى مدينة الفيل « سمرقند »[٣٥] ثم نزلا

---

(٣١) ابن أعثم : « كتاب الفتوح » جـ ٧ ، ص ٢٣٦ •

(٣٢) الطبرى ، نفسه ، ابن الأثير ، جـ ٤ حوادث سنة ٩٣ هـ •

(٣٣) نفسه ، ابن الاثير : الكامل •

(٣٤) نفســـه •

(٣٥) مدائن خوارزم ثلاث مدائن يحاط بها فارقين ، ومدينة الفيـــل أحصنها •

انظر البلاذرى : « فتوح البلدان » جـ ٣ ، ص ٥١٨ •

عند هزارسبم التى يفصل بينها وبين مدينة خوارزم نهر بلخ . وهناك تم الصلح بين الطرفين على أساس أن يدفع خوارزمشاه لقتيبة « عشرة آلاف رأس وعين ومتاع »(٣٦) . وطلب خوارزمشاه فى نظير ذلك من قتيبة أن يساعده على الاستيلاء على منطقة خام جردو وأن يملكه اياها اضافة الى خوارزم ، فوافق قتيبة ، وبعث بأخاه لى ملك خام جردو وكان عدوا لخوارزم شاه ، فقاتله، وقام عبد الرحمن بن مسلم بقتل الملك ، والاستيلاء على بلاده ، وسير عددا كبيرا من الأسرى معه الى قتيبة ، الذى قام بضرب أعناقهم ، وسلم البلد الى خوارزم شاه ، كما أنه قام بقتل أخيه جرذاذ ليصفوا الملك للملك الأصلى(٣٧) .

هذه رواية الطبرى فى هذا الموضوع ، أما ابن أعثم الكوفى ، فتختلف روايته عن روايتة الطبرى فى تفاصيل كثيرة منها أن قتيبة عندما وصل الى حدود خوارزم ، واتجه أهل البلاد نحو ملكهم ليطلبوا منه مقاتلته ، رفض أن يجيبهم بشىء بل حولهم الى أخيه جرزاد قائلا « الرأى ههنا لأخى جرذاذ فصيروا اليه »(٣٨) ، فتوجه أهل البلاد الى جرذاذ عندئذ تيقن جرذاذ بان أخاه قابغان خوارزم شاه قد كاتب قتيبة ، فهم بقتله ، لكنه خشى من انتقام أهل البلاد ، لذلك نادى نداء الحرب ، وخرجوا لملاقاة قتيبة ونزلوا عند موضوع يقال له « فنك »(٣٩) ونزل قتيبة قريبا منهم ، ودارت معركة بين الطرفين ، سلم خلالها قابغان الى قتيبة مدينتين من مدن خوارزم ، بل انه انضم الى جيش المسلمين ، كذلك حوصر جرذاذ فى المدينة الثالثة من مدن خوارزم وأضطر الى طلب الأمان وكتب الى قتيبة « أنا أيها الأمير عبدك،

---

(٣٦) الطبرى : نفسه حوادث سنة ٩٣ هـ ، ابن الاثير : نفسه .

(٣٧) ابن الاثير : « الكامل » جـ ٤ ، حوادث سنة ٥٣ هـ .

(٣٨) ابن أعثم : « كتاب الفتوح » جـ ٧ ، ص ٢٣٦ .

(٣٩) قرية بينها وبين سمرقند نصف فرسخ .

فاصطنعني واستبقني ، فنعم العبد أنا لك »[٤٠] فبعث اليه قتيبة رسولا من قبله يبلغه بأن اذا رضى أخاه قابغان بتأمينه فسينفذ ذلك فورا ؛ لذلك أرسل جرذاذ الى أخيه يطلب منه الأمان قائلاً « أيها الأمير انه ليس فى عسكرك أحد يطمع أن يعيش خمسين سنة ، قد علمت أن مصيرى الى الموت ، وليس مثلى فى ذلك لأخيه ، وانما أحببت أن أكون لك لا لغيرك ، والقتل أحب الى من الطلب الى أخى ؛ فان مت أو قتلت ، فانه قد مات من كان أنبل منى وأشد منى ملكا وتجبرا والسلام »[٤١] .

ورغم توسل جرذاذ الى قتيبة والى أخيه الا أنهما لم تستجيبا له ، بل واصلا قتالهما ضده ، وما هى الا ساعة واحدة حتى انهزموا ؛ وسيق جرذاذ أسيرا الى معسكر قتيبة وخوارزم شاه ، حيث تم قتله ، لكن الملك لم يرضى بذلك فقط ، بل طلب من قتيبة أن يقتل جميع معاونى أخاه ، لذلك سلمهم قتيبة الى الملك ليرى فيهم ما يشاء ، فضرب الملك أعناقهم جميعا ، وسلم جميع أموالهم الى قتيبة ، ووفى بجميع التزاماته التى التزم بها لقتيبة ، فبعث قتيبة بخمس الأموال الى الحجاج بن يوسف ووزع الباقى على جنود المسلمين[٤٢] .

أما عن مصير الملك الخوارزمى ؛ فقد عينه قتيبة على بلاده الا أن أهل البلاد رفضوا هذا التعيين ، واتهموا ملكهم بالضعف « فوثبوا على الملك فقتلوه »[٤٣] فقام قتيبة بتعيين أخاه عبيد الله بن مسلم على منطقة خوارزم .

---

(٤٠) ابن أعثم : نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٤١) نفسه .

(٤٢) ابن أعثم : نفسه .
البلاذرى : نفسه ، ص ٥١٨ .

(٤٣) البلاذرى : نفسه .

ورغم أن هذه المناطق لم تستقر بها الفتوحات الا فيما بعد الا أن قتيبة قد استعان بأهل البلاد فى استكمال فتوحاته ببلاد المشرق فقد عبر اليهم سنة ٩٤ هـ « وفرض على أهل خوارزم عشرين ألف مقاتل فساروا معه ووجههم الى الشاش »(٤٤) .

وبهذا نرى أن قتيبة كان هو القائد والبطل السياسى الذى نجح فى أن ينشر الاسلام فى هذه البقاع التركية ، لتبدأ من أيامه الممالك الاسلامية هناك ، « فقد نجح أن توجه بخارى وسمرقند ، وخوارزم لتكون مراكز للثقافة العربية ، ومنابت لغرس الاسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ونيسابور فى خراسان »(٤٥) .

ولكن للاسف فقد تضاءل المجد الذى حققه قتيبة بعد مقتله على يد رجال سليمان بن عبد الملك من ٩٦ — ٩٩ هـ ، فلم يرزق الأمويون بخليفة كالوليد ، ولا بحاكم للعراق كالحجاج ، ولا بقائد كالمهلب وقتيبة، وشغل سليمان عن ذلك كله بحصار القسطنطينية الذى أرقه واستنفذ قواه ،كما شغل عنه بالانتقام من قواد أخيه الوليد الثلاثه الذين ارتضوا بيعة عبد العزيز بن الوليد من دون سليمان(٤٦) ويذكر جب « أن موت قتيبة لم يكن توقفا للفتوحات العربية فى آسيا الوسطى مدى ربع قرن ، لكن كان بدء انحسار وتراجع » وقد أهملت خوارزم كقوة عسكرية طوال العصر الأموى واتخذت معسكر(٤٧) .

ومن أبرز الولاة المسلمين الذين تولوا هذه الأراضى التركية كان سعيد بن حذيفة ، وقد عينه مسلمة بن عبد الملك على خراسان وقام بغزو الأراضى التركية ، والقضاء على حركات التمرد بها ، وهناك أيضا سعيد

---

(٤٤) ابن الأثير : نفسه ، حوادث سنة ٩٤ هـ .

(٤٥) حتى « تاريخ العرب » ، ص ٢٧٥ .

(٤٦) شكرى فيصل : « حركة الفتح الاسلامى » ، ص ٢١٨ .

(47) Gibb, op. cit., p. 54.

ابن عمرو الحرشى الذى عينه عمر بن هبيرة على هذه الأراضى خلفا لحذيفة ثم خلفه مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى ، وأسد بن عبد الله القسرى[٤٨] .

ويهمنا من أمر هؤلاء المسلمين أمر نصر بن سيار الكنانى الذى أعقب أسد بن عبد الله القسرى على خراسان ، والذى أناب عنه فى حكم خوارزم أبا حفص بن على ختنه .

وقد كان اختيار نصر على خراسان اختيارا موفقا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك . لأنه لم تكن لنصر عصبية قبلية فى خراسان وكان يستطيع أن يتصرف بحيادونزاهة وهما أمران يحتاجهما هذا الاقليم أشد الاحتياج[٤٩] لذلك قام بهجمات كثيرة على أرض الترك وغزاهم وأدب الخارجين ، وخضعت هذه المناطق له طوال ولايته .

ولا أدل على دوره من قمعه لمعركة الحارث بن سريج فقد كان من العرب الذين جاهدوا الأتراك الوثنيين ، وبعد ذلك اعتنق مذهب المرجئة ، وخرج على الحكم لأموى سنة ١١٦ هـ ، وقد انضم بعد ذلك الى الدعوة العباسية ولبس السواد شعارهم .. حتى انتهى الأمر بقتله[٥٠] .

على أن ثورة الترك فى ما وراء النهر كانت بدورها قد خمدت نتيجة التدابير الاصلاحية والأعمال العسكرية التى قام بها نصر بن سيار هناك والهدوء الذى تمتعت به تركستان فى عهده القصير ، لم يكن كله هدوء الرضى والاطمئنان بدليل أن الأتراك المقهورين سرعان ما تجاوب بعضهم مع الصيحة العباسية وثورة أبى مسلم ، ويبدو أن أعدادا منهم قد انضوت فى يسر وسرعة تحت راية العباسيين السوداء التى رأوا فيها

---

(٤٨) انظر تفاصيل ذلك ابن الاثر : « الكامل » جـ ٤ حوادث سنة ٢٠٢ الى ٢٢٠ هـ .

(٤٩) نبيه عاقل : « تاريخ خلافة بنى أمية » ، ص ٣٢١ .

(٥٠) الطبرى ، جـ ٧ ، ص ٢٤٢ .

بعثا لراية الحادث بن سريج ، وتحقيقا لحلمه ، وقد قاتلوا فى ايران كما قاتلوا تحت قيادة قتيبة الباهلى فى العراق[٥١] .

وقد كانت خوارزم من المناطق التى وصل اليها الدعاة والنقباء ومعظم من وصل اليها من العرب[٥٢] . لذلك كان على نصر أن يقف أمام هذا الجهد العباسى الكبير ، فبقى على ولائه للامويين ، بينما استطاع أبو مسلم الخراسانى فيما يبدو أن يكسب الى جانبه بسهولة بعض العناصر التركية فيما وراء النهر ومن خوارزم بالذات وقد حاربت بجانبه تحت الراية السوداء[٥٣] . ويبدو أن هذه المشاركة التركية الأولى الناجحة تركت فى الخيال الشعبى التركى أصداء عميقة من الفخر ظهرت فيما بعد فى كثير من الأغانى الشعرية الشعبية .

وقد ظلت خوارزم فى العصر العباسى الأول ضمن نطاق الحدود الاسلامية ولكنها مثل غيرها من الثغور التركية ظهرت بها حركات وثورات مثل ثورة أستاذ سيز سنة ١٥٠ هـ والذى شملت ثورته جميع خراسان وهراة وبلاد الترك ثم سحقت الثورة بعد عام واحد ، ثم ظهرت ثورة المقنع أو المقنعية سنة ١٥٩ هـ — ١٦٣ هـ وقد قامت بعد وفاة المنصور بسنة واحدة واستمرت فى عهد ابنه المهدى[٥٤] .

على أن أخطر ما تعرضت له الحدود العباسية — التركية هو ذلك الحلف التركى — الخراسانى الذى ظهر فى ثورة رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار فى خراسان ، فقد استطاع رافع سنة ١٩٣ هـ أن يستميل أهل الشاش وفرغانة وأهل خجنده وأشروسنه والصغانيان وبخارى وخوارزم وختل وغيرها من كور بلخ وطخارستان والصغد وما وراء النهر

---

(٥١) شاكر مصطفى : « دولة بنى العباس » جـ ١ ، ص ١١٢ .
(٥٢) نفسه ، ص ١٢٢ .
(٥٣) فامبرى : « تاريخ بخارى » ، ترجمة السادانى ، ص ٧٨ .
(٥٤) الطبرى ، جـ ٧ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

والترك والخرلخى ثغزغز وجنود التبت وغيرهم ، واستنصرهم على قتال السلطان وقتال المسلمين وسار الى سمرقند وتحصن بها[٥٥] • حيث حاصره هرثمة بن اعين بعد أن خرق السور الأول للمدينة ، ولا شك أن هذا الحلف انما قام على أساس الكره المشترك للتسلط العباسى ، وتعتبر ثورة اجتماعية دينية وقد نجح هرثمة بن أعين فى هزيمة رافع فى واقعة فتح بعدها بلدة بخارى • ويبدو أن المأمون الذى كان يرافق أباه أراد تهدئة أبيه والثورة ، اذ كتب الى أبناء أسد بن سامان وكانوا فيما يبدو من أكبر بيوت ما وراء النهر ، فأمرهم بمعونة هرثمة على رافع ، ولكن هؤلاء الأبناء فضلوا المسعى السلمى فحملوا رافعا على عقد صلح مع هرثمة أيدوه بمصاهرة بينهما[٥٦] •

وقد ظل السامانيون يتولون الثغر الشرقى فى بلاد ما وراء النهر نيابة عن الطاهريين أصحاب الحق الشرعى فى حكم هذه المناطق الى أن انقرضت الدولة الطاهرية على أيدى الصغاريين سنة ٢٥٩ هـ • فأصدر الخليفة المعتمد أمرا بتعيين نصر بن أحمد السامانى أميرا على ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ[٥٧] •

وقد وضح دور خوارزم فى هذه الآونة اذ خرجت حملات كثيرة من منطقتهم لتغير على بخارى ، فيحدثنا النرشخى عن غزوة للخوارزميين ربيع الثانى سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٤ م ، ويذكر أن الخوارزميين أنزلوا فى هذه الغزوة الخراب والدمار ببخارى ، على أن قائد الخوارزميين سرعان ما اضطر الى الفرار والانسحاب ، ومع ذلك ظل الاضطراب والفوضى على ما كانت عليه بخارى من قبل[٥٨] •

---

(٥٥) اليعقوبى : « تاريخ اليعقوبى » ج ٢ ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ،
الطبرى : « تاريخ الرسل » ، ج ٨ ، ص ٣٨٣ .
(٥٦) النرشخى : « تاريخ بخارى » ، ص ١٠٥ .
(٥٧) ابن الاثير : « الكامل فى التاريخ » ج ٦ ، حوادث سنة ٢٦١هـ.
(٥٨) النرشخى : « تاريخ بخارى » ، ص ٧٤ .

وفى أثناء الحرب التى نشبت بين حسـين بن طاهر الخوارزمى وبين أهالى بخارى استطاع أن يستولى على المدينة بعد قتـال دام خمسة أيام وغدر بأهل بخارى ونهب مدينتهم ، ثم أخذ الخوارزميون يسرقون الأموال وما تقع عليه أيديهم ، ويسطون على المنازل ويرتكبون جرائم كثيرة ، فقام أهل بخارى بثورة عنيفة ضد هؤلاء الغزاة ، وقامت الحرب بين الفريقيين التى قتل فيها عدد كبير من الجانبين ، وأحرقت المدينة وأشعلت فيها النيران(٥٩) • وأبدى أهل بخارى من القوة والمثابرة والعزم على القتال دفاعا عن مدينتهم ما جعل قائد جيش الخوارزميين يضطر الى اعلان وقف القتال واصدار بيان بالأمان ، وعندئذ تفرق أهل بخارى ذين كانوا على أتم الاستعداد للقتال وعاد بعضهم الى القرى(٦٠) •

ولم تكن هذه الا خدعة حربية لجأ اليها حسين بن طاهر الخوارزمى ازاء تصميم أهل بخارى على الدفاع عن أنفسهم ، فنكس بعهده وأعمل فيهم السيف وقتل كثيرا منهم فثار النـاس فى بخارى مرة أخـرى ، وواصلوا الحرب طوال النهار وحاصروا بيته ليلا لالقاء القبض عليه ، فأغلق عليه بابه بعد أن هزموه شر هزيمة •

وكان قائد الخوارزمية ، قد استولى على أموال بخارى ، وأخـذ خزائن النقود وجعلها فى بيته ، وعندما علم شدة الحصار المضروب من حوله هرب ليلا هو وحاشيته وترك الأموال ، ولمـا علم الشعب بذلك هجم على البيت واستولى على تلك الأموال ، وبهذا استطاع أهل بخارى أن يتخلصوا من هذا الثائر الذى قاد الخوارزميين للاستيلاء على بخارى ونهب خيراتها •

والثابت تاريخيا أنه عندما توفى أحمد بن أسد استخلف ابنه نصرا

---

(٥٩) نفسـه ، ص ٧٥ •

(٦٠) نفسـه •

على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقى عاملا عليها الى آخر الدولة الطاهرية[٦١] •

وقد تولى اسماعيل بن أحمد السامانى بخارى من قبل أخيه نصر ابن أحمد وبعدها كاتب رافع بن هرثمة والى خراسان على أن يوليه خوارزم وأعمالها فولاه اياها[٦٢] •

وقد ظلت خوارزم فى يد اسماعيل بن أحمد ، وأسرته من بعده الى عهد نوح بن منصور الذى قام فى عهده شهاب الدولة هرون بن سليمان أيلك المعروف ببغراخان التركى صاحب كاشغر وبلاساغون — بالاستيلاء على مدينة بخارى التابعة للسامانيين ولكنه عندما نزل هذه المدينة ، فانتقل عنها نحو بلاد الترك بعد أن تمكن أهل المدينة من بقية جيشه ففتكوا به وغنموا أموالهم[٦٣] • أما بغراخان فلم يلبث أن توفى بعد انسحابه • وعادت بخارى الى الأمير نوح بن منصور •

أما مدينة خوارزم فقد كان عليها أبو عبد الله خوارزمشاه الذى تعرض للقتل على يد رجال الدولة السامانية • وأصبحت خوارزم بعد ذلك تابعة لوالى الجرجانية مأمون بن محمد[٦٤] •

وقد ظلت منطقة خوارزم خلال هذه الفترة تعانى نفس الاضطرابات التى كانت تعانيها بقية الولايات فى نهاية العصر السامانى ، نسبة لتغلب الغزنويين عليهم ، وكذلك قيام ملوكهم الأواخر بالمحاولات اليائسة لوقف التفوق الغزنوى ، واستعانتهم بالأمراء الثائرين[٦٥] •

ويتضح لنا الآن أن خوارزم كانت تحت حكم مأمون بن محمد وهى

---

(٦١) ابن الاثير : « الكامل » جـ ٦ ، ص ٤ حوادث ٢٦١ هـ .
(٦٢) نفسه .
(٦٣) نفسه جـ ٧ ، ص ١٦٠ — ١٦١ ، حوادث سنة ٣٨٢ هـ .
(٦٤) نفسه ، حوادث سنة ٣٨٥ هـ .
(٦٥) نفسه ، حوادث سنة ٣٨٩ هـ .
J. J. Saunders «The history of the Mongol Conqusest» p. 38.

ولاية مستقلة ، وظلت تحت حكمه حتى وفاته سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وبعدها بايع أصحابه ابنه على حاكما على بلدهم ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته فخلفه أخوه أبو العباس مأمون بن مأمون ، وكانت تربطه بالسلطان محمود الغزنوى علاقة مودة وحب(٦٦) .

غير أن السلطان محمود بن سبكتكين اعتزم ضم خوارزم الى حوزته فأرسل الى أميرها يطلب منه الاعتراف بسيادة الدولة الغزنوية على بلاده ، وذلك باقامة الخطبة له ، وارسال مبالغ معينة من المال الى حكومة غزنة الى غير ذلك من مظاهر الولاء والطاعة(٦٧) . فجمع مأمون أعيان وخوارزم ، واستشارهم فى الأمر ، فأظهروا نفورا من ذلك وعدم استجابة ، وقالوا نحن أتباعك وأعوانك ، وأسلم لك الملك عن الاشتراك ، فأما اذا وضعت خدك للطاعة وضعنا السيوف على العوانق خلعا لك وجهادا فيك(٦٨) ، فعاد الرسول الى السلطان محمود وأخبره بموقف أهل خوارزم المناهض للانضواء تحت لواء الدولة الغزنوية .

وكان لأمير خوارزم جيش قوى يرأسه كبير الحجاب ألبتكين البخارى ، فلما علم الجند بنوايا محمود الغزنوى نحو بلادهم ، وميل أميرهم الى طاعته صاحوا بأن ليس لمحمود سلطان علينا ، وتحركوا بخيولهم ، وتخلصوا من الأمير وأنصاره وأشعلوا النار فى قصر الامارة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ — ١٠١٧ م ونادوا بابن أخيه محمد بن على بن مأمون أميرا على خوارزم ، وسيطر ألبتكين على أمور خوارزم ، وقد نحى هذا الأمير جانبا ، فانه لم يكن يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فكان ألبتكين وأعوانه يعملون باسمه ما يريدون من القتل وسلب الأموال ،

---

(٦٦) العتبى : « تاريخ اليمينى » جـ ١ ، ص ٢٥١ — ٢٥٣ .
Saunders «op - cit».

(٦٧) ابن خلدون : « العبر » جـ ٥ ، ص ٣٧١ .

(٦٨) العتبى : « تاريخ اليمينى » جـ ١ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٤ .

ونهب البيوت ، ويشيعون الضغائن بينه بين الناس وظلوا يتحكمون فى أمر خوارزم أربعة أشهر ساموا أهلها خلالها سوء العذاب[٦٩] .

استاء السلطان محمود الغزنوى من موقف جند خوارزم المناهض لتبعية البلاد له ، فسار الى خوارزم على رأس جيش كبير ، واشتبك مع جندها فى معركة هزمهم فيها . ونكل بقتله حليفة أبى العباس ، وقبض على مثيرى الاضطرابات ، وأمر بهم فسيقوا الى بلاد الهند[٧٠] وضم السلطان خوارزم الى دولته ، وخلع أميرها الصغير ، واستناب بها حاجبه أبا سعيد التونتاش ، فضبط أمورها ، وأعاد الأمن الى نصابه فى هذه البلاد النائية القابعة على حدود الدولة الغزنوية ولقبه السلطان محمود خوارزمشاه واستطاع هذا الوالى الكفء حماية خوارزم من اغارات الترك ، وقبض على جميع أفراد لأسرة المأمونية[٧١] .

على أن أمر خورزم لم يصف للدولة الغزنوية ، بعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه السلطان محمود على ثوارها ، فقد جمع أحد أنصار الأسرة المأمونية جيشا كبيرا ، وانقض فجأة على خوارزم ، واستولى عليها ودارت حرب طاحنة بين جند الدولة الغزنوية ، وبين أنصار الأسرة المأمونية انتهت بسحق أنصار العهد السابق ، وتمزيقهم شر ممزق ، بعدها عادت هذه البلاد الى الهدوء والسكينة ، وأمن أهلها فى ظل الحكم الغزنوى ، وانتهت الى الأبد حكم آل مأمون لخوارزم[٧٢] .

ظل التونتاش يحكم خوارزم بحزم حتى وفاته سنة ٤٢٣ هـ فعهد السلطان مسعود الى ابنه هرون بن التونتاش يحكم خوارزم ، غير أن هرون خالف أباه فى ولائه للدولة الغزنوية ، فقد اتخذ سياسة مناهضة

---

(٦٩) العتبى : نفسه ص ٢٥١ — ٢٥٥ .
(٧٠) ابن الاثير : نفسه ، حوادث سنه ٤٠٧ هـ .
(٧١) عصام عبد الرؤوف : « الدولة الاسلامية » ، ص ١٠١ .
(٧٢) نفسه ، ص ١٠٢ .

تكرار للسلطان مسعود ، وأعلن السلاجقة حربهم ضد الدولة الغزنوية ، بل أعد العدة للمسير الى خراسان ، وانتزاعها لنفسه ، لكنه قتل سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م فخلفه ابنه اسماعيل الذى أعلن الاستقلال عن الدولة الغزنوية(٧٣) . فعهد السلطان بولاية خوارزم الى شاه ملك — أمير جند — وطلب منه أن ينكل باسماعيل بن التونتاش وانصاره ، ويعيد البلاد الى الطاعة والولاء لغزنة .

سار شاه ملك الى خوارزم ، وطلب من اسماعيل وانصاره اخلاءها ، ولكن اسماعيل أرسل اليه يقول انه لا يتخلى عن خوارزم الا بالسيف فكان لابد من الحرب بين الفريقين ، وفعلا اشتبك شاه ملك مع اسماعيل فى حرب انتصر عليه فيها ، واستعاد الحكم الغزنوى على هذه البلاد وولى حكمها من قبل السلطان مسعود(٧٤) .

السلاجقة والخوارزميون

السلاجقة مجموعة من القبائل التركية التى عرفت باسم الغز ، وكانت تسكن الهضاب الغربية من بحيرة خوارزم « بحر آرال » فتنزل بالقرب من الشواطىء الشرقية لبحر قزوين وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون ، وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة الى زعيمها سلجوق بن دقاق(٧٥) .

وقد بدأت هجرة هؤلاء الأتراك الغز تحت زعامة سلجوق من مواطنهم متجهين نحو بلاد ما وراء النهر سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م . وأقاموا بها متعاونين مع الدولة السامانية يجاهدون من وراءهم من الترك الكفار . ويساعدون السامانيين فى حروبهم مع خانات الترك وفى نزاعهم مع الغزنويين .

---

(٧٣) ابن الاثير : « الكامل » ، حوادث ٤٢٩ هـ .
(٧٤) نفسه .
(٧٥) عبد النعيم حسانين : « سلاجقة ايران والعراق » ، ص ١٧ .

والواقع أنهم دخلوا الاسلام على المذهب السنى ، وتحمسوا للاسلام تحمسا شديدا حتى أصبح لهم شأن عظيم فيما بعد .

ولعل جهود سلجوق مع السامانيين أتاحت له فرصة السيطرة على منطقة خصبية من بلاد ما وراء النهر ، وضمها الى امارته الناشئة(٧٦) .

ظل أمر السلاجقة فى صعود فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت منازلهم فى الشتاء فى نور بخارى وفى الصيف فى صغد سمرقند . لكنهم بعد وفاة زعيمهم سلجوق اتجهوا الى خراسان بعد أنقبض محمود الغزنوى على زعيمهم أرسلان السلجوقى(٧٧) .

لم تتوقف أطماع السلاجقة عند هذا الحد ، بل أغار على اقليم خراسان ، وعندما اشتكى منهم أهل نسا ، وباورد عينهم ببلادهم سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م حاربهم السلطان محمود الغزنوى وفرقهم فى بلاده سنة ٤٢٠ هـ(٧٨) .

وعندما لحقت الهزائم بالسلاجقة أذن لهم هرون بن التونتاش والى خوارزم بالاقامة فى اقليم خوارزم شتاء ، وأمر السلطان مسعود بن محمود الذى ولى بعد وفاة أبيه سنة ٤٢١ هـ شاه ملك والى جند بمهاجمة خوارزم والتخلص من السلاجقة ، فباغت شاه ملك السلاجقة على حين غفلة ، وشتت شملهم فهجروا خوارزم وتفرقوا فى بقية البلدان الاسلامية(٧٩) .

---

(٧٦) فامبرى : « تاريخ بخارى » ، ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٧٧) البندارى : « تريخ دولة آل سلجوق » ، ص ٥ .

(٧٨) ابن الأثير : حوادث سنة ٤٢٠ هـ .

(٧٩) عصام عبد الرؤوف : نفسه ، ص ١٠٨ .
Saunders «op - cit» p. 39.

وقد حاول هؤلاء السلاجقة أن يتحالفوا مع السلطان مسـعود السلجوقى الأأنهخالفهم لمـا يعرفه من أطماعهم •

وقد حدث صدام بين السلاجقة ووالى نيسابور قاعده الغزنويين فى خراسان فدخلوا معه فى حروب اضطر فيها الى الاستعانة بقوات السلطان مسعود الذى تولى بعد أبيه محمود ، غير أن السلاجقة حققوا نصرا كبيرا على قوات نيسابور ثم على مسـعود نفسه بعـد ذلك ، واضطروه الى عقد الصلح معهم(٨٠) •

بعد هذا الانتصار ، اتخذ السلاجقة من فترة الهدنة وقتا لالتقاط الأنفاس وليكسبوا شيئا من البلاد يعترف السلطان بحقهم فى ولايتها ، ولكن بعد أن أمنهم السلطان مسعود ، واعطاهم بعض الولايات مثل نسا وفراوة وغيرها نقض الصلح معهم ، وأمر والى خراسان بمحاربتهم الا أنهم انتصروا عليه سنة ٤٢٩ هـ ودخل طغرل بك مدينة نيسـابور معلنا قيام دولة السلاجقة(٨١) •

لم يستسلم السلطان مسعود لهذا النجاح السلجوقى بل قـرر شن الحرب عليهم ، لكنه هزم على يد طغرل فى موقعة داندانقان سنة ٤٣١ هـ ، وبهذه المعركة انفتح الطريق أمام السلاجقة ليؤكدوا انتصارانهم، وليستولوا على بقية البلاد الاسلامية خاصة فى ايران •

استيلاء طغرلبك على خوارزم :

لقد رأينا انتصار شاه ملك على اسماعيل بن التونتاش ، وتوليـه على خوارزم من قبل السلطان مسعود السلجوقى ، عندئذ هـرب اسماعيل بن التونتاش متوجها الى طغرلبك وداود السلجوقيين والتجأ اليهما وطلب منها المعونة ، فتوجـه داود معه الى خوارزم ، وهنـاك

(٨٠) ابن الاثير : نفسه .
(٨١) الراوندى : « راحة الصدور » ، ص ١٥٧ .

التقى بقوات شاه ملك ، وحدث صدام مسلح بين الطرفين انتهى بانتصار طغرلبك وانهزام شاه ملك ، هرب الى هستان وطيس فوصل اليه أرتاش أخو ابراهيم ينال وابن عم طغرلبك « فأسره وأخذ ما معه وسلمه الى داود »(٨٢) وبذلك دخلت خوارزم فى طاعة السلاجقة وفى المدة من سنة ٤٣٤ الى ٤٤٦ هـ استطاع طغرلبك أن يضع يده على كل الأجزاء الغربية ، فاستولى على قزوين وأبهر وزنجان وهمذان ، واقليم آذربيجان فخضع له بذلك أمراء الديلم ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان التى قاومت كثيرا حتى توجه بنفسه ، وفى سنة ٤٤٢ توجه لفتح أصفهان وجنوب ايران ، فاستولى عليها وعلى اقليم فارس ، وبذلك أسقط الدولة البويهية فى هذه المنطقة(٨٣) .

وقد اتجه فريق من السلاجقة نحو الثغر الرومى ، وبدأوا يصبغون حركتهم بصبغة الجهاد الدينى لقتال الروم على يد ابراهيم ايال . ومنذ ذلك التاريخ اصطدم السلاجقة بالروم وتولوا أمر الثغر الرومى(٨٤) . وعرفوا باسم سلاجقة الروم . وقد كتب للدولة السلجوقية أن ترث الأرض ومن عليها ، فكانت الظروف التى تمر بها الخلافة العباسية فى نهاية العصر البويهى(٨٥) وبذلك نجح طغرلبك فى دخول بغداد عام ٤٤٧ هـ(٨٦) .

وقد توالى على حكم دولة السلاجقة السلطان طغرلبك ثم ابن أخيه ألب أرسلان وابن أخيه ملكشاه والذى اتسعت فى عهده ممتلكات

---

(٨٢) ابن الاثير : « الكامل » ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

(٨٣) أحمد الشريف : « تاريخ العالم الاسلامى » ، ص ٥٦٢ .

(٨٤) ابن الاثر : جـ ٨ حوادث سنة ٤٤٦ هـ — ٤٥٠ هـ .

(٨٥) لمزيد من التفاصيل عن أحوال الخلافة العباسية فى هذه الاونة انظر حسن محمود ، ابراهيم احمد الشريف « تاريخ العالم الاسلامى » وكذلك جميع كتب تاريخ الخلافة العباسية .

(٨٦) ابن الاثير : نفسه ، حوادث سنة ٤٤٧ هـ .

السلاجقة فتكونت منها خمس ممالك فى العالم الاسلامى سلاجقة ايران وفارس ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة العراق ، وسلاجقة الروم وسلاجقة الشـــام .

وقد أعقب هذه المرحلة القوية من تاريخ الدوله السلجوقية بداية عصر التفكك الذى بدأ من عصر بركياروق حيث كان الصراع على السلطنة السلجوقية بين أبناء السلطان ، وبين وزرائه ، وبين عمهم الســلطان تاج دولة تتش الذى كان واليا على دمشق وما جاورها من بلاد الشام من قبل أخيه السلطان ملكشاه(٨٧) .

وكان أخطر ما واجه بركياروق الصراع الذى احتدم بينه ، وبين أخويه محمد وسنجر ، واستمرت المعارك بينهم نحو خمس سنوات من عام ٤٩٢ هـ/٤٩٧ هـ تداولوا فيها النصر والهزيمة ، والخلافة فى كل ذلك لا تتحرك لشىء الا أن تستجيب لهذا أو لذاك ، فهى لا ترد طلب من بدأ غالبـــا(٨٨) .

ويهمنا الآن أمر السلطان سنجر ،وهو أحد حكام سلاجقة خراسان ويعد من السلاطين العظام ، الذين اعترف لهم جميع حكام الســلاجقة بالزعامة والسلطنة(٨٩) .

وكان سنجر واليا على خراسان ، وما وراء النهر فى عهد كل من

---

(٨٧) البندارى : « تاريخ مختصر آل ســـلجوق » ، ص ٨٥ ، ابن القلانسى : ص ١٣٦ — ١٣٨ .

(٨٨) عبد النعيم حسنين : السلاجقة .
Saunders «op - cit» p. 40.

(٨٩) ابن الاثير : « الكامل » جـ ٨ ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

أخويه بركياروق ومحمد ، وكان يسمى ملك المشرق ، وقد ظل سنجر فى المشرق بعد تولية عرش السلطنة ، فأطلق على السلاجقة الذين يمثلهم اسم « سلاجقة خراسان » تميـزا لهم عن سلاجقة العراق ، وقـد استطاع سنجر قبل تولية عرش السلطنة أن يوطد نفوذه ، وأن يقوم بفتوحات بسطت نفوذه على جهات أخرى من ترمذ وطخارستان فى عام ٤٩١ هـ ، وضمها الى ملكه واستطاع أن يبسط نفوذه على ما وراء النهر سنة ٤٩٥ هـ(٩٠) الى غير ذلك من المناطق .

---

(٩٠) نفسه ، حوادث من سنة ٤٩٠ ــ ٤٩٥ هـ .

الفصل الثانى

تأسيس الدولة الخوارزمية

كان بداية ظهور الدولة الخوارزمية مرتبطا أشد الارتباط بدولة السلاجقة الحاكمة فى هذه الفترة والتى بسطت سلطانها على اقليم خوارزم كما ذكرنا منذ عهد طغرلبك السلجوقى ، فظلت تابعة لسلطان ورثته من بعده .

ويرجع تأسيس هذه الدولة الى مؤسسها أنوشتكين[1] ، وكان فى أول أمره عبدا اشتراه أحد أمراء السلاجقة المدعو يلبك من رجل من غرشتان[2] فسمى « انوشتكين غرشجة »[3] .

عمل انوشتكين فى وظيفة الطشت دار[4] أو الساقى وهى احدى

---

(١) يرجع نسب انوشتكين الى بلكتين احد مماليك السلطان ألب أرسلان بن جغرى بك الذى كان له ولاية ملك خوارزم من جهة السلاطين السلجوقية ، فلهذا كان يقال لكل واحد منهم اذا ملك مدينة خوارزم شاه .
انظر ابن واصل : « مفرج الكروب » ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

(٢) غرشتان ، بلاد الغور على لسان أهل خراسان وهى ولاية بين غزنة وكابل وهراة وبلخ .
انرظ : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٨٥ — ٧٨٦ .

(٣) ابن الأثير : « الكامل » ج ٨ ، ص ١٨٤ .

(٤) الطشت دار هو أحد الموظفين الذين يعملون فى الطشت خان أى المكان الذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الأيدى والطشت الذى تغسل فيه لأقمشة ، وكان الطشت خان يحوى ملابس السلطان ، وكذا المقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه السلطان ويعرف بعض الصبيان الذين يعملون فى هذا المكان بالطشت دارية ، ويعرف بعضهم بالختوانية ،
القلقشندى : « صبح الأعشى » ج ٤ ، ص ١٠ — ١١ .

وظائف البلاط الاسلامى المعروفة[٥] ، كما أسندت اليه وظيفة شحنه خوارزم باعتبار أن هذه الوظيفة تابعة لوظيفة الطشت دار[٦] ، الى أن قام السلطان السلجوقى بركياروق بتنصيبه حاكما على اقليم خوارزم ، وتلقب بلقب خوارزم شاه سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م مكافأة له على خدماته للبيت السلجوقى .

ويبرز لنا بن الأثير شخصية أنوشتكين بأنه كان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدما مرجوعا اليه[٧] .

توفى انوشتكين عام ٤٩٠ هـ تاركا تسعة أولاد وأحفاد من أبرزهم ابنه محمد الذى أحسن تربيته وتعليمه ، ودربه على أصول الحكم والادارة . وفى سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م عمل أحد غلمان السلاجقة ، وكان ينحدر من سلالة الخوارزمشاهين حارسا لبركياروق ، ويأورا له ، واسم هذا الغلاب « النجى بن قجفار » وكان سىء الحظ اذ قتله اثنان من الأمراء فى نفس العام ، فلما علم داود بك حبشى — عامل خراسان بذلك الأمر أعطى حكومة خوارزم لقطب الدين محمد بن أنوشتكين غرجه[٨] . وعين سنجر السلجوقى آنذك واليا على خراسان من قبل أخيه بركياروق ، فأذن لقطب الدين محمد بأن يحكم خوارزم وأصبح يلقب بالخوارزمشاه ، واستمر يحكم مدة ٣٠ عاما لم يخرج فيها عن طاعة السلاجقة ، وقد أمضى من الأعوام الثلاثين ستة أعوام فى بلاط السلطان سنجر السلجوقى ، كما أرسل ابنه أتسز الى بلاط سنجر حيث قضى عاما فى خدمة السلطان[٩] .

---

(5) Curtin «The Mongol History».

(٦) خوندمير (غياث الدين) : « حبيب السير » ، جـ ٢ ، ص ٦٢٩ .

(٧) ابن الاثير : « الكامل » ، جـ ٨ ، ص ١٨٤ .

(٨) خوندمير : « حبيب السير » جـ ٢ ، ص ٦٢٩ .

ابن الاثير : « الكامل » جـ ٨ ، ص ١٨٤ .

(٩) خوندمير : نفسه .

ويؤكد المؤرخون على حسن أخلاق قطب الدين محمد بن انوشتكين وكيف كان عادلا حيث عم الأمن والسلام ربوع البلاد فى عهده ، وذاع صيته ، وانتفع الناس ببره وكرمه • ومن أبرز خصاله أنه قرب اليه رجال العلم والدين ، فأصبحوا هم خاصته وبطانته « فازداد ذكره حسنا ومحله علوا »[١٠] •

ومن أهم الخدمات التى أسداها قطب الدين الى السلطان سنجر السلجوقى عندما هوجمت مدينة خوارزم من قبل ملوك الأتراك أثناء غياب محمد عنها ، ويرجع سبب هذا العدوان التركى على أرض خوارزم الى هروب طغرلتكين بن اكتجى الذى كان أبوه خوارزمشاه من قبل عند السلطان سنجر فهرب منه الى الأتراك ، واستنجد بهم من أجل أن يساعدوه على الظفر بخوارزم مرة أخرى[١١] •

عندما وصلت أبناء هذا الغزو الى مسامع قطب الدين ، بادر بالعودة الى خوارزم ، وقبل وصوله اليها أرسل الى سنجر أثناء تواجده بنيسابور يطلب منه العون ، وبعد ذلك تقدم محمد ناحية خوارزم فهربت قوات الأتراك الى منقشلاغ ، وبذلك أمنت البلاد شر الهجوم التركى واتحدت القوى الخوارزمية والسلجقية جميعا أمام الأعداء •

وقد كانت وفاة قطب الدين محمد فى عام ٥١ هـ /١١٢٦ م ، وقد تولى ابنه أتسز[١٢] مكانه ٥٢٢ هـ /١١٢٧ م « فمد ظلال الأمن ، وأفاض العدل »[١٣] ، وكانت قواعد الألفة والمحبة مستحكمة بينه وبين السلطان

---

(١٠) ابن الاثير : نفسه •

(١١) ابن الأثير ، نفسه •

(١٢) اتسز كلمة تركية معناها من لا اسم له « آت — اسم — سيز — أداة التجريد ، وقد جرت العادة عن الترك أن من يموت بنوه يسمى واحدا منهم بهذا الاسم حتى يعيش ولا يهلك • انظر :
النسوى : « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » ، حاشية ١ ، ص ٣٤ •

(١٣) ابن الأثير : « الكامل » •

سنجر ، اذ تصادف أن تعرض سنجر لمؤامرة استهدف فيها المتآمرون قتله أثناء خروجه للصيد ، وعلم أتسز بما يدبر لسيده فتدخل فى الأمر ، ونجاة من الموت حقدا منهم وحسدا ولاة سنجر على خوارزم ليبعده عن أيديهم(١٤) .

وفى عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م رافق اتسز السلطان سنجر حين توجه لمحاربة السلطان بهرام شاه سلطان الغزنويين ، فقد كان ولاؤه مازال بعد لسـيده .

ويرجع سبب خروج سنجر لمحاربة السلطان الغزنوى بهرامشاه لتغيره عن طاعته ، وانه مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب أموالهم(١٥) . لذلك نجح سنجر وخوارزمشاه فى دخول غزنة وتملكها .

وقد ظل أتسز على علاقة طيبة بالسلطان السلجوقى سـنجر فى الفترة من ٥٢٠ هـ / ٥٢٩ هـ — ١١٢٦/١١٣٤ م وعندما وطد أركان دولته بالصورة التى جعلها تقف على حد السواء مع مملكة السلاجقة وجدنا أتسز يفكر فى الاستقلال وتدعيم ملكه بعيدا عن سلطان السلاجقة .

لذلك وفى عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ثار أتسز على سنجر ، وهاجم عدة مناطق تابعة للسلاجقة انتزعها من قبضتهم ، كما بدأت الأخبـار تصل بأن أتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وأن هذا الأمر قد ظهر على كثير من أصحابه(١٦) .

وفى هذه الآونة وجد السلطان سنجر نفسه أمام قوتين هما الدولة الخوارزمية من جهة والخطا من جهة أخرى ، وقد اتحدت مآربهما ضده

---

(١٤) خوندمير : « حبيب السير » ، ص ٦٢٩ .

(١٥) ابن الاثير : « الكامل » ج ٨ ، حوادث ، ص ٥٢٩ هـ .

(٦) ابن الأثير : « الكامل » ج ٨ ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

خاصة بعد أن تزوج أتسز من هؤلاء القوم[١٧] • ومع ذلك فقد هاجم أتسز السلطان سنجر الا أنه هزم هزيمة نكراء عند مدينة هزار سب[١٨] واستولى سنجر على خوارزم[١٩] ، وذلك لأنه لم يكن للخوارزميين قوة بالسلطان ، فلم يثبتوا[٢٠] •

ويذكر خوندمير أن سنجر انتقم من أتسز انتقاما كبيرا ، بأن قطع جسد ابنه الى نصفين من وسطه[٢١] • « وقد حزن أتسز على ابنه حزنا عظيما ، ووجد وجدا شديدا »[٢٢] •

استولى سنجر على خوارزم ، « وأقام بها من يحفظها وعاد الى مرو »[٢٣] وكان الذى عين عليها هو الأمير غياث الدين سليمان شاه بن السلطان محمد السلجوقى ، وعين له وزيرا واتابكا وحاجبا ، وقــرر قواعده[٢٤] ، ولكن لم يهيأ له الجو اذ ما لبث أن عاد أتسز خوارزمشاه بمعونة الأهالى الذين يكرهون سنجر وعساكره ويؤثرون عودة خوارزم

---

(١٧) حافظ حمدى : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، ص ٢٠ .

(١٨) قلعة حصينة من نواحى خوارزم .
— ياقوت : « معجم البلدان » ج ٤ ، ص ٩٧١ .
ومعناها بالفارسية : « الف فرس » .

(١٩) أبو الفدا : « المختصر فى اخبار البشر » ج ٣ ، ص ١٤ حوادث سنة ٥٣٢ .

(٢٠) ابن الأثير : حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

(٢١) خوندمير « حبيب السير » ، ج ٢ ، ص ٦٣١ ، وهى التى تعرف باسم عقوبة التوســيط ، وتقتضى بضرب المحكوم عليه بواسطة الســياف على أن تكون الضربة قوية تحت السرة ، فتقسم الجسم الى قســمين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه على الأرض .
انظر : عاشور : « العصر المماليكى فى مصر والشام » ، ص ٤٢٤ .

(٢٢) ابن الأثير : « الكامل » ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

(٢٣) أبو الفدا : « المختصر » ، ج ٣ ، ص ١٤ ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ .

(٢٤) ابن الأثير : « الكامل » ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

شاه — الى خوارزم ، فهرب سليمان شاه بن محمد ، واستولى أتسز على المدينة ، وعاد لحكمها .

وقد حاول أتسز أن ينتقم من سنجر ، « فبعث الى الخطا[٢٥] وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد ، ويروج عليهم أمرهم ، وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر »[٢٦] .

وبعد قدوم الخطا الى البلاد فى ثلثمائة ألف فارس سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م خرج اليهم سنجر بعساكره وأشتد القتال بين الطرفين وهزم السلطان سنجر وقتل من جنوده ما يزيد عن مائة ألف قتيل حتى أن

---

(٢٥) كانت الحالة السياسية فى شرق آسيا فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى من الاضطراب بمكان مما ادى الى هجرة قبائل الخطا من موطنهم الأصلى فى شمال بلاد الصين الى أن هبطوا على غرب اقليم التركستان . نجحوا فى أ نيفرضوا على أسرة سونج الصينية جزية سنوية وقد سمت الأسرة نفسها أسرة ليكو نسبة للاقليم الذى يعيش فيه ، الا أن هؤلاء الخطا فقدوا روحهم الحربية بانغماسهم فى المدينة ، فنجحت جماعة كين الذين كانوا يسكنون منشوريا فى سحق الخطا، وانهارت دولتهم سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . وقد فر أحد أمراء الخطا سنة ٥١٦ هـ — ٥١٧ هـ الى أقاليم التركستان ، وانتهز فرصة ضعف الاقليم ، فاستولى على بلاساغون شمالى كاشغر ، ثم ضم كاشغر خوتان ورد عن الاقليم الهجمات التركية . ونجح الأمير بجالوتاش فى أن يجعل نفوذه بحل محل نفوذ أهل المنطقة وتوسع شرقا وغربا حتى وصلت الى صحراء جوبى الى نهر سيحون ومن هضبة التبت الى سيبريا ، وأصبح غورخان هو ملك الملوك التركى الوثنى مما هدد البلاد الاسلامية المتاخمة لأنه انتقل من بلاساجون الى كاشغر خاصة وأن هذه الفترة صادفت تدهور النفوذ الاسلامى .

انظر : حافظ حمدى : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، ص ٥١—٥٢.

(٢٦) أبو الفدا : « المختصر » ج ٣ حوادث ٥٣٦ هـ.

زوجة سنجر قد أسرت فى أيدى الخطا[٢٧] • وتسمى هذه المعركة « معركة قطوان »[٢٨] وبعدها تراجع سنجر الى ترمذ وسار منها الى بلخ[٢٩] •

وقد انتهز خوارزم شاه اتسز فرصة الهزيمة التى حاقت بالسلطان سنجر ، وقرر ضرورة مهاجمة اقليم خراسان فتوجه أولا الى مدينة سرخس ثم منها الى مرو « وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم » ، لأنهم قتلوا بعضا من الجند الخوارزمية ، وتم الاستيلاء على المدينة فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٣٦ هـ[٣٠] • ثم عاد أتسز الى خوارزم مصطحبا عددا كبيرا من علماء خراسان وبعد ذلك وفى شهر شوال من نفس العام توجه أتسز الى نيسابور ، واستجاب الى توسل علمائها ورجال المدينة حتى لا يتعرض لأهلها ، لكنه قام فى أول ذى القعدة بقطع الخطبة للسلطان سنجر وخطبوا لأتسز خوارزم شاه ، « لكن الناس صاحوا وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود م نجديد »[٣١] • فقام العلماء وهدأوا من روعهم وأعادوا الهدوء الى البلاد ، وقطعت الخطبة فى أول المحرم سنة سبع وثلاثين ثم أعيدت للسطان سنجر •

وقد قام أتسز بارسال جيش الى بيهق ، فقاتلوا أهلها خمسة أيام ، ولعل السبب فى عدم خروج السلطان سنجر لمواجهة أتسز خوفه

---

(٢٧) أبو الفدا : نفسه •

ويذكر الحسينى فى « أخبار الأمراء والملوك السلجوقية » أن الملكة تركان خاتون بنت أرسلان خان زوجة السلطان سنجر أسرت والأمير قماج وابنته والأمير سنجر العزيزى ، وقتل الأمر أبلق •

انظر ص ١٨٦ •

(٢٨) قطوان : مدينة بالقرب من سمرقند •

(٢٩) أبو الفدا : نفسه •

(٣٠) أبو الفدا : نفسه •

(٣١) ابن الأثير : نفسه ، ابن خلدون : « العبر » جـ ٥ ، ص ١٤١ •

من قوة الأتراك الخطا حلفاء أتسز والذين نجحوا من قبل فى هزيمة السلطان(٣٢) .

وخلال هذه الفترة سعى أتسز جاهدا فى تأليب الأقطار الاسلامية ضد مولاه سنجر ، وتوعده سنجر فلم يرتدع ، ويقال أنه أوعز الى أحد شعرائه فنظم شعرا يجيب به على السلطان ويعلن موقفه ويؤكد اصراره على العصيان . ومما قاله فى هذا الصدد :

اذا كان حصان الملك سريع العدو فليس حصانى بأعرج
فتعال هنا .. واذهب أنا هناك فليس العالم ضيقا (٣٣)

ولعل ما قام به أتسز ضد السلطان سنجر السلجوقى يعتبر عملا طائشا من الممكن أن يؤدى الى زعزعة الكيان السلجوقى ، وانهياره فى وقت كان الاسلام فيه فى حاجة الى الوحدة والاتحاد حيث كان الصليبيون قد نجحوا فى تأسيس امارات صليبية لهم فى بلاد الشام والمسلمون يتنافرون فيما بينهم .

ولقد كان لهذا الموقف أثرا آخر وهو قوة الأتراك الخطا الوثنيين الذين أصبحوا قوة على الحدود ، فقام كورخان بتولية أتميكين ابن الأمير بيابانى بن أخى أتسز حاكما على بخارى من قبل الخطا ، وهو الأمر الذى يؤيد تحالف خوارزم شاه أتسز مع الخطا ضد السلطان سنجر(٣٤) .

وفى عام ٥٣٨ هـ قرر السلطان سنجر الانتقام من خوارزم شاه أتسز فجمع جيوشه وتوجه صوب خوارزم ، فتحصن أتسز بمدينته ولم

---

(٣٢) ابن الأثير : نفسه .
البندارى : « تاريخ دولة آل سلجوق » ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
(٣٣) أحمد كمال الدين حلمى : « السلاجقة فى التاريخ والحضارة » ، ص ١١٦ نقلا عن الراوندى راحة الصدور ، ص ٢٦٤ .
(٣٤) نافع العبود « الدولة الخوارزمية » ، ص ٢٥ .

يخرج لملاقاة سنجر لعلمه أنه لا يقوى عليه »[٣٥] . واستمر القتال بين القوتين من وراء سور المدينة ، وفجأة هاجم أحد رجال سنجر المدعو سنقر على غرب المدينة ، فى حين هاجم مثقال التاجى شرقيها ، الا أنه انهزم ولم تبق الا قوات سنقر الذى نجح أتسز فى اخراجه من المدينة، وبقى سنجر وحده . فشعر أتسز فى هذه الاونة بقوة سنجر ، ورأى أنه من الأصوب أن يصالحه ويهادنه فراسله أتسز معتذرا له مبديا أسفه ، والتمس العفو ، وقدم الهدايا وطلب الصلح فقبل سنجر على أن يتنازل له عن كل ما ملكه من البلاد الخرسانية ، وأن يعيد له ما استولى عليه من الجواهر التى أخذها من الخزانة السلطانية فى مرو سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١ م ، وبعدها قرر سنجر العودة الى مرو[٣٦] .

رغم ذلك لم يهتم أتسز بهذه المعاهدة ، بل عندما شعر بقوته وبقدرته على مواجهة السلطان سنجر ، بدأ يظهر التمرد مرة أخرى ، حتى أن المؤرخين يؤكدون أن عام ٥٣٨ هـ هو العام الذى أعلنت فيه الدولة الخوارزمية المنفصلة عن الدولة السلجوقية ورشيد الدين الوطواط شاعر بلاط أتسز[٣٧] نظم بمناسبة صولات أتسز فى مناطق خراسان قصيدة مطلعها :

---

(٣٥) ابن الاثير : « الكامل » ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ .

(٣٦) نفسه : أبو الفدا ، المختصر ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ ، ص ١٦ ، البندارى : « تاريخ دولة آل سلجوق » ، ص ٢٥٧ ، العبود : « الدولة الخوارزمية » ، ص ٤٩ .

(٣٧) سمى وطواط نسبة الى قصر قامته ، وقبح منظره ، وقد ترجم براون هذه القصائد الفارسية الى الانجليزية .

انظر حافظ حمدى : « الدولة الخوارزمية والمغول » ، ص ٢٢ .

حين اعتـلى الملك أتسـز عرش المملكة

انتهت دولة سـلجوق وآلـه (٣٨)

كما بعث رشيد الدين الوطواط رسالة الى الخليفة المقتفى لأمر الله يذكره بأفعال السلاجقة ومواقفهم السيئة ، ويذكره بما فعله السلطان سنجر فى هزار آسف « التى يصفها بانها من أمهات قـلاع خوارزم منيعة الأركان رفيعة البنيان » وعدد مواقف سنجر ومحاولاته لخـداع الخوارزميين حتى يسلموا القلعة ، ولمـا لم تفلح محاولاته « مال عن المخادعة الى المقارعة وآل من المخاتلة الى المقاتلة »(٣٩) .

حاول السلطان سنجر أن يوقف عمليات التمرد من قبل أتسـز مستميلا اياه بالحجة والموعظة الحسنة ، لذلك أوفد اليه شخصا يدعى أديب صابر ، وأثناء تواجد أديب بخوارزم ، علم هذا الشاعر بأن أتسز يضمر شرا لمولاه سنجر ، حيث قام بالايعاز الى اثنين من أهل خوارزم الى التوجه الى السلطان سنجر لقتله ، وقد دبر هذه المكيدة مع الباطنية الاسماعيلية ، لذلك قرر أديب صابر أن يبعث الى سنجر ليأخذ حذره ، فأرسل اليه رسالة مخبأة فى حذاء امرأة عجوز تحتوى على أوصاف الشخصين الموكلين بقتله فأمر السلطان بالبحث عنهما وعثر عليهما فى احدى الخرابات فقتلا وعلم اتسز ما فعله أديب صابر ، فأمر بالقـائه فى نهر جيحون واغراقه فيه(٤٠) .

---

(٣٨) الحسينى : « أخبار الأمراء والملوك السلجوقية » ، ص ١٨٨ .
محمد كمال الدين حلمى : « السلاجقة فى التاريخ والحضاره » ص ١١٦ .
الجوينى ، ج ٢ ، ص ٧ النص الفارسى .
ملك آتسـز تنجت ملك برآمـد دولت سلجوق وآل أو برآمـد

(٣٩) رشيد الدين الوطواط : « مجموعة رسائل رشـيد الدين » ، رسالة الى المقتفى ، ص ٨ .

(٤٠) محمد كمال الدين حلمى : نفسه ، ص ١١٦ — ١١٧ ، العبـود : ص ٥٠ .

وتحرك سنجر ثانية فى عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م نحو خــوارزم وحاصر قلعة هزار اسب مدة شهرين « فحاصرها ورماها بالمنجنيقات وطال الحصار حتى فتحها عنوة »(٤١) . وكان شاعره الأنورى فى رفقته فطلب منه أن ينشىء بضعة أبيات تناسب بالموقف فنظم ما معناه :(٤٢)

أيهـــــا المليـك	ان ملك العالم رهن اشــارتك
والعالم ملك عينك بفضــــــل	اقبــال خطك ودولتــــــك
فخذ اليــوم بحملة واحـــــدة	قصــبة هزار أسب وقلعتـــا
وغــدا تكــون لك خــوارزم	ومائــة شــبيهة بهزار أســب

وكتب هذا الرباعى على سهم قذف به الى داخل القلعة المحاصرة ، وفعل الوطواط نفس الشىء ، وكان برفقة آتسز فكتب بيتا على سهم طوح به الى جيوش السلطان وقال فى هذا البيت معظما مولاه ساخرا من السلطان .

لو قدر وكان خصمك هو البطل المعروف رستم ، فلن يتمكن من أخذ حمار واحــد من هزار أســب « أو من جيادك الألــف »(٤٣) .

---

(٤١) الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٤٢) حلمى : نفسه ، النص الفارسى لشعر الأنورى :

أى شاه همه ملك زمنى حســب تراست
وزر دولة واقيـــال جهان كســب تراست
أمروز بيــك حملة هــزار أســب بكــير
فردا وخارزم وصد هزار اسب تراســت

انظر الجوبنى ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٤٣) محمد حلمى : نفسه .

النص الفارسى لرشيد الدين الوطواط :

كر خصم توای شاه شود رســتم كــرد
يك خـــرز هزار أســب تونتواند برد

انظر الجوينى : « تاريخ جهنكشاى » ، ج ٢ ، ص ٨ .

غضب السلطان سنجر غضبا شديدا من هذا الشعر ، لذلك قام بتشديد الحصار حتى استولى على هزار أسب بعد حصار دام شهرين ، ولجأ اتسز كعادته الى الاستعطاف « ورد الصناديق التى أخذها من سنجر بختمها السنجرى »[٤٤] . وحضر بناء على أمر سنجر الى شاطىء جيحون ، وكان سنجر قد اشترط عليه أن يضع وجهه فى التراب ، الا أن آتسز رأى أن العفو بهذا الشكل يحط من قدره ، فخرج عن حدود الأدب أثناء مقابلته له فى المحرم ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م حيث أنه عندما حضر فى اليوم المقرر لتقديم خضوعه أحنى رأسه ، ولم يترجل عن فرسه ، ولما أراد السلطان أن يلوى عنان فرسه طفق راجعا ، فتأثر السلطان سنجر من عمله هذا الذى دل على سوء التصرف وقلة الاحترام[٤٥] .

الا أن الحسينى يؤكد على أن آتسز قبل الأرض للسلطان سنجر فى قوله « ونزل بحيث يرى وقبل الأرض وتقبل الفرض »[٤٦] . ورغم ذلك لم يرق لعينى سنجر ، الا أنه تركه وصفح عنه ولم يحاربه ، وكان فى اقراره له على خوارزم ما ثبت أركان دولته ودعمها ، بينما أخذت دولة سنجر فى الانهيار .

وقد أرسل سنجر الى آتسز رسله ليطمئنوه بثقة السلطان به ورعايته له وتناسى الحوادث الماضية ، فلما وصل هؤلاء الرسل الى آتسز أكرم وفادتهم عليه لأن ممهتهم كانت تعنى اعتراف السلطان سنجر به حاكما مستقلا على المناطق التى بيده ، ولهذا أبدى آتسز تقديره للسلطان فأرسل اليه الهدايا النفيسة صحبة أولئك الرسل[٤٧] .

---

(٤٤) الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(43) Juwaini history of the Conquers of the world vol II. p. 10.

(٤٦) الحسينى ، نفسه .

(47) «Juwaini» Ibid.

ويعتبر هذا الصلح دليلا على قيام الدولة الخوارزمية المستقلة عن الدولة السلجوقية .

وقد انتهز أتسز الظروف التى كان يمر بها السلطان سنجر فى دولته وبدأ يتوسع على حسابه ، فقد اشتعلت الحرب بين السلطان سنجر والغورية ، فقد كان حاكم دولة الغور يدعى علاء الدين الحسين ابن الحسن ، واستطاع علاء الدين أن يستولى على كثير من مدن ما وراء النهر وخراسان ، ومنها مدينة بلخ ، لذلك خرج اليه السلطان سنجر ، وحدثت بينهما معركة عسكرية انتهت بانتصار سنجر وأسر علاء الدين[٤٨] وقد أحضر سنجر علاء الدين اليه ثم أعاده الى فيروذكوه .

وقد تعرض السلطان سنجر لخطر آخر من قبل قبائل الترك الغز وهم طائفة من الترك المسلمين كانوا بما وراء النهر ، وقد انتهز آتسز الحالة التى أمسى فيها سنجر فحاول أن يتفق معه على محاربة الغز فى نظير ذلك يعطيه مدينة آموية « آمل زم » لكن سنجر رفض طلبه[٤٩] . وعلى أثر ذلك جهز آتسز جيشه ، وسار اليها ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، فاستغل سنجر اخفاقه فشرط عليه أن يمده بجيش يقوده ابنه أيل أرسلان بن آتسز وقد ترددت الرسل بينهما فى هذا الشأن دون أن يسفر عن أى اتفاق فظل سنجر وحده فى الميدان أمام قبائل الغز .

كان الخطا قد استولوا — كما ذكرنا على ما وراء النهر ، ووصلوا الى مدينة بلخ بخراسان ، وحاول حاكم المدينة ابعادهم ، لكنهم اقنعوا مرارا فتركهم الى أن قام بعد ذلك لمحاربتهم ، فانتصر الأتراك عليه مما جعل حاكم المدينة قماج يتوجه الى مرو لمقابلة السلطان سنجر الذى قام بمراسلتهم وتهديدهم ، لكنهم لم يرضخوا ، لذلك جهز جيوشه التى

---

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٨ ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .
(٤٩) العبود : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

كانت تزيد على مائة ألف فارس ، وحاربهم فانهزم سنجر وتبعهم الغز قتلا وأسرا « حتى قاموا بأسر السلطان سنجر نفسه وأسر جماعة من الأمراء معه »[٥٠] • وقد دخل الأتراك الغز الى مرو وأمضى فترة طويلة تحت حكمهم ، لذلك توجه آتسز الى خراسان والتقى مع ركن الدين محمود بن أخت سنجر ، وأقاما فى نسا مدة ثلاثة أشهر وتشاوروا فى تدبير أمور المملكة لكن تدبيرهما لم يتم وخططها لم تنفذ بسبب فرار سنجر من أسر الغز وعودته الى بلاده سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م[٥١] ؛ وعندما سمع آتسز بفرار السلطان ظل فى مدينة نسا بانتظار وصول الخان محمود بن محمد وأمراء خراسان ، غير أن هؤلاء لم يقدموا اليه ؛ وحينئذ عاد الى خوارزم فاشتد به المرض ؛ وتوفى فى نفس السنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م[٥٢] ويعلل بن الأثير وفاته بسبب اصابته بالفالج[٥٣] •

أيل أرسلان بن آتسز

بعد وفاة آتسز ملك بعده ابنه أيل أرسلان[٥٤] • فقتل نفرا من أعمامه وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام « وقيل به قتل نفسه » وأرسل الى السلطان سنجر بعد هروبه من الأسر وقدم له الولاء والطاعة والانقياد ، فكتب له سنجر منشورا بولاية خوارزم وسير له الخلع فى رمضان وبقى أيل أرسلان فى ولايته ساكنا آمنا[٥٥] • حتى أن المؤرخين سكرين وروس يؤكدان أن أيل أرسلان كان أول سلاطين الخوارزميين

---

(٥٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٨ حوادث سنة ٥٤٨ هـ .
(٥١) خوندمر : حبيب السير ، ج ٢ ، ص ٦٣٣ .
(٥٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥١ هـ .
(٥٣) الفالج : هو مرض الشلل .
(٥٤) كلمة ايل لفظ تركى معناه ولاية وارسلان معناه أسد .
حافظ حمدى . حاشية كتاب .
النسوى : « سيرة السلطان جلال الدين » ، ص ٣٤ .
(٥٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٠ حوادث سنة ٥٥١ هـ .

المستقلين[٥٦] • ولم يلبث ن توفى السلطان سنجر فى العام التالى فى شهر ربيع الأول ٥٥٢ هـ بعد مرض ألم به بعد أن « جمع اليه أطرافه وكاد يعود اليه ملكه ، فأدركه أجله »[٥٧] • وبهذا يتضح لنا أن الفترة القصيرة التى قضاها أيل أرسلان تحت سلطنة السلطان سنجر تتسم بالمودة والصفاء ولم تحدث أية مشاكل من شأنها أن تكدر العلاقه بين خوارزم وبين سلطنة السلاجقة فى فارس •

ولجأ أيل أرسلان الى تسخير كل ممالك أبيه ، واخضاع حكامها لسلطانه ، وحاول أن يمتنع عن دفع الأموال التى كان يدفعها للقراخطائيين فلقد رأينا كيف استعان آتسز بالخطا عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م أثناء حروبه مع السلطان سنجر ، والواقع أن هذه الهزيمة كان لها أكبر الأثر فى تمكين الخطا من السيطرة على كل بلاد ما وراء النهر بحيث لم يعد للمسلمين فى هذه الأقاليم أى نفوذ زهاء نصف قرن ، بل نجد أن هذه القوة قد أصبحت تسيطر نهائيا على بلاد ما وراء النهر تثير مخاوف الخوارزميين والسلاجقة معا[٥٨] •

وقد نجح الخطا فى جذب المسلمين الموجودين فى بلاد ما وراء النهر الى صفوفهم وبعدها بدءوا فى تهديد الأراضى الخوارزمية غربى نهر جيحون اذ بعد هزيمة السلطان سنجر ، وسيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر ، نجد هؤلاء يندفعون فى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م الى الأقاليم الخوازمية غربى نهر جيحون ويستولون على بعض البلاد

---

(56) Skrin and Ross «The heart of Asia»; p. 140.

(٥٧) ابن الأثير : نفسه ، ص ٥٥ حوادث حوادث ٥٥٢ هـ •
دفن سنجر بن ملكشاه فى قبة بناها لنفسه وسماها دار الأخره ، وكانت مدة سلطنته نحوا من أربعين سنة ، ومدة مملكته اثنتين وستين سنة وعمره اثنتان وسبعون سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام •
انظر الحسينى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ •

(٥٨) حافظ حمدى : « الدولة الخوارزمية » ، ص ٥٣ •

هناك منها سرخس ومرو ، ونيسابور ، لكن يظهر أنهم ادركوا خطر هذا التوسع فعادوا ادراجهم من حيث أتوا مكتفين بأن يكون نهر جيحون الحد الفاصل بينهم وبين الخورزميين(٥٩) .

ويظهر أن لخطا لم يعودوا لبلادهم الا بعد أن خضع آتسز واعترف لهم بتبعيته ، وبعد أن تعهد بدفع ضريبة كبيرة ، بل انهم لم يرحلوا الى بلادهم الا بعد أن أعطاهم الكثير من منتجات البلاد الخوارزمية .

تولى سلطنة السلاجقة بعد وفاة السلطان سنجر ابن ختنه محمود بن محمد بن بغراخان ، وقد كان صاحب الأمر والنهى فى دولته « المؤيد أى أبه » حيث كان يقود الجيوش ضد الغز حيث قتل منهم أعدادا كبيرة ، وبعدها دخلوا معهم فى معركة أخرى « انتهت بهزيمة عسكر خراسان وتفرقهم فى البلاد وظفر الغز بهم »(٦٠) ، وبعدها ترك السلطان محمود خراسان خوفا من الغز وتوجه بقواته الى جرجان الى أن تصالح مع الغز الا أن المؤيد أى أبه خرج عليهم ، وبدأ الغز فى متابعته حيث اعتصم بنيسابور ، وظل حاكما مستقلا بها الى أن تمكنت قوات السلطان محمود بن الخان من محاصرته ، الا أن المؤيد أى أبه تمكن منهم فقبض على السلطان محمود وعلى ابنه جلال الدين محمد « فسمل عينهما وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما حتى توفيا »(٦١) .

استفاد أيل أرسلان من هذه الحوادث واستقل تماما عن السلاجقة الضعاف ، حتى أن المؤرخين يعتبرون أن أيل أرسلان هو أول سلاطين الدولة الخوارزمية المستقلين(٦٢) ، حيث وجد أن المؤيد أى أبه هو

(٥٩) نفسه ، ص ٥٤ .
خوندمر : « حبيب السير » ، ج ٢ ، ص ٦٣٣ .
(٦٠) ابن الاثير ، نفسه ، حوادث سنة ٥٥٣ هـ .
(٦١) ابن الاثير ، نفسه .
خوندمير : « حبيب السير » .
(62) Skrin, Ross «The heart of Asia» p. 140.

صاحب الأمر والنهى فى البلاد ، فقد استولى على نسارستان قرب نيسابور وكذلك طوس وقومس كما استولى على بسطام ودامغان وبعدها أرسل اليه السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعاً نفيسة وألوية معقودة ، وهدية جليلة » وطلب منه أن يهتم باشعاث بلاد خراسان ، ويتولى ذلك أجمع ، وأن يخطب له فلبس المؤيد الخلع وخطب له فى البلاد(٦٣) .

ويرجع المؤرخون السبب فى تولية المؤيد أى أبه الى الأتابك شمس الدين ايلدكز لأنه كان صاحب الأمر والنهى فى مملكة أرسلان وكانت هناك علاقة مودة قوية تربط بين المؤيد أى أبه وايلدكز(٦٤) .

حاول ايل أرسلان أن يستولى على ما حصل عليه المؤيد من ممتلكات خاصة وان السلطنة السلجوقية ضعيفة بينما لم يحاول صرف جهوده للاستيلاء على ما كان بيد الغز من المدن الخرسانية مثل مرو ونسا وبلخ وهراه وسرخس(٦٥) . فلما عزم المؤيد بعد ذلك بعامين استرجاع نسا ، توجه اليها فى جمادى الأولى ، ونجح فى حصارها الا أن أيل أرسلان لم يستسلم لذلك بل خرجت جيوشه لملاقاة جيوش المؤيد أى أبه ، وعند وصولهم الى هناك تراجعت جيوش المؤيد عائدة الى نيسابور ، فنجح أيل أرسلان الخوارزمى فى دخول المدينة ، وأصبحت تابعة للخوارزميين ، وقد حاول الخوارزميون الاستيلاء على نيسابور ، لكنهم لم يتمكنوا بل استطاعوا أن يستولوا على دهستان فهرب حاكمها المدعو ايثاق الى المؤيد أى أبه صاحب نيسابور ، فصارت للخوارزميين شحنة فى هذه المدينة(٦٦) . وبعد ذلك دخلت مدينة هراة فى طاعة

---

(٦٣) ابن الأثير : نفسه ، حوادث سنة ٥٥٨ هـ .
(٦٤) نفسه .
(٦٥) نفسه .
(٦٦) ابن الأثير ، نفسه ، حوادث سنة ٥٦٠ هـ .
الحسينى : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

المؤيد أى أبه بعد أن استدعاه أهلها ، وأعلنوا له الانقياد والطاعة(٦٧) ، وملك عليها مملوكه سيف الدين تنكز .

الا أن خوارزم شاه ايل أرسلان جدد اغاراته للاستيلاء على نيسابور من المؤيد سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وهنا أرسل المؤيد الى الأتابك شمس الدين الدكز « أتابك أران وأكثر بلاد أذربيجان » وكان حينذاك بهمذان يقول له « ان خوارزم شاه ايل أرسلان قد عزم على النزول على نيسابور واستخلاصها منه ، ومتى تم لــه ما يروقه من نيسابور فهو لا يقنع بها وتحدثه نفسه بقصد العراق ، ولئن لم تتحركوا حركة تمنعه من خطر فى نفسه لينفجرن عليكم سيل شقاء لا تطيقون سده ويهيج بحر عناء لا يحرز مده »(٦٨) .

ولم وصل هذا الى الأتابك ايلدكز رحل من همذان الى الرى وارسل الى خوارزم شاه يقول :

« ان هذا المؤيد أى أبه مملوك السلطان ، وخراسان بلاد السلطان وملك آبائه وأجداده ، وكذلك خوارزم التى أنت فيها ، ومتى قصد نيسابور كان الجواب قصدى اياك والمحاربة والملاقاة بيننا أنت من وراء النظر لنفسك »(٦٩) .

شعر خوارزم شاه بالحرج الشديد بعد سماعه لهذه العبارات فقرر التهيؤ لقصد نيسابور فخرج اليها سنة ٥٦٢ هـ ، وظل على القتال مدة شهرين وما قدر منها على شىء »(٧٠) .

---

(٦٧) ابن الأثير : نفســه .

(٦٨) الحسينى : المصدر السابق .

(٦٩) نفســه .

(٧٠) الحسينى : نفسه ، ص ٢٧٨ .

وفى أثناء ذلك كان الأتابك الدكز وعساكر الطرق قد ساروا للقائه ، فأضطر الى الرحيل عنها خائبا ، ويبـــدو أن المؤيد أى أبه كان يخشى عودته مرة أخرى الى نيسابور بعد عودة الأتابك الدكز عنها ، ولذلك مال الى مصالحة الخوارزميين ، فأوفد اليه القاضى الامام فخر الدين الكوفى رسولا يعلمه حيث أنه رجع الى خوارزم ، فان المؤيد أى أبه قد دخل فى طاعته ، وأنه يخطب له ويضرب السكة والدنانير باســمه ويتصرف فى البلاد عن أمره ونهيه ، فسر خوارزم شاه غاية السرور ، ووافق على الصلح ، وخلع على القاضى فخر الدين الكوفى خلعــا سنيه ، واعطاه هدايا جليلة ، وأعاده الى نيسابور ، صحبة رسول من عنده الى المؤيد أى أبه « بتشريفات فاخرة وخيل محلاة بالذهب والفضة وخيل من القباق والجياد محللة بالبراقع والحلال ، ومن سائر الطــرائف المجموعة فى خزائنه »(٧١) ، وبعد أن تحقق الصلح بين خوارزم شاه والمؤيد عاد الأتابك الدكز الى الرى وأذربيجان .

ويهمنا بعد ذلك موقف الخوارزميين من الأحداث مع ســلاجقة العراق ، حيث توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه عام ٥٥٧ هـ بعد مرض ألم به ، فتعرضت البلاد لفوضى سياسية ، حيث أن السلطان محمد كان قد عهد بابنه الصغير الى أقسنقر الأحمديلى الذى رحل به الى مراغه خوفا عليه من الفتنة فى حــين اختلفت الآراء فى السلطنة السلجوقية « بين طائفة طلبوا ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبــوا سليمان شاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان الذى مع ايلدكز »(٧٢) .

وقد قدم ملكشاه من خورستان ومعه خاصته وبطانته ، فوصل الى اصفهان فسلمه له حاكمها ابن الخجندى ، وحاول أن يستمل أهل همذان لطاعته ، فلم يجيبوه لأنهم كانوا يرغبون فى تولية سليمان شاه .

---

(٧١) الحسينى ، نفسه ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٦٧ حوادث سنة ٥٥٧ هـ .

وفى العام التالى خرج سليمان شاه من الموصل الى همذان لتولى السلطة واجتمع معه عدد كبير من الموالين ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على همذان لقيام العسكر عليه ، وتم تعيين أرسلان شاه بن الملك طغرل الذى زوج ايلدكز من أمه(٧٣) . فاستقام السلطان لأرسلان شاه ، والأتابكية لشمس الدين ايلدكز ، وأقاما بهمذان(٧٤) .

وقد نجح سليمان فيما بعد فى أن تقام له الخطبة فى بغداد ، فى الوقت الذى توفى فيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بأصفهان مسموما ، لأنه أراد أن تقطع خطبة عمه سليمان شاه من بغداد ون يخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت عليه ، الا أنه قد دس له السم من جارية له ، لذلك خطب أهل أصفهان بعد وفاته لسليمان شاه ، واستقر ملكه بها ، كما ملك خورستان أيضا(٧٥) .

لم يصف الملك لسليمان بسبب سوء أخلاقه فقد « كان فيه تهور وخرق »(٧٦) ، وأساء الى العسكر ، وشرب الخمر حتى لامه فى ذلك شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية . ولسوء أفعاله معه قطع كردبازو مجلس سليمان شاه ، فكتب سليمان الى اينانج صاحب الرى يطلب منه أن ينجده على كرديازو ، لكنه كان مريضا واستمهل سليمان حتى يبرأ ، وعندما علم كردبازو بذلك ازداد كرها لسليمان حتى أنه رفض الحضور لمقابلته عندما طلبه وقال له « اذا جاء اينانج حضرت »(٧٧) .

وقد نجح كردبازو فى جمع الرأى العام حوله ، وأخذ عليهم ميثاقا وقام بدعوة السلطان والأمراء ، حتى اذا وصل سليمان شاه الى داره

---

(٧٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٥ هـ .
(٧٤) الحسينى : « أخبار الامراء والملوك السلجوقية » ، ص ٢٥٩ .
(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ حوادث سنة ٥٥٥ هـ .
(٧٦) نفسه ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .
(٧٧) نفسه .

قبض عليه كردبازو ، وعلى وزيره وأصحابه ، وقتل وزيره وحبس سليمان ثم أرسل اليه من خنقه .

وقد أرسل كردبازو الى ايلدكز صاحب أران وأكثر بلاد أذربيجان يستدعيه ليخطب للملك أرسلان شاه الذى معه(٧٨) .

وصل خبر مقتل سليمان شاه الى اينانج ، فثار وخرج الى همذان فتحصن كردبازو ، وحاول اينانج أن يدخله فى معركة معه الا أن كردبازو هادنة حتى يأتى اليه ايلدكز بقواته ومعه أرسلان شاه بن طغرل ، وفعلا وصلوا اليه فأكرمهم كردبازو ونادوا بأرسلان شاه سلطانا وايلدكز أتابكا له(٧٩) .

وقد حاول ايلدكز أن يجعل الخطبة فى بغداد للسلطان أرسلان شاه فرفض ابن هبيرة وزير الخليفة العباسى ، وبدأ يؤلب حكام الأطراف على أرسلان شاه ، ومنهم اينانج صاحب الرى والذين كانوا يرغبون فى تولية الملك محمد بن طغرل الموجود بأصفهان — وهو عدوهم القديم

---

(٧٨) ابن الاثير : نفسه ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

يذكر الحسينى « ركب الأمر شرف الدين كردباز والخادم كانه يقصد خدمه السلطان سليمان شاه ، ودخل عليه واعتقله الى الليل وبرك فى رقبته وتر قوس خنقه ، واصبح السلطان سليمان شاه ميتا » انظر : أخبار الملوك والامراء السلجوقية ، ص ٢٩٧ .

أما الراوندى فيذكر أن سليمان شاه اعتقل فى رمضان سنة ٥٥٥ هـ وبعد شهر أخذ الى القلعة علاء الدين حيث مات فى ١٢ ربيع الثانى سنة ٥٥٦ هـ ، ومن ٧ محرم ٥٥٦ هـ وقفت الخطبة باسم سليمان شاه .

انظر : راحة الصدور ، ص ٣٩٩ .
ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ، ص ١٧١ .

أما البندارى : فيذكر انه سمم فى قلعة همذان فى ١٣ ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ ، انظر : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٩٦ .

(٧٩) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

لذلك قام اينانج بتجهيز الملك محمد ، وجمع حشودا تزيد على عشرين ألف فارس ، واتجهوا ناحية همذان[٨٠] .

عندما سمع ايلدكز هذه الأخبار حشد جنوده فى أكثر من أربعين ألفا وتوجه صوب اصفهان ، فى وقت قام وزير الخليفة العباسى بتحريض الأمراء الموجودين فى جيش ايلدكز ليخرجوا عليه وينضموا الى اينانج، وقد ألتقت الجيوش عند مرغزار قراتكين[٨١] سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ودنا الفريقين بعضهم من بعض « فخيلت الأرض سائرة والجبال مائرة ، والنجوم منكدرة والسماء منفطرة ، وترتب الصفوف من كلا الجانبين ، ودارت رحاها على الفريقين »[٨٢] ، وبعدها انتصر ايلدكز على اينانج الذى قتلت رجاله ، وعاد الى الرى ، فقام ايلدكز بحصارها حتى تم الصلح بينهما على مال يؤديه الى ايلدكز[٨٣] .

وقد استمر اينانج يدفع الجزية المقررة عليه لايلدكز الا أنه توقف عن دفعها عامين ، فراسله ايلدكز يطلب منه ، فاعتذر أينانج ، لذلك قدم اليه ايلدكز بقواته ، فى الوقت الذى كاتب فيه خوارزم شاه ايل أرسلان ،

---

(٨٠) الحسينى ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .

(٨١) يذكر البندارى أن المعركة جرت فى منطقة قراجة فى منتصف الطريق من همذان واصفهان ، انظر تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٩٨ .
أما الراوندى فيسمى المكان الذى جرت فيه المعركة فراهين .
انظر : راحة الصدور ، ص ٤١٠ .
أما ياقوت : فيذكر أن فرهان ملاحة فى رستاق همذان
انظر معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٨٢) الحسينى : « تاريخ الملوك والأمراء السلجوقية » ، ص ٢٦٠ .
والمعروف رغم العداء بين اينانج وايلدكز فان البهلوان بن ايلدكز كان قد تزوج من ابنه اينانج وبعدها اشتعلت الحروب فيها .
البندارى ، ص ٢٩٦ .

(٨٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

واظهر التجائه اليه ، وقد كان اينانج مقيما ببسـطام[٨٤] ، فذكر لخوارزمشاه أنه « التجأ الى جانبه ، وصار من جملة غلمانه ، وانه متى اعين بعض عساكره أخذ العراق ، وجعلها من جملة ممالكه ، يجـرى فيها أمره ، وينفذ فيها حكمه »[٨٥] .

اعتقد خوارزم شاه ايل أرسلان أن الفرصة مواتية لضم العراق العجمى الى ممتلكاته ، فأرسل الى والى دهستان يأمره بأن يدفع الى اينانج حال وصوله اليه ثلاثين ألف دينار يرم بها شعثه ويقيم بهـا أوده »[٨٦] . وقد توجه اينانج الى دهستان الى أن يدبر أمره فى الوقت الذى قام فيه ايلدكز بالاستيلاء على الرى من السلطان أرسلان شاه بين طغرل ، وجعلها اقطاعا لابنه الأمير نصرة الدين بلهوان[٨٧] . وراسلهم أمراء العراق الذين كانوا فى خدمة اينانج ، وطلبوا منه الصفح فأمنهم .

أما بالنسبة لاينانج فقد بعث ايل أرسلان خوارزم شاه اليه معظم عساكره ، وأمرهم أن يبقوا بجرجان[٨٨] حتى تسمن خيولهم ثم يقصدوا

---

(٨٤) بسطام بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق الى نيسـابور بعد دامغـان .
انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ١ ، ص ٦٢٣ .
(٨٥) الحسينى ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ .
(٨٦) الحسينى ، نفسه ، ص ٢٦١ .
(٨٧) المصدر السابق .
(٨٨) جرجان : اقليم الى الجنوب الشرقى من بحر قزوين .
انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١١٩ — ١٢٢ .
بعد أن أمد ايل ارسلان اينانج صاحب الرى بالمساعدات العسكرية والمادية وغيرها ، استمر الخوارزم بمتابعة الاختراق الذى بدأه أبوه آتسز لأراضى سلاطين السلاجقة لا سيما وانه بعد موت سنجر لم يكن لخراسان والمقاطعات الواقعة الى الغرب منها « اذا لم يؤخذ فى الاعتبار الأمير القوى المؤيد — اى أبه » حكام قانونين لذا صبح اينانج موضع اهتمام من قبـل سلاطين العراق ، وعلى رأسهم الأتابك ايلدكز ، كذلك من قبل خوارزم شاه ايل ارسلان .
انظر الحسينى ، المصدر السابق ، حاشية رقم ١ ص ٢٦٣ .

العراق ، وجعل المقدم على العساكر شمس الملك بن حسن عيار بك من الأمراء القرلقية ، وكان أبوه قد ملك سمرقند وقتله الأتراك الخطا ، لذا هرب هذا الابن الى خوارزم ، فأكرم خوارزمشاه وقادته « وخصه ببره وانعامه ، وزوجه باخته وجعله قائد جيشه »[٨٩] • وبعد أن قويت خيولهم أمرهم أيل أرسلان بالتوجه الى العراق لأنه كان طامعا فى ضم العراق العجمى الى ممتلكاته كما ذكرنا فنفذوا أوامره •

عندما وصلت أخبار هذه القوة الخوارزمية الى مسامع ايلدكز قرر الخروج للقائهم فى الوقت الذى وصلت فيه قوات اينانج الى الرى قبل أن تصل اليها عساكر ايلدكز • ورغم أن الأمراء العراقيين كانوا متفقين مع اينانج الا أنهم كانوا فى جانب ايلدكز حتى انهم وقفوا فى وجههم وقاتلوهم ، واظهروا مقاومة كبيرة ففر الخوارزميون من أمامهم ، أما اينانج فأنه تحصن فى قلعة طبرك[٩٠] ، فحاصره الدكز وراسل جماعة من مماليكه أطمعهم فى الاقطاعات والأموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه ، وسلموا البلد الى ايلدكز[٩١] • غير أن ايلدكز لم يف بوعده للمماليك الذين قتلوا اينانج ، بل أبعدهم عنه فهاموا على وجوههم فى البلاد ، والتجأ بعضهم الى خوارزمشاه ايل أرسلان ، لكنه قبض عليهم « وقتل الذى قام بقتل اينانج وصلبه نكالا بما فعل »[٩٢] •

وبذلك لم يتحقق لأيل أرسلان هذه الفرصة التى اغتنمها لفرض سيطرته على العراق العجمى ، فاتجه الى محاربة الأتراك الخطا الذين

---

(٨٩) الحسينى ، نفسه ، ص ٢٦٣ •

(٩٠) طبرك قلعة على راس جبل بالقرب من مدينة الرى •

ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٠٧ •

(٩١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ •

(٩٢) المصدر السابق ، ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٥٢ •

عبروا نهر جيحون سنة ٥٦٧ هـ لمحاربته وذلك لقيامه بايواء شمس الدين ابن حسين عيار بك زعيم القارغلية(٩٣) .

قام ايل أرسلان بانفاذ جيش بقيادة عيار بك لمواجهة قوات الأتراك الا أن الهزيمة لحقت به ، ووقع عيار بك نفسه أسيرا ، وعاد الاتراك الخطا الى ما وراء النهر فى الوقت الذى سقط فيه ايل أرسلان مريضا وما لبث أن توفى فى رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وصـــار ابنه علاء الدين خوارزم شاها(٩٤) .

---

(٩٣) اراد ملك الخطا أن يطرد القارغلية من المنطقة فأمر نائبــه فى سمرقند قليج طمغج خان ركن الدين مسعود فى أجلاء الاتراك القارغلبة من أعمال بخارى وسمرقند الى كاشغر وأن يتركوا السلاح ويشتغلوا بالزراعة وغيرها من الأعمال ــ الا انهم امتنعوا وتوجهوا الى بخارى ، لجأ قسم من القارغلية بزعامة شمس الدين بن حسين عيار بك الى خوارزم ، وتزوج من ابنة أيل أرسلان .

عن ذلك انظر : « ابن الاثير » جـ ٩ حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٩٤) نفسه ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

الفصل الثالث

الصراع بين الدولة الخوارزمية والقوى السياسية المعاصرة زمن علاء الدين تكش

١ — الصراع بين سلطان شاه وأخيه علاء الدين تكش :

بعد وفاة أيل أرسلان تولى بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمود بعهد من أبيه ، وقامت بتدبير المملكة أمه التى أمدته بالجنود الذين التفوا حوله[1] . وكان أخاه الأكبر علاء الدين تكش مقيما فى أحد الاقطاعات الحربية التى منحه اياها أباه أيل أرسلان وعندما بلغه نبأ وفاة والده وتولية أخاه الأصغر سلطان شاه ثارت ثائرته ، وتوجه مباشرة الى ملك الأتراك الخطا ، طالبا معونته ضد أخيه « وأطمعه فى الأموال وذخائر خوارزم »[2] .

لذلك قدم ملك الخطا معونته الحربية التى تقدر بجيش كثيف جعل على قيادته القائد كرما Karama ، سار به حتى قارب خوارزم فى الوقت الذى استعان فيه سلطان شاه بالمؤيد أى أبه ، وقدم له الهدايا الوافرة ، ووعده أموال خوارزم ، فقدم معونته الى سلطان شاه وخرجوا بقواتهم حتى مدينة سوبرلى « على بعد عشرين فرسخا » من خوارزم ، وكان تكش قد عسكر بالقرب منها . وعندما التقت القوتان هزمت جيوش المؤيد ، وحمل أسيرا الى علاء الدين تكش الذى أمر بقتله[3] .

---

(1) Barthol « The Turkestan down to mongal invasion, p. 309.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، خوندمير : حبيب السير ج ٢ ، ص ٦٣٣ . أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٥ ، حوادث سنة ٥٦٨ هـ .

(٣) نفسه .

وبعدها هرب سلطان شاه متوجها الى دهستان ، فلحق به علاء الدين ، ونجح فى فتح المدينة عنوة وقتل أم سلطان ، فى الوقت الذى هرب فيه ابنها سلطان شاه من المدينة ، ونجح علاء الدين فى دخول خوارزم والجلوس على عرش السلطنة الخوارزمية(٤) .

أما عن سلطان شاه ، فقد قام هو ورجاله بتنصيب طغانشاه أبا بكر بن المؤيد أى أبه على نيسابور مكان أبيه ، وبعدها توجهوا للاتصال بغياث الدين ملك الغوريين ليقوم بمساعدتهم ، فقام باكرامهم واحسان وفادتهم .

أما علاء الدين تكش ، فقد تغيرت سياسته مع الخطا ، وذلك عندما تمكن من ملك خوارزم وصل اليه رسول من قبل ملك الاتراك «بالاقتراحات والتحكم كعادتهم » خاصة وان كان قد وعدهم بالخضوع التام لسيطرته ومال وفير يبعث به اليهم . لذلك أخذته حمية الملك والدين ، وقتل أحد أقارب الملك ، وكان قد ورد اليه ومعه جماعة أرسلهم ملك الخطا لمطالبة خوارزمشاه بالمال أمر خوارزمشاه أعيان خوارزم ، فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا ، فلم يسلم منهم أحد ، وخرجوا على العهد المعهود بينهم وبين ملك الأتراك . فبذلك تكدرت العلاقات بين الدولتين مما أدى الى اضطراب الأمور فى البلاد(٥) .

وقد انتهز سلطان شاه هذه الخلافات ليجد لنفسه طريقا فى وسطها، فتوجه مسرعا صوب ملك الخطا ، وطلب معونته على أخيه علاء الدين تكش ، زاعما له أن الرأى العام فى قلب خوارزم مع سلطان شاه ،

---

(٤) ابن الأثير ، نفسه ، ابو الفدا المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، حوادث سنة ٥٦٨ هـ .

(٥) ابن الأثير : نفسه .

لذلك جهز ملك الخطا جيشا كبيرا(٦) ، حتى وصلوا الى خـوارزم ، وتمكنوا من حصارها ، فما كان من علاء الدين تكش الا أن قام بفتح ماء نهر جيحون عليهم حتى كادوا يغرقون جميعا ، ففشل حصارهم ، ولم يتمكنوا من تحقيق غرضهم ، وعادوا من حيث أتوا ، ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ، ولاموا سلطان شاه وعنفوه »(٧) •

ورغم هذه الكوارث التى حلت بسلطان شاه الا أنه لم يتوقف عن رغبته فى السلطة فقد عرض على قرما قائد الخطا أن يساعده بجيش للاستيلاء على مرو مع حاكمها دينار الغزى ، فوافق وخرج جيشـهما فوصل الى سرخس واستولى عليها على غرة من أهلها ، « وهجم على الغز فقتل منهم مقتلة عظيمة »(٨) ومنها اتجهوا الى مرو فملكوها ، ورجع جيش الخطا الى بلاده ، وظل سلطان شاه يقاتل الغز ، ولما عجز دينار الغزى عن مقاومته استغاث بطغان شاه بن المؤيد أى أبه حاكم نيسابور على أساس أن يسلمه بلاده ، فاستجاب له طغان شاه ، وأرسل جيشـا بقيادة قراقوش ، فسلمه دينار القلعة •

عندئذ قدم سلطان شاه الى سرخس وحاصر قلعتها ، وعندما وصلت أنباء الحصار الى طغان شاه ، قدم بجيش جديد من نيسابور متجها الى سرخس لمواجهة سلطان شاه ، الا أن الأول لم يتمكن أن يصمد أمام سلطان شاه فعاد الى بلاده(٩) ، وقام قراقوش باخلاء القلعة والعودة الى بلاده ، وتمكن سلطان شاه من المدينة ، واستولى بعدها على طوس •

---

(٦) كان قرما قائدا لجيوش الخطا وزوجا لملكتهم •

(٧) نفسه •

(٨) ابن الأثير : نفسه ، ص ١١٥ •

(٩) نفسه ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ •

الأحوال السياسية فى نيسابور بعد هزيمة طغان شاه :

كان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر ، لذلك لم يكن له حظ فى الانتصار فى أى معركة خاضها ، فلم تكن له صفات أبيه المؤيد أى أبه ، وظلت بلاده تعانى من سكرات الموت حتى كانت وفاته فى عام ٥٨٢ هـ[١٠] .

تولى بعد طغان شاه ابنه سنجر ، ونجح أحد مماليك جده المؤيد حتى أن يفرض سلطانه على سنجر ، وهذا المملوك يدعى منكلى تكين مما أدى الى تفرق الجند ، حتى أن الكثيرين منهم توجهوا الى جيش سلطان شاه ، وبلغ به الأمر الى حد أخذ أموال أهل البلاد ، وقتل كثيرا من الأمراء ، فعندما سمع بذلك علاء الدين تكش انتهز هذه الفرصه ، وجرد قواته فى اتجاه نيسابور ، الا أنها استعصت عليه فعاد الى خوارزم[١١] . لكنه كرر هذه الحملة مرة أخرى فى العام التالى ، وحاصر المدينه ، حتى طلبت الأمان ودخلها علاء الدين تكش ، وقتل منكلى تكين ، وأخذ سنجر شاه وأكرمه ، الا أنه عندما سمع بأنه حاول أن يتصل بأهل نيسابور قبض عليه وسمل عينيه[١٢] .

سلطان شاه ومملكة الغور :

لقد سبق أن عرضنا أن سلطان شاه عندما فقد الأمل فى الوصول الى العرش الخوارزمى اتصل بغياث الدين ملك الغور يطلب منه أن يتنازل له عن هراة وبوشنج وبادغيس ، وتوعده ان لم يجبه الى ذلك ، فرد عليه غياث الدين طالبا منه أن يقيم له الخطبة بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان ، لذلك ثارت ثائرة سلطان شاه وقام بالاغارة على

---

(١٠) نفسه ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ .
(١١) ابن الأثير : نفسه ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ .
(١٢) نفسه ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

بادغيس وبيوار ، وحصر بوشنج ، ونهب الرساتيق وعندما وصلت هذه الأخبار الى مسامع غياث الدين رفض أن يخرج بنفسه للقاء سلطان شاه، وانتدب لذلك ملك سجستان ، وكاتب ابن اخته بهاء الدين سام صاحب باميـــان ليلحق به(١٣) .

وعندما علم سلطان شاه بوصول هذه القوات الغوريه ارتد الى مرو دون أن يدخل معهم فى لقاء عسكرى ، ولكنه نهب وأحرق كل ما مر به من بلاد . وبعدها عاد مرة أخرى الى مراسلة غياث الدين فى أمر امتلاك البلاد المشار اليها سابقا . الا أن هذه الوسيلة لم تجد اذ قام غياث الدين بتعبأة قواته مرة أخرى لملاقاة سلطان شاه الذى قام هو الآخر بالاستعداد العسكرى فجهز عســاكره « والمتطوعة من الغــز والمفسدين وقطـــاع الطــرق »(١٤) . وقد عســكرت قوات غيــاث الدين عند الطالقـــــان وقوات سلطان شاه فى مرو الروذ ، وظلت الرسل تتردد بين الفريقين ما يقرب من شهرين ، وانتهى الأمر بينهما بأن يسلم غيـــاث الدين الى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار .. الا أن فتنة حدثت فى هذه الاونة قام بها مجد الدين العلوى الهروى الذى أجبـــر غياث الدين ورجاله على الرجوع فى الصلح ، وعدم التنازل عن أى شـــــبر من ممتلكاتهم . مما أدى الى اشتعال الحرب ثانية بين الفريقين .

وكان من نتيجة المعركة التى أجبر عليها السلطان غياث الدين الغورى ورجاله هزيمة سلطان شاه ورجاله .

وعند عودة سلطان شاه مدحورا الى مرو ، كانت الأخبار قد وصلت الى أخيه علاء الدين تكش الذى انتهز هذه الفرصة ليقبض على أخيه عند عودته ، فخرج علاء الدين من خوارزم فى ألفى فارس ، وأرســل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس لقطع الطريق على أخيه ، هذا فى الوقت

(١٣) نفسه ، ص ١١٦ .
(١٤) ابن الأثير : نفسه ، ص ١١٦ .

الذى وصلت أنباء هذا التحرك الى أخيه سلطان شاه الذى بعد عن نهر جيحون وعاد الى غياث الدين ملك الغور يطلب منه العون فما كان منه الا أن ألتقى به وأكرمه ، وأنزله معه فى داره وأنزل أصحابه كل انسان منهم عند من هو فى طبقته ، فظل مقيما عنده حتى نهاية الشتاء[١٥] .

وفى هذه الفترة كتب علاء الدين خوارزمشاه الى غياث الدين يسرد له ما فعله أخاه سلطان شاه ، وما خربه من البلاد ، وطلب منه أن يقبض عليه ويسلمه اليه ، الا أن غياث الدين رفض أن يستجيب الى مطلبه ، به انه طالبه بأن يعطى أخاه سلطان شاه حقه من البلاد فى ملك أبيــه أيل أرسلان ، وطلب منه أن يخطب للغوريين فى خوارزم وأن يزوج علاء الدين تكش أخته الى شهاب الدين الغورى شقيق غياث الدين، وعندما وصلت هذه الرسالة الى علاء الدين امتعض امتعاضا شديدا، وبعث تهديدا الى غيات الدين . فقام غياث الدين بالاستعداد للحرب، وجهز جيشا جعل على قيادته صاحب سجستان وانضم اليه سلطان شاه ، وتوجه الجيش الى خوارزم ، وقد قدم لهما صاحب نيسابور العون العسكرى أيضا ، فى الوقت الذى خرجت قوات علاء الدين تكش من خوارزم لملاقاة أخيه والجيش الذى معه ، وبينما كان علاء الدين فى طريقه وصلته أخبار أن صاحب نيسابور سيتجه الى خوارزم بعد أن يرحل عنها علاء الدين ، فأضطر أن يعود الى خوارزم وأخذ أمواله وذخائره ، وعبر نهر جيحون متجها الى الأتراك الخطا وخليت خوارزم[١٦] .

وفى هذه الفترة توفى سلطان شاه سنة ٥٨٩ هـ /١١٩٣ م[١٧] لذلك عاد الجيش الغورى الى غياث الدين ، وعاد علاء الدين تكش من بلاد الخطا الى خوارزم ، وحاول أن يضم اليه مرو وسرخس الا أن أهلهما

---

(١٥) نفسه ، ج ٩ ، ص ١١٧ .

(١٦) ابن الاثر : نفسه ، ج ٩ ، ص ١١٧ .

(١٧) نفسه ، حوادث سنة ٥٨٩ هـ .

منعوا جنود علاء الدين من امتلاكها ، وقام عـلاء الدين بمراسلة غياث الدين الغـورى وطلب منه الصـلح والمصاهرة[١٨] . فأجاب غياث الدين الصلح ، وبذلك نجح علاء الدين فى أن يضم اليه بقية المملكة الخوارزمية وقبض وحده على زمام الأمور[١٩] .

السلطان علاء الدين تكش وسلاجقة العراق :

لابد لنا أن نرجع الى الوراء قليلا لنعرف أحوال الدولة السلجوقية. فلم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يتوفى سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م حتى قام نزاع حول العرش ، وانقسم السلاجقة على أنفسهم فى الوقت الذى كان فيه أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب ، ذلك أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر باسناد السلطنة الى ابنه محود ، وحين وليها هـذا وكان صغيرا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره أنف عمه سـنجر — والى خراسان وما وراء النهر — أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وبذلك أصبح السلاجقة سلطانان انقسمت بينهما الدولة الى قسمين : القسم الشرقى وعليه سنجر ، والقسم الغربى وعليه محمود ، واشتعلت الحرب بين الطرفين فانتصر سنجر ، واعترف له الخليفة العباسى بالسلطنة على السلاجقة[٢٠] . ولكن سنجر بعد انتصاره عطف على ابن أخيه محمود فصالحه وعينه وليا لعهده ، وكتب بذلك الى الولايات ، كما أحاط به الخليفة العباسى علما . وأعاد اليه جميع البلاد التى كانت تحت حوزته ما عدا مدينة الرى التى اتخذها سنجر قاعـدة يراقب منها أعمال محمود خشية أن تحدثه نفسه الخروج مرة أخرى[٢١]. وقد كان كل فرد من أفراد البيت السلجوقى يعد نفسه مستقلا فى الجزء

---

(١٨) نفسه .

(١٩) حبيب السير ، ج ٢ ، ص ٦٣٤ .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٨٦ الى ص ٢٨٨ حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٢١) نفسـه .

الذى يحكم فيه ، ويحاول أن يوسع منطقة نفوذه ، ويسعى للوصول الى السلطنة ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، الأمر الذى أدى الى كثرة الحروب ، وتعدد ميادينها وشملت الخلافات الأسرية معظم هذا العهد من حكم سلاجقة العراق ، فقد خرج مسعود حاكم الموصل وأربيجان على أخيه محمود وقاتله . وبعد وفاة محمود سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م تنازع ابنه داود مع عمه مسعود وبدأت الحرب بين الطرفين[٢٢] ، كما تقاتل مسعود بعد استقرار السلطنة له مع أخيه سلجوق شاه ، ثم تدخل سنجر فدارت الحرب بينه وبين مسعود ، وكذلك بين مسعود وأخيه طغرل . ولم يستقر الأمر الا بعد صراع طويل[٢٣] .

وانتهى الأمر بنجاح السلطان مسعود بن محمد ٥٢٩ / ٥٤٧ هـ — ١١٣٤/١١٥٢ م فى التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة[٢٤] وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد ، ولكن الأمر انتهى بهزيمته ونفيه ثم قتله بأيدى الباطنية فى نهاية أغسطس ١١٣٥ م حيث مثلوا بجثته تمثيلا شديدا[٢٥] .

ولقد بدأ سلطان السلاجقة فى الأفول فى الفترة القليلة التى تلت وفاة السلطان مسعود ، وأخذت قوة السلاجقة فى العراق وكردستان مجرى جديدا أسوأ مما كان عليه سابقا ، ولقد سلب أتابكة أذربيجان والرآن السلطان السلجوقى المهام والسلطات الفعلية لأسيادهم السلاطين

---

(٢٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ، ورقة ١٣ ، ١٤ مخطوط .

أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ، حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢٣) ابن الأثير ، جـ ٨ ، ص ٢٩٠ .

(٢٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٥ ، ورقة ١٧ .

(٢٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٠ .

الذين أصبحوا مجرد سلاطين صوريين ، وأخذ يتلاعب بهم أتابكتهم ، فملكوا البلاد وتوسعوا فى ممتلكاتهم على حساب جيرانهم[٢٦] .

كان مؤسس هـذه الأسرة « أتابكة أذربيجان والران » هـو شمس الدين ايلدكز سنة ٥٣١/٥٦٨ هـ — ١١٣٦/١١٧٢ م ، وقد كان شمس الدين هذا مملوكا لوزير السلطان محمود السلجوقى كمال الدين السميرمى . وعقب وفاة الأخير ، عين السلطان مسعود السلجوقى شمس الدين حاكما على منطقة الران والقرى التابعة لولايتها ، وقد استطاع شمس الدين أيلدكز أن يتوسع فى سلطانه خارج منطقة الران ، فشملت أذربيجان واستطاع أن يؤسس أسرة حاكمة فى هاتين المنطقتين عرفت فى التاريخ باسم « أتابكة أذربيجان والران » ، واستمرت تحكم فى المنطقة قرابة قرن من الزمان .

وبعد وفاة السلطان السلجوقى طغرل الثانى تزوج شمس الدين هذا أرملته ، وأصبحت فيما بعد أما لولدين من أولاده « محمد البهلوان وقيزيل أرسلان عثمان » وقد كان للصراع الداخلى على السلطة بين أعضاء الأسرة السلجوقية أثره المباشر فى بروز شمس الدين ايلدكز على مسرح أحداث المنطقة السياسية[٢٧] .

ولكى يوطد من سلطانه ليس فقط فى منطقتى أذربيجان والران ، بل فى المناطق السلجوقية الأخرى ، قام شمس الدين بتنصيب أرسلان شاه بن طغرل الثانى الذى كان ربيبه — بعد أن تزوج بأم أرسلان بعد وفاة أبيه سلطانا — ومكنه من التغلب على منافسيه من أعضاء أسرته السلجوقية ،، كما أن شمس الدين جعل من نفسه أتابكا معينا للسلطان الجديد ، يرعى شئون سلطنته فى هذا الجزء من ممتلكات الامبراطورية

---

(٢٦) سعد الغامدى : أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ص ٦٠ .

(٢٧) نفسه .

السلجوقية ، وقد أصبح السلطان أرسلان شاه مجردا من جميع سلطاته الادارية وغيرها ، وكان ألعوبة فى يدى أتابكة الذى قبض بيد من حديد على أراضى وممتلكات السلاجقة فى العــراق وكردستان ، وتوسع فى سلطاته الى خارج هذه المناطق . وقد ظل ايلدكز هو الحاكم الفعــلى للسلطان السلجوقى الى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م وتولى ابنه أبو جعفر نصرة الدين محمد البهلوان ٥٦٨/٥٨٢ هـ — ١١٧٢/١١٨٦ م ، جميع المهام التى كانت فى يدى والده ، فجعل من نفسه أتابكا للسلطان السلجوقى أرسلان شاه الذى ظل وضعه على ما كان عليه أيام ايلدكز .

وقد حاول السلطان السلجوقى المحجور عليه أن يقوم بحــركة انتفاض ضد الأتابك الجديد ليسترد معها بعضا من سلطاته المســلوبة الا أنه توفى بعد شهرين من وفاة ايلدكز . وعلى أثر وفاة أرسلان شاه قام الأتابك محمد البهلوان بتنصيب ابن السلطان المتوفى طغرل الثالث ٥٧٠ هـ/٥٩٠ هـ — ١١٧٤/١١٩٤ م كسلطان صورى على الممــالك السلجوقية بعد وفاة والده أرسلان شاه[٢٨] .

لم تكن أحوال السلطان طغرل الثالث أحسن وضعا مما كانت عليه شئون والده من قبله ، فلم يكن له من الأمر شىء عند تنصيبه سلطانا[٢٩] . وقد ظل بن البهلوان مسيطرا على طغرل الثالث حتى وفاته سنة ٥٨٢ هـ فخلفه عثمان قزل أرسلان بن ايلدكز الذى طمع فى السلطة فنشب النزاع بينه وبين طغرل ، فهزم الأخير ووقع أسيرا فى يد قزل ، واعتقد فيه بحكم القرابة التى بينهما « أن يتغمد هفواته ويغفر ذلاته ، وأن يخليه معــه »[٣٠] الا أنه اعتقله فى قلعة بأذربيجان قرب تبريز[٣١] .

---

(٢٨) الحسينى : أخبار الدول والممالك السلجوقية ، ص ٢٨٤ .

(٢٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٧ ، ٧٤ ، ١٠٤ ، ١٠٨ — ١٢٩ .

(٣٠) الحسينى ، المصدر السابق .

(٣١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٥٠٠ .

البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٠٢ .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان طغــرل استنجد بالســــلطان صـــلاح الدين الأيوبى على عمه قزل أرسلان ، « فاعتذر صلاح الدين بما هو فيه من شغل الجهاد مع الكفار »[٣٢] . وهكذا خلا الجو لقزل أرسلان واستولى على أملاك السلطان طغرل ، غير أنه كان « مغــرى بمعاشرة الغلمان وشرب الخمر لا يصحو الا فى بعض الأوقات »[٣٣] لذلك غضبت عليه زوجته اينانج خاتون ، فدبرت مع ابنها « قتلغ اينانج » والأمراء مؤامرة لقتله ، « فقتلوه وهو نائم فى فرشه »[٣٤] سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩٠ م ، وبمقتله طمع الأمراء فى السلطنة ، لكن السلطان طغرل تمكن من الهرب من سنة سنة ٥٥٨ هـ / ١١٩١ م ، واستطاع أن يجمع جيشا فخافه قتلغ اينانج وهرب الى الرى وتحصن بها ، وراسل من هنـــاك خوارزم شاه علاء الدين تكش ، طالبا منه العون والمساعدة ، فأمـــده تكش بجيش سيره اليه فى سنة ٥٥٨ هـ/١١٩١ م[٣٥] الا أن قتلغ اينانج ندم على استدعاء خوارزم شاه ، فتحصن فى قلعة له .

والواقع أن السبب فى مسارعة علاء الدين تكش الى ارســـال النجدة الى قتلغ اينانج أنه أراد أن يوسع مملكته الخوارزمية غربا حيث سار الى الرى واحتلها الا أنه اكتفى فى هذه المرة بمدينة الرى التى تتمتع بموقع استراتيجى ممتاز حيث كانت مفتاحا لاقليمى بلاد الجبل فى الغرب وخراسان فى الشرق ، وبعدها حاصر قلعة طبرك ، وبعد أن وقع اتفاقية سلام مع السلطان السلجوقى رجع الى خوارزم ، وقضى الشتاء هناك ، وفى العام التالى سنة ٥٨٩ هـ خرج الى مرو حيث كان أخيه سلطان شاه .

---

(٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(٣٣) الحسينى ، المصدر السابق ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٣٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .

(٣٥) الكامل : نفسه ،

ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

ترددت الرسل بينهما فى الصلح ، وفى أثناء هذه الفتره وصل الى خوارزم شاه رسول صاحب قلعة سرخس يدعوه ليسلم اليه القلعة « لأنه قد استوحش من صاحب سلطان شاه »[٣٦] • فأسرع خوارزم شاه الى هذه القلعة ، واستولى عليها من صاحبها وعندما وصل هذا النبأ الى سلطان شاه مات كمدا وفى نفس العام ، وعندما وصل نبأ موته الى أخيه أسرع الى مرو فاستولى عليه وعلى جميع مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وولى أولاده علاء الدين محمد « الملقب بقطب الدين » نيسابور ، وابنه الكبير ملكشاه مرو •

ورغم أن السلطان السلجوقى طغرل الثالث كان قد وافق على التوقيع على هدنة مع خوارزم شاه تكش ، رضى بموجبها أن يتخلى عن الرى ، الا أنه نقض هذا الاتفاق « وغدر بهم وأتبعهم عن أخذ جميع ما كان معهم » وهاجم المدينة ، واستطاع أن يهزم الحامية الخوارزمية وحليفهم الأتابك قتلغ اينانج محمود وأن يحتل الرى[٣٧] ، وبعدها حاصر قلعة طبرك التى اعتصم فيها الخوارزميون ، وحاربهم حتى طلبوا الأمان فأمنهم ، فلما نزلوا وأذن لهم بالخروج من الرى غدر بهم ، وتبعهم عن أخذ جميع ما كان معهم ، وقتل منهم جماعة وهرب الباقون[٣٨] • وكان من بين القتلى طمغاج الخوارزمى نائب خوارزم شاه

---

(٣٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٠٦ •
الحسينى : المصدر السابق ، ص ٣٠٩ •
(٣٧) الراوندى : نفسه ، ص ٣٧١ ، الحسينى : نفسه ص ٣١٠ •

(٣٨) الحسينى : نفسه ، ص ٣١٠ •
يذكر الراوندى أن السلطان طغرل بعد أن تبت نفوذه فى الرى تزوج من الخاتون والدة « قتلغ اينانج » ولكن رجاله لم يلبثوا أن خوفوه منها ، فقالوا انها تدبر مؤامرة لقتله كما فعلت مع عمه قزل أرسلان بغية التخلص منه وتهيأة الفرصة لابنها قتلغ اينانج بن جهان بهلوان فدبر لها طغرل وسيلة نقتلها وتخلص منها ، فأثار بذلك حمية ابنها الذى استعان بعلاء الدين تكش خوارزم شاه •
انظر : الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧١ وما بعدها •

فى الرى ، كما وقع كبار الأمراء الخوارزميين أسرى بيد السلطان طغرل ، وبعد أن أخمد طغرل هذه الفتنة عاد الى عاصمته همذان .

وقد قام قتلغ اينانج باستدعاء السلطان علاء الدين تكش ، وأخبره بما حدث ، وطلب منه النجدة حتى لا يضيع ملكهما فى يد السلاجقة ومما شجع تكش على الاسراع فى تجهيز حملة عسكرية استعداد الأتابك قتلغ أن يكون حاكما خاضعا للدولة الخوارزمية(٣٩) .

وقد وافق هذا المطلب الذى طلبه قتلغ وصول رسول الخليفة العباسى الى خوارزم شاه « يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه(٤٠) ، لذلك خرج علاء الدين الخوارزمى من نيسابور فى طريقه الى الرى ، فانضم اليه فى الطريق قتلغ اينانج ومن معه ، واتحدوا سويا ، وجعل علاء الدين قائدا للفرقة الخوارزمية .

توجهت القوة الخوارزمية فى اتجاه طغرل الثالث الذى علم بوصول هذه القوات ، ويرى ابن الاثير أنه عندما علم بمقدمهم « كانت عساكره متفرقة ، فلم يقف ليجمعها ، بل سار اليه فيمن معه(٤١) .

ويذكر الحسينى نقلا عن رجل بالرى يقال له أمين الدين محمد الزنجانى وكان نائبا عن الموالى « لما وصل خوارزم شاه علاء الدين تكش الى خوار أقام بها يومين وكان حاجبه الكبير شهاب الدين مسعود الحسين بخدمته — راسل مسعود بن الحسين الى السلطان ركن الدين طغرل بالحفنة ، وقال : انى كنت مملوكا للسلطان علاء الدين تكش ، وغذى نعمته وصنعه من صنائعه ، ولم يمنعنى ذلك من بسط النصح لك لأنه

---

(٣٩) الغامدى : أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ص ٧٤ .

(٤٠) ابن الاثير : الكامل ، ص ٢٣٠ حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

(٤١) نفسه .

ما ترك جندى على رأسه قلنسوة الا ولبيتك عليه حق ، بحـكم انهم السلاطين وأبناء السلاطين ، وعم حكمهم سائر الأقطار واستولوا على جميع الأمصار ، وخدمهم كافة الناس ، وأنا أشير عليك انك تنزح عن الرى الى ساوه وتقيم بها وتراسل السلطان علاء الدين تكش بالصلح ونحن ندخل بالوساطة بينك وبينه ، وقصارى ما يطلب منك أنك تنزل له عن الرى حتى يتبين للناس أنه أقام حرمته وناموسه عند ملـوك الكفار فى تلك الديار لمـا علموه من كون الرى كانت له وان أصـحابه خرجوا منها ، واستولى غيره عليها ، وليس له مقصود غير هذا ، فان أنت نزلت له عن الرى يرضى بذلك وعاد الى خوارزم وترك ولده بالرى ، واذا كان ولده بالرى يكون تحت حكمك يأتمر بأمرك وينتهى لنهيـك ، ويكون اذا عاد السـلطان بالاختيار تتحفظ الدمـاء وتبقى الوجـوه بمائها »(٤٢) .

وقد عرض طغرل الأمر على أصحابه ، فنصحوه بالمو افقة الا أنه لم يتنازل عن كبريائه ، وأصر على مواجهة خصومه .

لذلك دارت معركة بين الجيش الخوارزمى والسلجوقى عند الرى « فحمل طغرل بنفسه وسط عسكر خوارزم شاه ، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول وحمل رأسه الى خوارزم شاه ، فسيره من يومـه الى بغداد ونصـب بها ببـاب النوبى »(٤٣) .

ويذكر الجوينى « انه عندما سقط طغرل عن جواده نقلت جثته وأحضرت أمام السلطان تكش ، فلما رأى عدوه بهذا الوضع ترجل عن

---

(٤٢) الحسينى ، المصدر السابق ، ص ٣١١ — ٣١٢ .

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ حوادث سنة ٥٩٠ هـ .
الراوندى : نفسه .

جواده وسجد لله شكرا ثم أرسل رأسه الى الخليفة الناصر لدين الله »[٤٤] .

أما الحسينى ففى أخبار الملوك السلجوقية فيذكر أن السلطان كان فى عدد قليل من أصحابه جلهم من أتباعه وخدمه ، لا يتجاوز عددهم الستين رجلا ، وقد رفض السلطان نصيحة أتباعه بألا يقابل خصومه فى هذه القلة من رجاله ، الا أنه اختار أن يقابل عدوه قتلغ اينانج محمود دون اكتراث بقوته ، وعندما هجم السلطان على مركز قوات العدو أصابه سهم طائش فى عينه ، فسقط من جواده ، فأسرع أعداؤه فحزوا رأسه وذلك فى التاسع من شهر ربيع الأول[٤٥] .

من أغرب المصادفات أن يكون اسم طغرلبك هو اسم أول سلاطين السلاجقة ، واسم آخرهم فى بغداد ، بمعنى أن الدولة السلجوقية ابتدأت بطغرل وانتهت بطغرل[٤٦] .

وقد كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله قد بعث بقوة عسكرية لنجدة خوارزم شاه ، كما بعث اليه بالخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب ، فنزل بالقرب من همذان فبعث اليه خوارزم شاه علاء الدين يطلبه فرفض مؤيد الدين ، وطلب منه أن يحضر بنفسه اليه ليلبسه الخلعة فى خيمته وظلت الرسل تتردد بينهما ، حتى وصلت أنباء الى علاء الدين تفيد أن هذه ما هى الا خدعة حتى يحضر اليه فى الخيمة ويقبض عليه ، لذلك توجه اليه خوارزم شاه حتى يقبض هو عليه فهرب

---

(44) Juwaini «op. cit» pp. 302—303.

(٤٥) الحسينى : المصدر السابق ، ص ٣١٣ ويختلف هنا مع ابن الأثير فى تاريخ مقتل طغرل .

(٤٦) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

الرجل الى الجبال ، وتركه خوارزم شاه « علاء الدين تكش » وتوجه الى همذان(٤٧) .

والواقع أن وصول علاء الدين الى همذان يعنى انهيار سلاجقة العراق وكردستان ، واستيلاء الخوارزميين على العراق العجمى أو بلاد الجبل ، وحصل على تقليد بذلك من الخلافة العباسية وقد أقطع كثيرا من هذه المدن لامرائه ومماليكه فاقطع اصفهان لقتلغ اينانج ، وهمذان لقارغوز الأتابكي أما الرى فلابنه يونس خان(٤٨) .

الا أن أطماع تكش لم تقف عند هذا الحد ، بل رأى أنه لابد أن تحتل المكانة التى كانت للسلاجقة فى بغداد ، وطلب الى الخليفة الناصر أن يعترف به سلطانا فى هذه الناحية ، وأن يذكر اسمه فى الخطبة(٤٩) ، ولكن هذا الطلب كان يتعارض مع رغبات الخليفة العباسى الذى تنفس الصعداء بزوال كابوس السلاجقة .

الخوارزميون والخلافة العباسية

على عهد السلطان علاء الدين تكش

وضح لنا من الدراسة السابقة أن علاء الدين تكش عندما تخلص من السلطنة السلجوقية ، واستولى على أملاكها يكون بذلك قد أنهى القوى الشرعية التى كان يتبعها ، وأصبح له السيادة على هذه المناطق ، واختلف وضعه فى هذه الآونة من قوة اقليمية محدودة الى قوة لها سلطان واسع .

والحقيقة التى لابد أن نثبتها هنا هى أن الخلافة العباسية قد

---

(٤٧) ابن الأثير : الكامل ، ص ٢٣٠ حوادث سنة ٥٩٠ هـ .
الراوندى : راحة الصدور ، ص ٥١٩ وما يليها .
(٤٨) الراوندى ، نفسه ، ص ٥١٩ .
(49) Juwaini «op. cit» vol 1. pp. 302—303

ضعف سلطانها ، وأصبح السلاجقة هم القوة المسيطرة عليها حتى انها عندما أفاقت فى فترة الصحوة أيام الخليفة المسترشد فان السلاجقة كانوا قد انهوا نزاعهم ، ونجح السلطان مسعود فى تقلد السلطنة السلجوقية سنة ١١٣٤/١١٥٢ م(٥٠) • وعندما حاول المسترشد أن يقف أمامه قتل على أيدى الباطنية •

وظل الحال أيام الخليفة الراشد ٥٢٩/٥٣٢ هـ — ١١٣٤/١١٣٧ م وكان الصراع دائرا بين السلاجقة والخلافة العباسية، فوقف الخوارزميون بجانب الخلافة ضد السلطان مسعود السلجوقى(٥١) •

وفى أيام الخليفة المقتفى لأمر الله ظلت العلاقات متوطدة بين خوارزم شاه آتسز وبينه •

وقد أورد لنا رشيد الدين الوطواط سلسلة من المخاطبات التى بعث بها بلاط خوارزم فى عهد آتسز الى الخليفة المقتفى لأمر الله التزموا فيها بطاعة الخلافة العباسية وان « من اعتصم بحبل مشايعته ، وانتظم فى سلك مبايعته نال فى الدارين مناه ، وحاز فى المحكين مبتغاه »(٥٢) •

وقد بين رشيد الدين أن الخلفاء العباسيين بذلوا قصارى جهدهم فى حماية الدين وبيضته والمراماة عن حريم الحق وحوزته ، وانهم ساعدوا السلاجقة الا أنهم لم يحفظوا لهم هذه المساعدات فقابل « هذا الذى هو اليوم أكبر تلك القبيلة سنا وحرمه وأعظم تلك العشيرة جاها

---

(٥٠) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٥ مخطوط ورقة ١٧ •

(٥١) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٨ حوادث سنة ٥٣٢ هـ •

(٥٢) رشيد الدين الوطواط ، رسالة الى المقتفى ص ٥ •

وحشمة جنات العبد ، واسلافه بما قابل من استئصال بقاعة واستباحة دماء أتباعه وأشياعه »(٥٣) .

وقد حاول بذلك أن يثبت للخليفة العباسى أن ما يقوم به الخوارزميون من الاستيلاء على ممتلكات السلاجقة هو حق وواجب ، « لقلة شفقتهم على الرعايا وابرازهم السنن الخاسرة من الأيام واحداثهم الرسوم الجائرة فى الاسلام »(٥٤) .

ثم بدأ رشيد الدين يشرح للخليفة المقتفى ما قام به السلطان سنجر من حملات على أرض الخوارزميين ، وما فعله بهم عند هزار آسف وعدد الهزائم التى منى بها السلاجقة على أيدى الخوارزميين ، وهربوا الى قلعة أسكندر وهى قلعة فى أقصى ديار خوارزم، ويعلل الوطواط سبب انتصار الخوارزميين « الا بركة موالاة الدولة القاهرة الامامية النبوية المقتفية »(٥٥) .

وفى مكاتبة أخرى قدمها الوطواط نيابة عن السلطنة الخوارزمية بين ضرورة الالتزام بطاعة أمير المؤمنين الا أن هناك بعض العوائق التى وقفت أمام الخوارزميين أهمها « ان خطة العبد لصيقة ببلاد الشرك من ديار الترك ، والعبد فى أكثر أوقاته وأغلب حالاته مشغول بمحاربة أعداء الدين ومقارعة أحزاب الشياطين ، يذل صعابهم ، ويفل أنيابهم ويرد على بحبوحة الاسلام خيلهم وركابهم »(٥٦) .

ويؤكد الوطواط على أن الخوارزميين مع بعد ديارهم على ولاء تام

---

(٥٣) رشيد الدين ، نفسه ، ص ٦ — ٧ .

(٥٤) نفســه .

(٥٥) نفسه ، ص ١٢ — ١٣ .

(٥٦) الوطواط ، ص ١٥ .

للخلافة العباسية ، وان حاكمها « مقبل على سرير الخلافة معتصم بولاء حرمها العاصم من المخافة »(٥٧) .

وقد اهتم الخوارزميون بضرورة الحصول على الخلع والتشريفات التى تصل من دار الخلافة اليهم ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية وكانت لها أثر حسن عليهم ، ويؤكد « ان الخلع الحاصلة للعبد والتشريفات الواصلة اليه من المواقف المقدسة قدسها الله فقد هزت عطفه ، وشدت أزره واطلعت نجوم فخره »(٥٨) .

وقد ظلت العلاقة وطيدة بين الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة المقتفى لأمر الله سنة ٥٥٥ هـ ، وفى عهد الخليفة المستنجد بالله العباسى .

ويؤكد هذه العلاقة بن الوطواط فى مراسلاته الى الخليفة المستنجد حيث أوضح مدى قوة الخلافة فى عهده « فهى رفيعة البنيان منيعة الأركان ، والامامة راسية الأوتاد سامية الأطوار ، والملة مشدودة السواعد ، مشيدة القواعد »(٥٩) .

ويقول ابن الوطواط « فان ساءنا فقد الامام الذى مضى ، فقد سرنا عهد الامام الذى بقى وان فى بقاء مولانا وسيدنا الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، أدام الله جلاله ، ومد على الخافقين ظلاله ، لعوضا من كل ما يفوت ، وخلفا من كل من يموت »(٦٠) .

وبين رشيد الدين الوطواط للخليفة المستنجد أهمية خوارزم لأنها مجابهة لأراضى الأتراك الكفار « ولولا مواظبة العبد على حفظ خوارزم

---

(٥٧) الوطواط : نفسه .
(٥٨) الوطواط ، نفسه .
(٥٩) الوطواط ، ص ٢٥ .
(٦٠) نفســه ، ص ٢٦ .

التى هى خطة متصلة ببلاد الترك ملتصقة بديار الشرك يهجم عليها ان غاب البعد عنها أهل الكفر ، وينالونها لانالوا المنى بالناب والظفر »(٦١) .

وقد شارك حكام خوارزم الخلافة العباسية فى السراء والضراء فقد عقدوا مجالس للعزاء عند وفاة الخليفة المقتفى بأمر الله « مقيمين فيها رسم التعزية والتهنئة بنفسه لا قلمه » وحين وصل الخبر الى خوارزم أمر العبد جميع أهل الولاية بعقد مجلس العزاء والمبالغة فى عد تلك المناقب وآلالاء ، فجلسوا ثلاثة أيام كأنها ثلاثة أعوام(٦٢) .

وأكد رشيد الدين الوطواط للخليفة المستنجد على أن الدولة الخوارزمية تستخدم رسوم الخلافة ، « فزينت الخطبة بميامن اسمه ، وحليت السكة بمحاسن رسمه »(٦٣) .

وما يهمنا الآن هو علاقة علاء الدين تكش بالخلافة العباسية وهو الحاكم « الشاه » الذى يحق لنا أن نطلق عليه لقب سلطان لأنه استولى على جميع الممتلكات الخوارزمية .

لقد رأينا موقف مؤيد الدين بن القصاب ، وسوء موقفه مع علاء الدين تكش ، وكيف أنه هرب الى الجبال عندما علم بقدوم علاء الدين اليه . والواقع أن هذا الموقف من جانب وزير الخلافة يدل على سوء التصرف والجهل . وربما أدى الى توتر العلاقات بين الطرفين ، هذه العلاقات التى حرص أسلافه على الاحتفاظ بها .

وقد بدأت ملامح العلاقة بين القوتين العباسية والخوارزمية تتضح عندما توطدت أركان الدولة الخوارزمية ، واستطاعت أن ترث

---

(٦١) الوطواط ، نفسه ، ص ٢٦ .

(٦٢) نفسه .

(٦٣) نفسه .

ممتلكات السلاجقة الذين حكموا هذه المناطق بما فيها دار الخلافة فى بغداد ما يربو على المائة عام • بل انهم سلبوا الخلافة كثيرا من ممتلكاتها حتى أنها لم تتعدى ممتلكاتها الا العراق العربى وخوزستان(٦٤) •

لذلك تنفست الخلافة العباسية الصعداء عندما قتل السلطان السلجوقى طغرل الثالث سنة ٥٩٠ هـ على يد الخوارزميين ، فتصور أنه بذلك سيرث الممتلكات السلجوقية •

فقد ذكرت الأحداث التى أوردها ابن الأثير ، وكيف أن الخليفة أرسل لعلاء الدين خلعة الولاية مع مؤيد الدين بن القصاب ، وموقف ابن القصاب وسوء تصرفه مع علاء الدين(٦٥) •

وربما تكون هذه الخلع التى بعث بها الخليفة الناصر لدين الله الى علاء الدين ، الغرض منها ، اثبات الحق الشرعى للخلافة العباسية فى الأماكن التى يحكمها علاء الدين ، وان تعيينه على هذه المناطق من قبل الخلافة يجعل منه تابعا لها ، وولايته من ولايات الاستكفاء(٦٦) •

وقد كان الخليفة العباسى متخوفا من هذه القوة الخوارزمية الجديدة ، والتى شعر أنها لا تقل خطورة عن السلاجقة ، فقد كان طامعا فى منطقة العراق العجمى ، حتى لا يمتد نفوذ الخوارزميين الى بغداد •

ولو أن هناك رأيا آخر وهو أن تدخل الخليفة الناصر فى هذه المنطقة لم يكن بدافع سياسى لغرض التوسع لأن الخلافة العباسية لم تكن تملك أهم أسباب التوسع وهو القوة العسكرية ، لتتمكن من توسيع رقعة أراضيها • ففى هذا الوقت ، لم تكن الخلافة العباسية تستطيع

---

(٦٤) الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٧ •
(٦٥) ابن الأثير : الكامل ، ص ٩ ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ •
(٦٦) عن الولايات والامارة على البلاد • انظر :
الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ٣١ •

أن تفرض الأمن والنظام وحياة الاستقرار داخل أراضيها نفسها ، أو أن تشعر بالأمن داخل حدودها ، لذلك نجد أن أهم ما كان يسعى اليه هذا الخليفة وأقصى ما يتمناه هو أن يشعر بالأمن داخل أراضيه(٦٧) .

ولقد رأينا أن خوارزم شاه علاء الدين تكش عندما أنهى موقفه مع وزير الخليفة مؤيد الدين بن القصاب توجه الى همذان وبعدها سلم حكمها وادارتها الى قتلغ اينانج « واقطع كثيرا منها لمماليكه وجعل المقدم عليها مياحق وعاد هو الى خوارزم »(٦٨) .

أما ابلنسبة لمؤيد الدين بن القصاب فقد نجح فى الاستيلاء على خوزستان وتستر وبعدها توجه الى منطقة ميسان وهى تابعة لخوزستان(٦٩) . وفى هذه الفترة قدم عليه قتلغ اينانج ومعه بعض الأمراء ملتجئا اليه بعد أن اشتعلت الحرب بينه وبين قوات علاء الدين الخوارزمى .

ويرجع سبب الخلاف الذى حدث بين قتلغ اينانج وبين الخوارزميين ، الى الوقت الذى تم فيه تعيين قتلغ على همذان واصفهان وكان خاضعا فى ادارته لابن علاء الدين تكش المدعو يونس خان والذى كان نائبا عن والده فى حكم هذه المناطق . وكانت الرى مقرا لادارة شئون المقاطعة الجديدة(٧٠) . فربما أن قتلغ اينانج وهو ممثل للاتابكة السابقين الذين كانوا لا يرغبون أن يكونوا تحت حكم الخوارزميين ولا أن يظلوا أتباعا ، بل أن يحكموا كحكام مستقلين لهذه البلاد ، التى اعتبروها حقا خاصا لهم .

ويذكر ابن الأثير « أن قتلغ اينانج أشعل ثورته فى همذان ، حيث

---

(٦٧) الغامدى : المرجع السابق ، ص ٨٧ .
(٦٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣١ ، حوادث سنة ٩٥٩ هـ .
(٦٩) نفسه ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .
(٧٠) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

قامت معركة بينه وبين مقدم العسكر الخوارزمى مياجق عند منطقة زنجان(٧١) . الا أن قوات اينانج هزمت ، وانتصرت قوات الخوارزميين رغم عدم محبة أهل البلاد لهم . لذلك توجه اينانج ــ كما ذكرنا ــ الى قوات مؤيد الدين بن القصاب ، فأحسن استقبال اينانج واعطاه الخيل والخيام وغير ذلك » كما لخع عليه الخلع(٧٢) .

وبذلك تحالفت قوات الخليفة الناصر لدين الله الممثلة فى مؤيد الدين، مع قوات الأتابك قتلغ اينانج ، وتوجهوا سويا نحو همذان ليهاجموا القوات الخوارزمية هناك .

وتعتبر هذه المواجهة العسكرية الآن هى مواجهة بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية ممثلة فى علاء الدين تكش ، حتى أن الراوندى يذكر لنا أن هذه القوة توجهت نحو همذان بناء على أوامر الخليفة الناصر لدين الله(٧٣) .

أخذت القوات المتحالفة طريقها الى كرمانشاه ، ومنها الى همذان حيث يونس خان بن تكش ، ومياجق ــ وما أن وصلت الى مسامعهم أخبار هذه القوة المتحالفة حتى تركوا همذان متوجهين الى الرى . فقام ابن القصاب وزير الخليفة الناصر بالاستيلاء على همذان فى شوال من هذا العام ، ومنها اتجه الى خراقان ومزدغان وساوه وآوه حتى وصلوا الى الرى ، فخرج منها الخوارزميون متجهين الى خوار الرى ، وعندما لحقت بهم قوات الخلافة ، اتجهوا ناحية دامغان وبسطام وجرجان . وبعدها عادت قوات الخلافة الى الرى(٧٤) .

---

(٧١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٢ ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .
الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٧ .

(٧٢) نفسه .

(٧٣) الراوندى نفسه ، ص ٣٧٧ .

(٧٤) نفسه ، ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .

وهكذا تمكن الخليفة الناصر لدين الله من بسط نفوذه على ما كان بيد الخوارزميين من أملاك فى العراق العجمى والرى ، وساعده على ذلك أن ملك الخوارزميين لم يكن ثابتا فى تلك المناطق ، اضافة الى كراهية أهلها لهم ٠

ويهمنا الآن أن نرى مصير التحالف الذى تم بين قتلغ اينانج وابن القصاب ممثل الخلافة ٠

الحقيقة التى أوردها لنا ابن الأثير ، والراوندى وغيرهم من المؤرخين تؤكد على أن الخلاف ما لبث أن دب بين القوتين ، نظرا لاختلاف المطامع والأهواء ٠ فقد ذكرت مسبقا أطماع قتلغ اينانج بن البهلوان الذى كان يعتبر نفسه الوريث الشرعى لحكم هذه المناطق من العراق العجمى ٠ والخلافة العباسية كانت تريد أن تقضى على نفوذ الأتابكة والسلاجقة ، والنفوذ الخوارزمى الصاعد ٠

وقد رأينا سقوط السلاجقة ، واندحار الأتابكة ، ثم انتصار نائب الخليفة بن القصاب على الخوارزميين ، لذلك قاموا بفرض سيطرتهم على كل مدينة يفتحونها بدون النظر الى حليفهم اينانج ، فى الوقت الذى كان يرى فيه اينانج خروج القوات الخوارزمية من البلاد ، فأرادوا أن يحلوا محلهم ، حتى أنهم رغبوا فى أن يستقلوا بالرى الا أن قوات ابن القصاب سيطرت على المدينة ونهبها عسكره ، وأساءوا السيرة فى أهلها مما دفع اينانج الى الخروج منها(٧٥) ٠

أمر ابن القصاب بالنداء فى جنوده بالكف عن النهب والسلب ، فى الوقت الذى أخذت قوات قتلغ اينانج طريقها نحو مدينة آوه ، وكان بها شحنة من الجيش تابعة للوزير بن القصاب فتصدوا لقتلغ وقواته ومنعوه من دخول المدينة فى الوقت الذى خرجت فيه قوات بن القصاب

(٧٥) ابن الاثير ، نفسه ج ٩ ، ص ٢٣٢ ، حوادث سنة ٥٩١ هـ ٠

لتتعقب قتلغ باعتباره خارج عن الطاعة ، وأخذوا طريقهم صوب همذان . وبينما هو فى الطريق وصلته الأخبـــار بأن قتلغ قد اتجــه الى بلاد الكرج[٧٦] . وعند الدربند التقت القوتان ، واستقر القتال بينهما فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ، فى الوقت الذى تحركت فيه قوات الخلافة متجهة الى همذان[٧٧] التى أقام بها ما يقرب من ثلاثة أشهر .

ويذكر الراوندى ، والجوينى أن قتلغ اينانج عندما شــعر بعجزه عن مقاومة جيش الخـــلافة توجه الى مياجق مقدم العســكر الخوارزمى وتصالح معه على أن تتعاون القوتان معا لمقاومة العسكر الخلافى . لأنهما يتفقان الآن فى المطامع والأهداف . الا أن مياجق ما لبث أن غـــدر به وقتله وبعث برأسه الى السلطان تكش[٧٨] .

وفى نفس الوقت ، لم ترد هذه الحادثة عند ابن الأثير ، وانما يشير الى أن خوارزم شاه تكش ما أن سمع بما فعله الخليفة حتى أرســل رسوله الى الوزير مؤيد الدين بن القصـــاب منكرا أخذ البـــلاد من الخوارزميين ، وطلب منه « اعادتها وتقرير قواعدها والصلح »[٧٩] .

رفض مؤيد الدين بن القصـــاب طلب علاء الدين تكش ، لذلك سارع خوارزم شاه بتجهيز قواته ، والاتجاه صوب همذان ، فاستولى على الرى ، ووصل الى همذان ، وبينما هو هناك حدثت مفاجأة ، وهى

---

(٧٦) عن الكرج واصلهم وتاريخهم السياسى . انظر :
عفاف صبرة : دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية من ص ٤٢١ الى ص ٥١٥ .

(٧٧) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٢ ، حوادث سنة ٥٩١ هـ .
الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٧٨) نفســه .
Juwaini «op. cit» vol I. p 307.

(٧٩) ابن الاثير : نفسه ، ص ٢٣٢ .

وفاة مؤيد الدين بن القصاب فى أول شعبان ٥٩٢ هـ[٨٠] الا أن المعركة ما لبثت أن نشبت — دون اعتبار لوفاة بن القصاب — بين قوات وزير الخلافة وبين علاء الدين الخوارزمى فى منتصف شعبان، أسفرت عن هزيمة جند الخلافة ، وانتصار الخوارزميين الذين غنموا غنائم كبيرة ، ونجح علاء الدين تكش فى الاستيلاء على همذان وقام بنبش قبر الوزير وقطع رأسه وحملها الى عاصمته خوارزم « مدعيا أنه قتله فى المعركة »[٨١] وبذلك عادت سيطرة الخوارزميين على همذان والرى وأصفهان .

والحقيقة أنه لابد لنا من وقفة هنا نحلل فيها هذا الموقف العدائى والشديد الذى سار عليه مؤيد الدين بن القصاب منذ أن أوفده الخليفة الناصر لدين الله حاملا الخلع الى السلطان الخوارزمى علاء الدين تكش بعد انتصاره على طغرل السلطان السلجوقى ، وكيف أساء التصرف مع علاء الدين مما أدى الى توتر العلاقات بين الطرفين ، ثم علاقته بعد ذلك بقتلغ اينانج بعد أن اختلف مع الخوارزميين ، وكيف ضمه الى معسكره الا أنه ما لبث أن غدر به ، وكيف أساء السيرة مع أهالى البلاد وصادر ممتلكاتهم والأراضى الخاصة ، وأعلنها ملكا خاصا للخليفة العباسى فى بغداد[٨٢] كل هذه الأفعال أساءت الى اسم الخلافة العباسية فى البلاد ، وأظهرتها على أنها قوة طامعة ، تسعى لفرض النفوذ دون النظر الى مصالح أهل البلاد . وربما لم تكن هذه هى سياسة الخليفة ، بل ان سوء التطبيق الذى أتبعه ابن القصاب هو الذى قادهم الى ذلك .

ورغم كل ذلك الا أن خوارزم شاه علاء الدين حاول أن يعيد

---

(٨٠) نفسه ، الراوندى ، ص ٣٨١ .

(٨١) نفسه .

(٨٢) الغامدى : نفسه ، ص ٩٤ .

التفاهم بينه وبين الخليفة ، وتظاهر بولائه له بعد هزيمة جيوشه على أيديهم[٨٣] .

واذا كان السلطان خوارزم شاه قد فعل ذلك الا أنه لم يـراع حرمة أهل البلاد وأساء معاملتهم ، وبالغ جنده فى نهب البلاد وسلبها ، لذلك كره أهل أصفهان والرى الحكم الخوارزمى ، ورغبوا فى التخلص منه والعودة الى طاعة الخـلافة العباسية — حتى أن أهل البلاد كانوا يتنكرون فى زى الخوارزميين ، ويهاجمونهم بدعوى أنهم منهـم ، مما اضطر خوارزم شاه أن يصدر أوامره بقتل كل عراقى يلبس قلنسـوة خوارزمى[٨٤] ، وقام مياجق قائد الجيش الخوارزمى بالنهب والاغارة وامتدت غاراتهم الى كرمانشاه وحـدود أبهروزنجان ، وحملـوا كل ما وجدوه من متاع ولم يتركوا شيئا قط ، فصارت تلك البلاد خاوية على عروشها ، وتجاوز ظلمهم كل حد واسلموا الناس للهم والغم .. وان المظـالم التى ارتكبها جنـد مياجق لم تحـدث على أيـدى الكفار الأبخازيين[٨٥] ، والترك والخطائيين والصليبيين ، فقد نزعت من قلوبهم رحمة الاسلام ، فكانوا يريقون دم الانسان كما يريقون الماء ، وكانوا يغلقون المدارس بصورة لا يجيز للمجوس والنصارى واليهود والوثنيين أن تصيب بيوت النار والكنائس ، ومعابد اليهود وبيوت الأصنام وسن هؤلاء الظالمون قانونا فى العراق بمصادرة المدارس والمساجد وأموال العلماء »[٨٦] .

---

(٨٣) الراوندى : نفسه ، ص ٣٨٣ .

(٨٤) العبود : الدولة الوخارزمية ، ص ٨٤ .

(٨٥) الابخاريين نسبة الى بلاد الأبخاز فى القوقاز . عن هذا الموضوع انظر :

عماف صبرة : الكرج والقوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، من ص ٤٢١ الى ص ٥١٥ .

(٨٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٨٢ .

وعندما استاء الناس من هذه الأفعال قام رئيس الشافعية بأصفهان صدر الدين الخجندى بمراسلة الديوان ببغداد(٨٧) « يبذل من نفسه تسليم البلد الى من يصل من الديوان من العساكر »(٨٨) ، حيث أن الخجندى كانت له مكانة بارزة فى البلاد ويعتبر الحاكم الرسمى عليها .

وقد ورد سبب آخر لاستدعا قوات الخليفة الناصر لدين الله ، ولده شرف الدين محمد ، وقصد بغداد مستجيرا بالخليفة الناصر وهو قيام القوات الخوارزمية بقتل نقيب ببلاد العجم عز الدين المرتضى القمى الذى « كان من أماجد العلماء وعظماء السادات » فلما قتله هرب لدين الله(٨٩) .

وعلى كل حال ومهما كانت اسباب فقد أسرع الخليفة الى تلبية نداء أهل اصفهان وخرجت قواته بزعامة سيف الدين طغرل « مقطع بلد اللحف من العراق »(٩٠) . وعندما وصلت الى حدود أصفهان خرجت منها قوات خوارزم شاه واتجهت الى خراسان .

وقد حدثت حركة تمرد أخرى ضد علاء الدين تكش فى مدينة الرى فقد اتفق مماليك ابن البهلوان ، ونصبوا عليهم أحد أعيانهم وهو نورالدين

---

(٨٧) عن الشيخ صدر الدين الخجندى انظر :
عفاف صبرة : المرجع السابق عن دور العلماء وفقهاء الدين فى جهاد الصليبين من ص ١٩ الى ص ١٠٤ ، اخطار الباطنية زمن الحروب الصليبية ص ١٠٧ — ٢٦١ .

(٨٨) ابن الاثير : الكامل ، ص ٢٣٤ ، حوادث سنة ٥٩٢ هـ .

(٨٩) العبود ، المرجع السابق ، نقلا عن الفخرى ، الاداب السلطانية ص ٢٦٠ — ٤٢٧ .

(٩٠) بلد اللحف موقع معروف من نواحى بغداد سمى بذلك لأنه فى لحف جبال همذان ونهاوند ، وتلك النواحى وهو دونها مما يلى العراق ، ومنه « البندنيجيين » وفيه عدة قلاع حصينة .
انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ .

على كوكجه ، وقاموا بالاستيلاء على الرى وما جاورها من البلاد ومنها اتجهوا الى أصفهان لكى يطردوا الخوارزميين منها ، وعنـدما اقتربوا منها سمعوا بوصول قوات الخليفة الناصر لدين الله ، لذلك أرسل كوكجه الى سيف الدين طغرل قائد قوات الخلافة يعلن له الخضوع والاذعان « ويعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية »[٩١] وبين لطغرل أن سبب قدومه الى أصفهان كان من أجل القضاء على القوات الخوارزمية وانه عندما علم أنهم تركوا اصفهان لحق بهم الا أنه لم يدركهم .

وقد قامت قوات الخلافة بالاتجاه صوب همذان ، أما كوكجه ، فانه تتبع فلول الخوارزميين الى طبس وهى احدى بلاد الاسماعيلية[٩٢] وبعدها عاد مرة أخرى الى أصفهان واستولى عليها ، وأرسل الى الخليفة الناصر لدين الله يطلب منه أن يعينه على الرى ، وخوار الرى وساوة وقم وقاجان وما حولها من حد مرذغان ، أما الخليفة فتكون له أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين فوافق الخليفة على ذلك ، وأرسل اليه منشور التولية والخلع[٩٣] ، وبذلك دخلت هذه المنطقة من العراق العجمى تحت حكم أسرة بن البلهوان مرة أخـرى مع السيادة الشـكلية للخـلافة العباسية .

وقد لاحت الفرصة للخلافة العباسية أن تتدخل مرة أخـرى فى شئون هذه المنطقة لوقف خطر الخوارزميين .

فقام الخليفة الناصر بالاستعانة بشخصية هامة من رجال البيت

---

(٩١) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٣٤ .
الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٨١ .

(٩٢) عن الاسماعيلية انظر : عفاف صبرة ، دراسـات فى تاريخ الحروب الصليبية .
عن اخطار الباطنية زمن الحروب الصليبية من ص ١٠٧ — ٢٦١ .

(٩٣) ابن الاثر ، نفسه ، ص ٢٣٤ .

الأيوبى وهو أبو الهيجاء السمين(٩٥) ، وقد أمره الخليفـــة بأن يرأس الجيش العباسى ويتجه الى همذان حتى يتقابل هناك مع الأمير أوزبك ابن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش الذين أذعنوا لطاعة الخليفة العباسى ، ولكن ما أن وصل أبو الهيجاء الى هناك حتى أساء معـــاملة أزبك واتباعه ، وعاملهم معاملة سيئة ، « فقبض على اوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم »(٩٥) .

وصلت هذه الأخبار الى مسامع الخليفة الذى أنكر على قائده هذه الأعمال وأنبه على ذلك وأمر بالافراج عن المقبوض عليهم حتى أن الخليفة بعث اليهم الخلع من بغداد ليطيب نفوسهم ، الا أنهم لم يأمنوا جانب أبى الهيجاء ، فخافهم ، كما خاف أن يعود الى دار الخلافة فى بغداد ، بل انه آثر أن يعود الى موطنه الأصلى مدينة اربل بالعراق .

(ج) الناصر لدين الله والغوريون :

فكر الخليفة الناصر لدين الله فى وسيلة يستطيع بها أن يحد من نشاط علاء الدين تكش الخوارزمى ، الذى نجح فى مهاجمـــة الرى وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد ، واستولى عليهم ، ودخل فى مواجهة عسكرية مع جيش الخلافة ، وطالب بالســـلطنة ، واعادة دار السلطنة الى ما كانت عليه فى عهد السلاجقة ، ويجىء الى بغداد ، ويكون الخليفة تحت يده ، فانزعج الخليفة من طلبه ، ورد رسوله بلا جواب ، وسخط أهل بغداد(٩٦) . لذلك قام الخليفة بالاتصال بغياث الدين ملك

---

(٩٤) كان من أكابر أمراء مصر ، وكان له اقطاع بيت المقدس وغيره ، ولـــا ملك العزيز والعادل . دمشق من الأفضل أخذوا منه القدس ، فخرج منها الى الشام وعبر الفرات الى الموصل ثم بغداد وعرف بالسمن لأنه كان كثير السمن .

ابن الاثير : الكامل ، ص ٢٣٧ ، حوادث سنة ٥٩٣ هـ .

(٩٥) نفســـه ، الراوندى ، ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٩٦) العبود ، نفسه ، ص ٨٦ .

الغور وغزنة يأمره بمهاجمة أراضى علاء الدين تكش الخوارزمى ، ليبعده عن مهاجمة العراق العجمى[٩٧] فانتهز غياث الدين فرصة وعدة علاء الدين الخوارزمى الى مدينة خوارزم ، فبعث اليه ينكر عليه ما يفعله، ويهدده بمهاجمة بلاده والاستيلاء عليها .

لذلك قام علاء الدين بمراسلة ملك الأتراك الخطا يشكو اليهم معاملة غياث الدين الغورى « وانه سيستولى على جميع بلاده كما استولى منهم على بلخ ، وطلب منهم النجدة ، لذلك جهز ملك الخطا التركى جيشا كثيفا جعل على قيادته قائدهم المدعو بطانيكو ، فخرجوا نحو جيحون فى وقت كانت أحوال الغور غير ملائمة ، فقد انشغل شهاب الدين الغورى أحد أخوة غياث الدين ببلاد الهند ، بينما كان غياث الدين مريضا بالنقرس ولا يتمكن من الحركة . وفى هذه الظروف وصلت قوات ملك الخطا الى جيحون ، وقام علاء الدين شاه بالاتجاه ناحية طوس متجها الى هراة لمحاصرتها . ثم كان أن وصلت قوات الأتراك الى بلاد الغور فقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا »[٩٨] لذلك استنجد أهل هذه البلاد بملكهم غياث الدين الغورى حتى نجح الغوريون بفضل النجدات التى وصلتهم فى التصدى لهجوم الأتراك وهزيمتهم حتى قدر عدد قتلاهم باثنى عشر ألفا ولحق بهم الغوريون .

وعندما وصلت أنباء هزيمة جيش الخطا على يد الغوريين الى مسامع ملكهم بعث الى علاء الدين خوارزم يقول له « أنت قتلت رجالى وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار »[٩٩] الا أن علاء الدين عنفهم وبين

---

(٩٧) ابن الاثير ، نفسه ، ص ٢٤١ ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .
Juwaini «op. cit» vol I. pp. 310—311.
الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٩٠ .
(٩٨) ابن الاثير ، الكامل ، ص ٢٤١ .
(٩٩) نفسه .

لهم انهم انما أتوا لاستعادة مدينة بلخ من الغوريين لا لمساعدة خوارزم شاه ، فى الوقت الذى تصالح فيه علاء الدين خوارزم مع الغوريين الذين اشترطوا عليه على أن يتخلى عن أعماله العدائية ضد الخليفة(١٠٠) . ويشير ابن الأثير الى أن الخطا لم يتوقفوا عن العدوان على خوارزم . بل جهزوا قواتهم لمهاجمة خوارزم شاه ، لكنه كان يهاجمهم يوميا حتى قتل منهم أعدادا كبيرة فرحلوا عن البلاد(١٠١) .

وقد كانت هذه الحروب أشبه بحروب العصابات ، نتج عنها قتل عدد كبير من الجنود الخطا الذين عبروا الأراضى الخوارزمية وتقهقر من بقى منهم الى بلاد تتبعهم الجيوش الخوارزميين المنتصرة سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م تريد انتزاع مدينة بخارى من أيديهم . ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن أهالى مدينة بخارى كانوا يفضلون حكم الخطا على الخوارزميين لذلك شاركوا الخطا فى الدفاع عن المدينة . وفى أثناء حصار الخوارزميين لها أحضر الأهالى كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وأخذوا يصيحون بقولهم « هذا خوارزم شاه » ، وكان تكش أعور وقد استمروا يطوفون بهذا الكلب على سور المدينة ، وأخيرا قذفوا به بواسطة منجنيق على الجنود الخوارزميين ، وهم يصيحون « هذا سلطانكم » ومع ذلك فان تكش لما استولى على هذه المدينة عفا عن أهلها وأحسن اليها »(١٠٢) .

---

(١٠٠) كان علاء الدين تكش يرى ضرورة المحافظة على دولة القرخطائيين الواقعة شرق بلاده ، وتعهد لهم بدفع جزية معينة ، ولم ينسى أن يوصى ابنه باتباع هذه السياسة بعد أن تبين له أن هذه الدولة بمثابة الحاجز بين الدولة الخوارزمية والقبائل الهمجية فى الشرق .

انظر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٦٣ .

(١٠١) نفسه ، ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٩٣ حوادث سنة ٥٩٤ هـ.

(١٠٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

ويذكر الدكتور الغامدى رأيا آخر حول ما ذكر ابن الأثير فى موقف الخليفة الناصر لدين الله ، واستعانته بالغوريين لمجابهة الخوارزميين ، أنه قد وجد آراء أخرى مخالفة فى مؤلف المؤرخ الفارسى منهاج الدين سراج المعروف بالجوزجانى والذى يعتبر معاصرا لهذه الأحداث ، والذى يعتبر حجة فى هذا بحكم كونه عاش فى كنف بلاط السلاطين الغوريين وفى هذا الخصوص يروى لنا الجوزجانى « أن الامام شمس الدين بن الربيع ، وابن الخطيب قدما الى بلاط السلاطين الغوريين كرسل من قبل الخليفة العباسى ببغداد يشكوان من تعدى تكش على أراضى الخليفة ويطلبان عونا من الغوريين ضد السلطان الخوارزمى • ومع هذا لم يذكر المؤرخ كيفية هذا العون الذى طلبه الخليفة الناصر لدين الله ، ولا فحوى رسالته الى الغوريين • وقد انتدب السلطان الغورى غياث الدين ليحمل رسالته الجوابية الى الناصر والد المؤلف الغورى مولانا سراج الدين منهاج ليكون رسوله الى البلاط العباسى ببغداد ، وقد ذهب هذا الرسول فى معية وفد الخلافة العباسية أثناء عودتهم من البلاد الغورية الا أن رسول غياث الدين لم يمهله القدر لتأدية مهمته بتسليم رسالته الى الناصر ، حيث مات فى تخوم اقليم مقاطعة مكران وهو فى طريقه الى العاصمة العباسية[١٠٣] •

ويضيف الدكتور الغامدى تعليقا آخر فيرى أنه من الصعب أن نقول ان الغزو الغورى لاقليم خراسان كان نتيجة لتحريض الخليفة الناصر لهم ضد السلطان الخوارزمى ، لأنه يبدو أن السلطان شاه محمود وهو الأخ الأصغر للسلطان تكش كان قد هرب الى بلاط الغوريين فى مدينة غزنة ملتجئا اليهم ، يطلب حمايتهم من أخيه السلطان لذلك نراهم يأخذون جانب الأمير الهارب ضد أخيه الذى طرده من الحكم ، وأخذ منه العرش الخوارزمى[١٠٤] •

---

(١٠٣) الغامدى : أوضاع الدول الاسلامية ، من ص ١٠٦ — ١٠٧ •

(١٠٤) المرجع السابق •

وينتهى تبرأة ساحة الخليفة الناصر من التهمة التى الصقت به ظلما فلم يكن له يد مباشرة أو غير مباشرة ، ولا من قريب ولا من بعيد فى الحرب التى وقعت بين الغوريين والخوارزميين(١٠٥) .

وفى شهر ربيع الأول من عام ٥٩٥ هـ اتجه علاء الدين تكش الى الرى وبلاد الجبل ، وذلك بسبب الأخبار الى وصلته عن تمرد وخروج نائبه وقائد جيشه مياجق عليه ، واستقلاله بتلك المنطقة عن سلطة السلطان الخوارزمى . وعندما علم مياجق بقدوم السلطان تكش هرب ولحق به السلطان حتى تمكن جنود خوارزم شاه من القبض عليه وهو معتصم باحدى قلاع مازندران ، وأحضر بين يدى خوارزم شاه فأمر بحبسه ، بل أراد قتله(١٠٦) . وقد شفع فى مياجق أخاه أقجه الذى توسل الى السلطان أن يعفو عنه ، فوافق السلطان بضمان أقجه لأخيه، على أن يقضى سنة واحدة فى السجن ، وبعدها يتوجه لمحاربة أعداء الخوارزميين فى الجبهة الشرقية .

وسرعان ما تحسنت العلاقات بين الخليفة الناصر لدين الله وبين السلطان علاء الدين تكش ، الذى كان يعمل فى قرارة نفسه من أجل أن تكون علاقته طيبة بالخليفة العباسى ، لذلك ازدادت العلاقة وثوقا عند وصول ابن أخى خوارزم شاه الى بغداد فى المحرم سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م للطاعة واظهار العبودية والاعتذار عما طلبه عمه من الخطبة له ببغداد ، وتلقى بالموكب الشريف الديوانى ، ودخل وقبل العتبة الشريفة بباب النوبى المحروس وخلع عليه وأكرم مثواه(١٠٧) . وعند عودته ومعه الرسل المتقدمين من عمه كان قد شرف بالتشريفات اللائقة

---

(١٠٥) نفســـه ، ص ١٠٩ .

(١٠٦) انرظ ابن الاثا ، الكامل ، ص ٢٤٨ حوادث سنة ٥٩٥ هـ .
الراوندى : ص ٣٩٩.

(١٠٧) العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ٨٩ نقلا عن ابن الســاعى الجامع المختصر ج ٦ ، ص ١٩ .

وأعطى الكوسات والعلم وأذن له عمه فخرج متوجها ومات بخانقين فى أواخر محرم سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م ، وذبح له حصان كان يحبه وسلخ جلده وأدرج فيه وحمل الى عمه ودفن بمدينة خوارزم[١٠٨] .

وقد أرسل الخليفة الناصر الخلع والهدايا ومنشورا جديدا اعترافا من الخلافة بحقه فى ضم اقليم الجبل الى أراضى الدولة الخوارزمية ، بل انه خلع على ابنه قطب الدين محمد الخلع ، وقلده على ما بيده من البلاد[١٠٩] .

وقد انشغل السلطان علاء الدين تكش بعد ذلك بقتال الباطنيـة « الملاحدة » ، الذين قاموا بقتل وزيره نظام الملك مسعود بن على فى سنة ٥٩٣ هـ . لذلك أمر ابنه قطب الدين محمد بالاتجاه الى قلاعهم المختلفة ، ومجاهدتهم ، فاتجه أولا الى قلعة ترشيش ، فحاصرها حتى أذعنوا له ، وصالحوه على مائة ألف دينار ، وقد وافق قطب الدين محمد على هذا الصلح لأنه بلغه نبأ مرض أبيه علاء الدين تكش[١١٠] .

---

(١٠٨) المرجع السابق .
(١٠٩) ابن الأثير ، ص ٢٤٨ ، الراوندى : نفسه .
(١١٠) ابن الاثير : الكامل ، ص ٢٤٨ .
أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ص ٩٨ ، حوادث سنة ٥٩٦هـ.

الفصل الرابع

علاء الدين محمد خوارزمشاه
وتوطيد أركان الدولة الخوارزمية

لعل الفترة الزمنية الطويلة التى حكمها محمد خوارزم شاه تحتاج منا الى تفصيل دقيق لكل دور من الأدوار التى لعبها هذا السلطان مع القوى المختلفة الاسلامية وغير الاسلامية ، وأثرها على تطور الأحداث فى هذه الاونة . فقد ورث عن أبيه تركة محملة بالمصاعب ، فكان عليه أن يواجه أعداء فى الخارج ، كما كان عليه أن يواجه الدولة الغورية والخلافة العباسية ، ويسيطر بقوة جيوشه على الأولى ويحاول على الأقل فرض نفوذه الأدبى على الثانية ، ووجد أن سياسة التحالف والمسالمة مع هاتين القوتين تتعارض تماما مع ما رسمه لنفسه من سياسة قوامها التوسع ما أمكن على حساب القوى المجاورة[1] .

أولا — علاء الدين محمد والأسرة الخوارزمية :

قام علاء الدين محمد بالاتصال بأخيه على شاه باصفهان يستدعيه للقدوم اليه بعد وفاة والدهما ، فقدم اليه وبعدها عينه رئيسا للجيش الموجه الى الحرب فى خراسان ، وعينه على نيسابور ، أما ابن أخيه ناصر الدين ملكشاه المدعو هندوخان فقد خاف عمه علاء الدين محمد خوارزمشاه ، فهرب ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لأنه كان موجودا معه عند وفاته[2] وقد اتجه هندوخان الى مرو ، فأعد عمه علاء الدين

---

(1) Curtin «The mongols history». p 94.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٨ .

محمد جيشا لمحاربته بقيادة جقر التركى ، فلما سمع هندوخان بمسيرهم اليه هرب عن خراسان ، واتجه الى غياث الدين الغورى يستنجده على عمه ، « فأكرم لقاءه وأنزله وأقطعه ووعده النصرة »(٣) • فى الوقت الذى وصلت فيه قوات جقر التركى الى مـرو وقبضهم على والـدة هندوخان وأولاده أرسلهم معززين مكرمين الى السلطان عـلاء الدين محمد فى خوارزم •

وقد تحرك غياث الدين من أجل انجاد هندوخان ، فقام بالاتصال بمحمد بك جربك أمير الطالقان يأمره أن يقوم بتهديد جقر التركى قائد القوات الخوارزمية ، فلبى طلبه وخرج من الطالقان ، واستولى على مرو الروذ والخمس قرى وتسمى بالفارسية بنج ده ، وأرسل الى جقر يأمره باقامة الخطبة بمرو لغياث الدين الغورى أو يخرج من المدينـة ، لكن جقر كاتب ابن جربك سرا ، وطلب منه أن يحصل على أمان له من غياث الدين ليحضر الى خدمته ، فوافق ابن جربك ، وكتب فى ذلك الى غياث الدين ، وعندما قرأ غياث الدين الغورى هذا المطلب تأكد من ضعف علاء الدين محمد الخوارزمى لأن قائده جقر انحاز الى غيـاث الدين فتشجع بذلك على تجهيز قواته الغورية للاتجاه صوب خراسـان ، والاستيلاء على أملاك الشاه الخوارزمى(٤) •

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه والغوريون :

وضح لنا من الاشارة السابقة أن أبناء البيت الخوارزمى عنـدما تنازعوا لم يجدوا أمامهم قوة بارزة غير قوة البيت الغورى المتمثل فى الأخوين غياث الدين وشهاب الدين الغورى ، وهما قطبى البيت الغورى، واللذان نجحا فى أن يثبتا دعائم هذا البيت فى بلاد الهند وافغانستان الحالية على ممتلكات الغزنويين ، ومن أهم الممتلكات هراة ، وغزنة ،

---

(٣) ابن الاثير ، نفسه ، ص ٢٥٠ حوادث سنة ٥٩٦ هـ .
(٤) نفسـه .

وبلخ وكابل ، وسجستان وكرمان ، كما أنهما تغلبا على القسم الذى يقع شرقى خراسان[٥] .

وقد رأينا ما كان من التجاء هندوخان اليهم ، واستنجاده بهم على آله من البيت الخوارزمى .

وقد أرسل السلطان الخوارزمى محمد خوارزم شاه قائده جقر التركى لمواجهة القوة الغورية ، ومواجهة تمرد ابن أخيه ، الا أن غياث الدين الغورى استعان بأمير الطالقان بن جربك ، والذى استمال اليه جقر ، حتى خرج على سيده محمد خوارزم شاه ، فتشجع الغوريون على القيام بهجوم شامل على الأراضى الخوارزمية فى خراسان .

وقد كان جربك حاكم الطالقان قد نجح فى الاستيلاء على مدينة مرو الروذ ، وبعد اتصل غياث الدين الغورى بأخاه شهاب الدين يستدعيه بتجهيز جيش الى خراسان ، فخرج فى جيش كثيف من غزنة ، رغم تحذير الأمير عمر بن محمد المراغى حاكم هراة له بعدم الاتجاه الى خراسان ، لكنه لم يسمع رأيه وأبعده عنه[٦] وخرج شهاب الدين بجنوده حتى وصل الى قرية ميمنة وهى بين الطالقان وكرذيان ، وهناك وصلت اليه رسالة من جقر التركى الخارج عن طاعة سيده محمد خوارزم شاه وكان موجودا فى مرو ، وكانت الرسالة تحوى تسليم مرو الى قوات شهاب الدين الغورى ، وحصل شهاب الدين على اذن بذلك من أخيه غياث الدين ، ووصل الى حدود مرو ، الا أن أهلها تكتلوا مع الجنود الخوارزميين وقاتلوهم ، لكن الجنود الغوريين انتصروا عليهم ، وطلب أهل البلاد الأمان فأمنوهم . عندئذ قدم جقر اليه ، وأسلمه المدينة ، ووفى بما وعد . كما قدم غياث الدين الى مرو بعد فتحها ، وأخذ جقر الى هراة مكرما ، ثم سلم مدينة مرو الى هندوخان بن ملك

---

(٥) عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ، ص ٢٥٣ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ .

شاه الخوارزمى(٧) • وقد أوصاه بالاحسان الى أهلها ، وبعدها استولى غياث الدين على سرخس وعين عليها الأمير زنكى بن مسعود وهو من أولاد عم غياث الدين كما أضاف اليه نسا وأبيورد ، ثم اتجه الى طوس ، وطلب صاحبها الأمان ، وعندما استولى على المدينة أرسل الى على شاه ابن خوارزم شاه تكش — الذى سبق الاشارة اليه على أنه عين حاكما على نيسابور — يطلب منه ترك المدينة وفتح أبوابها للغوريين ، الا أن على شاه وعساكره من الخوارزميين اتفقوا على الامتناع عن التسليم ، وبدءوا تخريب المدينة حتى يجدها الغوريون خرابا وقد وصل غياث الدين الى ظاهر المدينة ، فتقدمت أولا عساكر أخيه شهاب الدين الى القتال ، لذلك تشجع غياث الدين لتسبق قواته قوات أخيه فى الوصول الى سور المدينة ، وتسابق الاثنان على أيهما يرفع علمه قبل الاخر على سور المدينة ، وسقطت المدينة ، ودخلها الغوريون وملكوها عنوة ، وتحصن الخوارزميون بمسجد المدينة ، فأخرجهم أهل البلد ، « فأخذهم الغوريين ، ونهبوا مالهم وأخذ على شاه بن خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا »(٨) • وعين غياث الدين على خراسان ابن عمه وولاه حرب خراسان وخراجها ، وتوجه الى هراة بينما سلم على شاه الخوارزمى الى أخيه شهاب الدين •

اتجه شهاب الدين الغورى ليستكمل الدور الذى بدءوه فى تصفية الأملاك الخوارزمية فى فارس ، فاتجه الى مدينة قهستان ، وهناك علم أن أهلها اسماعيليين ، فقاتلهم ونهب أموالهم ، ومنها اتجه الى كنا باد وهى اسماعيلية أيضا فحاصرها ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم وأخرج الاسماعيليين منها وسلمت للقيادة الغورية ، ثم اتجه الى حصن اسماعيلى

---

(٧) ابن الاثير ، نفسه .
ابو الفدا : المختصر ج ٣ ، ص ١٠٠ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ .
(٨) ابن الاثير ج ٩ ، ص ٢٥٤ .
الحقيقة أن غياث الدين أحسن الى على شاه واخذه من يده ، واقعده معه على السرير وطيب نفسه . وعامله معاملة اخوية كريمة .

آخر الا أن مبعوثا من قبل أخيه غياث الدين قدم اليه ومنعه من التعرض لهذه المناطق وأمره بالعودة الى الهند ، لذلك رحل » ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه(٩) .

بعد أن وصل شهاب الدين الى الهند أرسل مملوكه قطب الدين أيبك الى نهرواله ، فدخل فى صراع كبير مع الهنود ، وتمكن من الاستيلاء على المدينة عنوة فهرب ملكها ، وقرر شهاب الدين أن يقدم بنفسه الى هذه المدن الا أنه لم يتمكن من ذلك فآثر أن يبقى علياه حاكما على أن يؤدى اليه الجزية(١٠) .

والحقيقة أن الغوريين لم يتمكنوا طويلا م ن الاحتفاظ بهذه الأراضى فى العراق العجمى ، وانما نجد أن علاء الدين محمد خوارزمشاه عندما علم بعودة شهاب الدين الى بلاد الهند ، وابتعاد العساكر الغورية عن خراسان ، كتب الى غياث الدين معاتبا اياه بقوله « كنت اعتقد أن تخلف على بعد أبى وان تنصرنى على الخطا ، وتردهم عن بلادى ، فحيث لم تفعل ، فلا أقل من أن لا تؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده أن تعيد ما أخذته منى والا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك »(١١) . وقد بين له علاء الدين محمد أيضا ، أن السبب الذى هيأ لهؤلاء الغوريين مهمة استيلائهم على هذه الممتلكات هو انشغال الشاه الخوارزمى بأمور العزاء فى وفاة والده علاء الدين تكش ، وتدبير أمور مملكته .

وقد حاول غياث الدين أن يتلكأ فى الرد على الشاه الخوارزمى

---

(٩) ابن الاثير ، نفسه جـ ٩ ، ص ٢٥٤ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ .
أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٠٠ حوادث سنة ٥٩٧ هـ .
وصلت بعثة من قبل الاسماعيلية الى غياث الدين يشكون اليه أعمال أخاه شهاب الدين ضدهم ويقول له « ما الذى بدا منا حتى تحاصر بلدى » .

(١٠) ابن الاثير ، نفسه جـ ٩ ، ص ٢٥٥ ، أبو الفدا : نفسه .

(١١) نفسه ، ص ٢٥٦ ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ.

حتى يضيع وقت يستطيع فيه الاتصال بأخيه شهاب الدين فى بلاد الهند حتى يتمكن من تجهيز العساكر والجيوش لملاقاة علاء الدين محمد .

وفى نفس الوقت قام خوارزم شاه بالاتصال بالنائب الغورى على خراسان — المدعو علاء الدين الغورى — يأمره بالرحيل عن نيسابور ويهدده ان لم ينفذ طلبه ، فكتب النائب الغورى الى غياث الدين يعلمه بما حدث ، وبأن أهل البلاد كانوا يميلون الى الخوارزمية ، فحاول غياث الدين أن يقوى قلبه ويثبته ، الا أن ذلك لم يمنع الشاه الخوارزمى من أن يتحرك بقواته صوب نيسابور فى منتصف ذى الحجة سنة ٥٩٧ هـ ، وعندما اقترب من نسا وأبيورد هرب ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه من مرو الى الغوريين ، فتمكن علاء الدين محمد الخوارزمى من دخول مرو ومنها اتجه الى نيسابور التى كان بها النائب الغورى علاء الدين . وقد انتظر علاء الدين فى المدينة ، وظل صامدا أمام حصار منتظرا وصول امدادات اليه من قبل غياث الدين الغورى ، حتى مضى شهران ، لذلك اضطر الى التسليم فأمنه علاء الدين محمد[١٢] ، واعاده معززا مكرما « ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة » ، وطلب من النائب أن يتوسط له فى الصلح مع السلطان الغورى غياث الدين ، فوافقه على ذلك ، الا أنه لم يذهب لمقابلة غياث الدين لأنه كان مستاءا منه لتأخره فى ارسال الامدادات اليه[١٣] .

اتجه علاء الدين محمد بعد ذلك الى سرخس حيث الأمير زنكى — فحاصر المدينة أربعين يوما ، ونجح زنكى بالحيلة أن يصرف علاء الدين عن حصارها ، فرحل عنها تاركا بعضا من رجاله يحاصرونها الا أن قدوم

---

(١٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٢٥٧ حوادث سنة ٥٩٨ هـ .
Juwaini «op. cit» vol I p. 380..

(١٣) نفسه .

قوات أمير الطالقان الغورى اليهم من أجل حصرهم جعلتهم يتركون حصار سرخس • وقد نجح أمير الطالقان محمد بن جبك فى الانتصار على القوات التى بعث بها محمد خوارزم شاه بقيادة خاله ، بل قتل حامل رايتهم ، فانهزموا « وركبهم الغورية قتلا وأسرا »(١٤) •

وعنـدما سمع خوارزمشـاه ذلك رجـع الى بلاده جرجانية فى خوارزم ، فأرسل الى غياث الدين الغورى طالبا الصلح ، فبعث اليه السلطان الغورى أحد رجاله المدعو الحسين بن محمد المرغنى بالـرد على رسالته ، فقبض عليه علاء الدين محمد(١٥) ، وبعد أن قبض عليه اتجه الى هراة لمحاصرتها ، فكتب الحسين الى أخيه عمر المرغنى أمير هراة ، كى يستعد لملاقاة الخوارزمية ، ولكنه سلم مفاتيح أبواب المدينة الى اثنين من ثقاتة ، كانا فى الأصل أبناء الخوارزم — لكن الحقيقة أنهما « كانا يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل(١٦) • ووصـلت الانباء بذلك الى الأمير عمر المرغنى فقبض عليهما واعتقلهما — وفى نفس الوقت وصلت قوات من قبل الغوريين تحت قيـادة ألب غـازى ابن أخت غياث الدين ، وعسكروا بالقرب من هراة ، وبـدأ فى منع الميـرة عن الوصول الى العسكر الخوارزمى ، لذلك اضطر خوارزم شاه أن يرسل مجموعة من جنده للاغارة على الطالقان علها تحقق نصرا على الغوريين هناك ، الا أن الحسن بن جربك حاكمها كان سريع الخطا ، فظفر بهم فلـم يفلت منهم أحـد ، وذلك فى الوقت الذى قدمـت فيه قـوات غياث الدين الغورى من فيروزكوه الى هراة ، وعسكر بالقرب منها ، كل

---

(١٤) نفسـه •

(١٥) نفسه ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ص ١٠٢ حوادث سنة ٥٩٨هـ

(١٦) ابن الاثير ، ص ٢٥٨ حوادث ٥٩٨ هـ •

هذه الظروف المجتمعة أدت الى رحيل خوارزم شاه عن هراة ، فأرسل الى عمر المرغنى أمير هراة وصالحه على مال حمله اليه ورحل عنها(١٧) .

فى هذه الفترة وصلت قوات من الهند على رأسها شهاب الدين الغورى وكان قد وصلته الأنباء باستيلاء خوارزم شاه على خراسان فقرر محاربته وبعد قتال بينهما خسر فيه الفريقان أرواحا كثيرة رحل خوارزم شاه محمد شبه المنهزم ، وتوجه شهاب الدين الى طوس مقررا ضرورة مهاجمة خوارزم نفسها . الا أن المنية وافت أخاه غياث الدين . فتوقف عن خطته واتجه الى مقر أخيه فى هراة تاركا حكم مرو فى يد محمد بن جربك .

انتهز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمى ، فرصة انشغال شهاب الدين الغورى بوفاة أخيه الى جانب ترتيب أمور المملكة فى الهند وغزنة ، فأعد حملة عسكرية خرجت الى مرو ، فتصدى لها الأمير محمد ابن جربك وقضى على معظمهم وأرسل رؤوس قتلاهم الى هراة . لذلك قرر شهاب الدين الغورى ضرورة مهاجمة خوارزم لتأديب حاكمها . فى الوقت الذى أرسل فيه خوارزم شاه قوة اضافية بقيادة برفور التركى لقتال محمد بن جربك ، وانتهت المعارك بهزيمة الغوريين ، وقيام القوات الخوارزمية بحصار بن جربك عند مرو حتى طلب منهم الأمان فأمنوه الا أنهم غدروا به وقتلوه(١٨) .

لذلك ساءت العلاقة أكثر بين الخوارزميين والغوريين ، وعن شهاب الدين ابن أخيه ألب غازى على هراة وملك الملك على فيروزكوة ، وقرر هو أن يوليه الحرب فى خراسان .

---

(١٧) نفسه ، ص ٢٥٨ .
Juwaini «op. cit» vol I. p. 383.

(١٨) ابن الاثير : الكامل ج ٩ ، ص ٢٥٩ ، حوادث سنة ٥٩٩ هـ .
Juwaini «op. cit» vol II. p. 54.

أما عن خوارزم شاه محمد ، فقد وصل الى مدينة هراة وحاصرها وبها ألب غازى — المشار اليه — فى الوقت الذى توجه فيه شهاب الدين الى لهاوور للحرب فى بلاد الهند . واستمر القتال طويلا بين الخوارزميين داخل هراة .

وقد حدثت خدعة عسكرية للجند الخوارزمى ، نفذها فيهم الحسين ابن حزميل حاكم كرزيان . فقد بعث الى علاء الدين محمد يطلب منه أن يرسل اليه مجموعة من جنوده ليسلم اليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين الغورى ، فبعث اليهم بألف فارس من أعيان عسكره ، الا أنه غدر بهم ، وانساحوا فيهم قتلا ، لذلك قرر خوارزم شاه الانتقام ، واتجه الى سرخس[١٩] .

عندما علم شهاب الدين الغورى بحصار الخوارزميين لمدينة هراة ، وموت نائبه بها ألب غازى ، قرر العودة الى خراسان الا أنه وهو فى الطريق رأى أن يتجه مباشرة صوب جرجانية فى خوارزم ، وحاول خوارزم شاه محمد أن يصده عن عزمه الا أنه أصر ، لذلك ترك خوارزم شاه سرخس ، واتجه الى مرو ، وأصبح كلا منهما خوارزم شاه ، وشهاب الدين يتسابق للوصول الى خوارزم . وقد نجح علاء الدين محمد فى الوصول أولا ، وقام بقطع الطريق ، وأجرى فيه المياه حتى يعوق حركة شهاب الدين ويمنعه من الوصول الى البلاد ، ولذلك تأخر شهاب الدين فى الوصول الى المدينة ، الا أنه نجح بعد جهد فى الوصول اليها ، وتلاقى الجيشان الغورى والخوارزمى فى معركة عند سوقرا « أى الماء الاسود » كبدت الجيشان خسائر فادحة ، مما أضطر خوارزم شاه ، الى الاتصال بالأتراك الخطا الكفار[٢٠] .

---

(١٩) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦١ ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

(٢٠) ابن الاثير : نفسه ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

تم الاتصال بين علاء الدين محمد وبين الأتراك والخطا ، وكان اتصاله بهم أولا لأنهم يجاورون مملكته ، وكان الخوارزميون دائما ومنذ أيام آتسز يتجنبونهم ويخشون الاحتكاك بهم ، وقبل آتسز من الماضى أن يدفع لهم جزية سنوية مقدارها ٣٠٫٠٠٠ دينار من الذهب ، فظل هذا الأمر متبعا حتى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه[٢١] .

كما أن علاء الدين تكش بعد أن أعياه الحرب مع الخطا قرر أن يقوى علاقته بها ، ويعمل على المحافظة على هذه الدولة فى شرق البلاد رغم عداوته لها ، فاستمر على دفع الجزية ، وأوصى ابنه محمد باتباع هذه السياسة بعد أن تبين له أن دولة الخطا كانت بمثابة حصن قوى بين الدولة الخوارزمية والقبائل الهمجية فى الشرق[٢٢] لذلك لبى الخطا نداء علاء الدين محمد واتجهوا بقواتهم صوب بلاد الغور ، وعندما علم شهاب الدين بذلك ترك حصار خوارزم ، وعند مروره بصحراء آندخوى فى أول صفر سنة ٦٠١ هـ التقى بقوات الغور ، فاشتبك معهم ، وأسفر الاشتباك عن قتل وأسر عدد كبير منهم . وفى اليوم التالى هاجمته مجموعة كبيرة من الأتراك مما أدى الى هزيمة قوات شهاب الدين الغورية ، وبقى معه عدد قليل من رجاله ، وفر الى آندخوى حيث حاصره الخطا بعد ذلك ، لكنهم صالحوه على أن يعطيهم فيلا آخر غير الفيلين اللذين استولوا عليهما »[٢٣] .

وقد تدخل فى انقاذ الغوريين السلطان عثمان حاكم سمرقند المسلم والتابع للغوريين ، حيث اتفق معهم على خطة يغررون بها بالخطا وهى أنه قام بالاتصال بقائد جيش الاتراك ، وبين لهم أن قائد الغوريين

---

(٢١) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٦٦ .

(22) Betschneider «Medieval Researches from eastern Asiatic Sources». vol I. p. 229.

(٢٣) ابن الاثير : نفسه ، ص ٢٦٢ ، حوادث سنة ٦٠١ هـ .

مختبيء فى مفازه ، وأتت اليه الأمداد من كل مكان والأفضل الصلح معه ، فى حين اتصل سرا بشهاب الدين وطلب منه أن يتظاهر بالامتناع عن الصلح حتى يلحوا عليه فى ذلك ، وبهذا تم الصلح بين الطرفين ، على أن الخطا لا يعبرون النهر الى بلاد الغور ، ولا يعبر هو الى بلادهم(٢٤) .

وافق شهاب الدين على طلبهم واتجه الى الطالقان وليس معه من رجاله غير سبعة أنفار ، حتى أن الحسين بن خرميل حاكم الطالقان أخرج له الخيام لايوائه ، وبعدها توجه الى غزنة .

كاننت الاخبار قد وصلت الى غزنة بمقتل شهاب الدين الغورى على يد الأتراك لذلك انتهز أحد مماليكه المدعو تاج الدين الدز الفرصة وصعد الى قلعة المدينة الا أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها لكنه أساء كثيرا فى البلاد ، وقطع الطريق على الناس ، وقتل الكثير ، لذلك أراد شهاب الدين عند وصوله الى غزنة أن يقتل ألدز ، لكن المماليك شفعوا وقام شهاب الدين باصلاح جميع ما أفسده مملوكه فى البلاد .

وقد حدث موقف مماثل فى بلاد الهند جراء انتشار شائعة مقتل شهاب فقد خرج عليه مملوك له هناك يدعى أيبك بال تر ، فقام بدخول الملتان وقتل نائب السلطان الغورى بها ، وأعلن نفسه سلطانا ، لذلك قدم شهاب الدين الى الهند للقضاء على حركة التمرد هذه(٢٥) .

---

(٢٤) ابن الاثير ، نفسه .

Juwaini «op. cit» vol I. pp. 321—324.

رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .

وهناك اشارات الى أن هناك رسائل كثيرة متبادلة كانت تصل من قبل عثمان خان تحض محمد خوارزمشاه على محاربة القراخطائيين على أن يكون حليفا مخلصا لخوارزمشاه .

(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦٢ ، حوادث سنة ٦٠١ هـ .

بعد أن انتهى شهاب الدين من القضاء على هذه الحركة دعى داعى الجهاد بالتجهز لمحاربة الأتراك الخطا حلفاء خوارزم شاه للاخذ بالثأر مما نال الغوريين من مهانة على يد هؤلاء الكفار •

والحقيقة التى بين أيدينا عن هذا الموقف هى أن هؤلاء الخطا كانوا يحاولون حماية السلطان خوارزم شاه محمد ، خوفا على مصالحهم فى بلاده ، وحتى يظل السلطان محمد الخوارزمى يدفع لهم الضريبة السنوية المقررة عليهم • فهم يدافعون عن مصالحهم الخاصة ، ومن ناحية أخرى فانه لو انتصر الغوريون على الخوارزميين فسيكونون خطرا دائما على أراضى القراخطائيين وممتلكاتهم فيما وراء النهر حيث أن خوارزم كانت تعتبر بمثابة مفتاح لتلك البقاع ، وهكذا كاد الغوريون أن ينجحوا فى تطويق أراضى القراخطائيين من الناحية الشمالية ، كما كانوا قد نجحوا فى تكوين مركز لهم قوى من الناحية الجنوبية ، هدد ممتلكات خصومهم من هذه الجهة ، فقد كان الغوريون قد احتلوا جميع الأراضى الجنوبية قرب منابع نهر جيحون ، والأراضى الواقعة الى الشمال من اقليم الطاليقان(٢٦) •

وقد اضطر شهاب الدين أن يبث الأمن فى بلاده ، حيث أن نبأ مقتله قد تطاير تطاير الرياح ، وكل من حدثته نفسه بالخروج عليه وجدها فرصة سانحة ، وقد بينا كيف قضى على بعض الحركات المناوئة فى الهند وغيرها •

وقد ظهر بن دانيال صاحب جبل الجودى ، وكذلك بنى كوكر الذين كانوا يسكنون المنطقة بين لهاوور والملتان ، وكانوا يدفعون له الخراج ، فعندما علموا نبأ مقتله تمردوا وارتدوا عن الاسلام ، وانضم اليهم صاحب جبل الجودى وغيرهم وقطعوا الطرق الموصلة الى غزنة •

---

(٢٦) الغامدى ، ص ١٠٧ — ١٧١ .

وقد طلب شهاب الدين من نائبه على لاهور أن يرسل اليه الأموال المقررة على البلاد حتى عام ٦٠١ هـ ؛ الا أنه امتنع ، وأخبره بأن بنى كوكر قد تمردوا لذلك أمر شهاب الدين مقدم عسكره بالهند أيبك بأن يدعو بنى كوكر الى الطاعة الا أن بنى كوكر أتعبوا مبعوث شهاب الدين ، وأكدوا على وفاته لذلك أمره شهاب الدين بقتالهم ، فى الوقت الذى كثر فيه شغبهم واعتداءاتهم وكان شهاب الدين يستعد فى هذه الاونة لقتال الخطا الا أنه بعد وصول أخبار بنى كوكر اليه « غير قصده عن الخطا ، وتوجه وجنوده لقتال بنى كوكر وانتصروا عليهم وقتلوا بكل مكان »(٢٧) .

وبعد انتهاء القتال توجه الى لاهور ومنها الى غزنة وأرسل الى بهاء الدين سام الغورى صاحب باميان للاستعداد للاتجاه نحو سمرقند لقتال الأتراك .

مقتل شهاب الدين الغورى :

لعل ما قام به شهاب الدين الغورى مع الكوكرية كان سببا أودى بحياته ، فقد قام مجموعة من الكوكرية بالتربص له وهو مقيم بخيمته يستعد لتجهيز الجيوش لقتال الأتراك الخطا ، فطعنوه اثنتين وعشرين طعنة قاتلة(٢٨) .

وقد اختلفت الأقوال والآراء فى عملية اغتيال السلطان شهاب الدين الغورى فبينما أورد لنا ابن اثير الرأى السابق الا أنه ألحقه بخبر آخر وهو أن الاسماعيلية هم الذين قتلوه لأنهم خافوا خروجه الى خراسان ، وانه كان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم(٢٩) .

---

(٢٧) ابن الاثير ، نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٧١ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٢٨) نفسه ، ص ٢٧٢ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

(٢٩) نفسه .

أما الجوينى « عطا ملك » فينسب قتله الى اثنين أو ثلاثة رجال من الهنود الذين ظهروا من ماء نهر مجاور لسرادق شهاب الدين ، ودخلوا مخيمه دون أن يراهم أحد فاغتالوه(٣٠) .

أما النسوى مؤرخ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى فقد أورد رأيا ضمن رسالة من الاسماعيلية موجهة الى جلال الدين منكبرتى بعد خمس وعشرين عاما من قتل شهاب الدين الغورى ، يعددون فيها خدماتهم للخوارزميين « بقولهم » فى أى زمان كنا مخالفين ، ولهذه الدولة غير موالين ولا مضافين وقد جربنا السلطان على حالتى السراء والضراء ، وتارتى الشدة والرخاء ، ألم يخدم السلطان أصحابنا بالهند وهو على أضعف أحواله بعد عبوره ماء السند ولما سمع السلطان ذلك ، اعترف بخدمتهم له فى ذلك الوقت ؟ أو لسنا قتلنا شهاب الدين الغورى على ولاء السلطان الكبير ومحبته ؟ »(٣١) .

ونعتبر أن رواية النسوى أصدق ، ويجب أن نأخذ بها لأن فيهـا اعتراف من قبل الاسماعيلية أنفسهم بقيامهم بهذا العمل ، فهى تأكيد عليه وليس ترجيحا لرأى على آخر ويبين أيضا أن عملية القتل هذه تمت بتحريض من قبل السلطان الخوارزمى محمد ، ويدل عليها جملة « على ولاء السلطان الكبير ومحبته » .

النشـــاط الخوارزمى فى الأراضى الغورية :

لعل وفاة السلطان الغورى شهاب الدين كان له أكبر الأثر فى انقلاب ميزان القوى فى هذه الجبهة الشرقية ، وبداية الصراع الأسرى الذى تمثل فى غياث الدين محمود بن غياث الدين الغورى . وبهاء الدين

(30) Juwaini «op. cit» vol I. p. 326.

(٣١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص ٣٤١ ، تحقيق حمدى حافظ .

صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين ، وتدخل مماليكهم ووزرائهم فى هذا الصراع أمثال ألذر أكبر مماليك السلطان شهاب الدين • وما كان من موت بهاء الدين قيام أبنائه علاء الدين وجلال الدين من بعده بالتدخل فى هذا الصراع •

وهذا وان دل على شيء فانما يدل على الفوضى والاضطراب الذى بدأ يدب فى كيان الدولة الغورية(٣٢) •

وقد استتب الأمر فى السلطنة لغياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ، لكن مع ذلك فالامور لم تستقر بل وضح العد التنازلى للدولة الغورية •

فقد انتهز السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد هذه الظروف لصالحه ، وبدأ أولا بمدينة هراة والتى كان عليها الحسين بن خرميل • فقد انتهز هذا الوالى ما آل اليه الأمر عند الغوريين ، واتصل بالسلطان محمد على أساس الانتماء اليه والطاعة له ، « وخداعه لغياث الدين الغورى ، ومغالطته له بالخطبة »(٣٣) وقد ظل يخدع رسل غياث الدين فى اقامته الخطبة للسلطان الغورى حتى وصلت قوات خوارزمشاه على حدود المدينة ، عندئذ استقبلهم على أبوابها الا أن خوارزمشاه انشغل عنهم بمدينة بلخ التى نجح فى مقاتلة حاكمها أربعين يوما ، واستولى عليها ، واتجه بعدها الى ترمذ التى كان يحاصرها علاء الدين محمد من من جانب والأتراك الخطا من جانب آخر ، وأخيرا سلم صاحبها المدينة الى الخوارزميين ، لكنه ما لبث أن تنازل عن هذه المدينة للخطا ، فكان

---

(٣٢) ابن الاثير ، نفسه ج ٩ ، من ص ٢٧٢ الى ص ٢٧٧ •

(٣٣) نفسه ، ص ٢٧٨ •

ذلك سبة فى جبينه الا أنه ثبت بعد ذلك أنه سلمها لهم لكى يتمكن من ملك خراسان ثم يعود بعد ذلك للاستيلاء عليها[٣٤] .

وقد اتجه خوارزم شاه بعد ذلك الى ميهنة واندخـوى وكاتب سونج أمير الشكار نائب غياث الدين بالطالقان ، وحاول استمالته اليه الا أنه لم ينجح بل قام سونج بمحاربة القوات الخوارزمية ، لكنه هزم على أيديهم ، واستولى خوارزمشاه محمد على الطالقان واستمر فى زحفه فاستولى على قلاع كالوين ، الا أنه رجع بعد ذلك الى هراة[٣٥] .

وقد قام ابن خرميل الذى أصبح تحت طاعة الخوارزميين بالاتجاه صوب سجستان وعليها حرب بن محمـد ، ونجـح فـ ضـمها الى الخوارزميين[٣٦] .

وبذلك سقطت معظم الأراضى الغورية ، واستطاع علاء الدين محمد خوارزمشاه أن يحقق أهدافه فى غضون فترة قصيرة من وفاة شهاب الدين الغورى . وقد حدث أن احتدم الخلاف بين غياث الدين الغورى ومملوكه الدز ، ففكر غياث الدين فى مصالحة خوارزم شاه ، بل ان خوارزم شاه فكر فى مصاهرة غياث الدين ، على أن يمده عياث الدين بقوة يغزو بها غزنة ، ويقضى على نفوذ الدز بها ، ويقسم المال الموجود بها أثلاثا ثلثا لخوارزم شاه ، وثلثا لغياث الدين ، وثلثا للعسكر ، فوافق غياث الدين على هذا الصلح ، وبقى أن ينفذ[٣٧] .

---

(٣٤) نفسـه ، ص ٢٨٢ ، حواد ثسنة ٦٠٢ هـ .

Curtin «The Mongols history» p. 94.

(٣٥) نفسه ، ص ٢٨٥ ، حوادث سنة ٦٠٣ هـ .

(٣٦) نفسه ، ص ٢٨٦ .

(٣٧) ابن الاثير : نفسه ، حوادث ٦٠٣ ، ص ٢٨٦ .

وفى هذه الآونة وصلت أخبار الى خوارزم شاه تفيد موت حاكم مازندران الفارســية ، فترك مدينة هراة متجها الى مرو ، فى الوقت الذى سمع فيه ألدز خبر الصلح بين الغوريين والخوارزميين ، فجزع جزعا شديدا ، واتصل بغياث الدين يســأله عن سبب مصالحته مــع خوارزم شاه ، فأخبره أن عصيانه كان سببا رئيسيا لذلك جن جنون ألدز، وبدأ يستولى على مناطق كثيرة تابعة للغوريين مثل تكياباز ، وبسط وقطع عنها الخطبة لغياث الدين الغورى(٣٨) .

لم يكتف ألدز بذلك بل حاول تحريض حاكمى سجستان وهراة حتى يخرجها عن طاعة خوارزم شاه ، كما بدأ فى تحريض شخصيات من البيت الغورى ليقوموا على غياث الدين .

سقوط بقية البلدان الغورية فى أيدى الخوارزميين :

ذكرنا من قبل أن بن خرميل حاكم هراة دخل فى طاعة علاء الدين محمد خوارزمشاه ، الا أننا فوجئنا أن بن خرميل انتهز فرصة خروج خوارزمشاه لمحاربة الأتراك الخطا فيما وراء النهر ، ويخرج عن طاعة الخوارزميين ، لكن خوارزمشاه نجح فى ارسال قائد يدعى عز الدين جلدك استطاع أن يحاصر هراة ، وطالب ابن جلدك بتسليم المدينة الا أن الوزير الموجود بالمدينة أعلن علانية تبعيته للسلطان الغورى ، وقاموا بقتل بن خرميل . وبذلك استبد الوزير بالسلطة فى هراة ، وبالتبعية للسلطة الغورية .

لذلك كتب بن جلدك الى خوارزم شاه يطلب النجدة ، فأرسل اليه قوات من نيسابور ، وزوزن ، اجتمعوا جميعا تحت الراية الخوارزمية لحصار هراة(٣٩) .

---

(٣٨) نفسه ، ص ٢٨٧ .

(٣٩) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٩٢ .

وقد تعرضت الجبهة الخوارزمية لمشاكل فى هذه الفترة حيث تم أسر خوارزم شاه محمد على يد الخطا ، فكانت ضربة قاصمة للقـوة الخوارزمية . الا أن سقوط هراة لم يتم الا بعد عودة خوارزمشاه من أسره وقدومه بنفسه الى خراسان ، فدخل نيسابور ، ثم اتجه الى هراة ، وانضم الى مجموع الجنود المحاصرين لها ، واتصل بالوزير القائم بها ، والذى كان قد عرض على الجنود ألا يسلمهم المدينة ، وانما سـلمها الى خوارزم شاه ، الأن الوزير رجع فى قوله ، وقرر أنه لن يسلم هراة الا للغوريين ، فغضب خوارزم شاه ، وقرر تشديد الهجوم على المدينة فى الوقت الذى استاء أهلها من طوال فترة الحصار وحدثت فتنة داخلية استغلها خوارزم شاه محمد لاقتحام المدينة التى سلمت للخوارزميين سنة ٦٠٥ هـ(٤٠) وعين عليه علاء الدين محد خاله أمير ملك .

بعد سقوط هراة ، أصبح الدور على فيروزكوه ، وغزنة . أما الأولى فقد أمر علاء الدين محمد خاله أمير ملك أن يتوجه اليها ، وأن يقـوم بالقبض على حاكمها غياث الدين الغورى ، وأن يقبض أيضا على أخاه الهارب على شاه الخوارزمى الذى انتهز فرصة الشائعات التى انتشرت عن مقتل خوارزمشاه ، وانشق عليه وانضم الى غياث الدين فى فيروزكوه . لذلك خرجت قوات أمير ملك متجهة الى هذه المدينة ، وعندما حاصرتها القوات الخوارزمية طلب غياث الدين وعلى شاه الأمان ، فأمنهما ، الا أنه غدر بهما بناء على أوامر علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وقـام بقتلهما ، وبذلك دانت كل خراسان لخوارزم شاه(٤١) .

ويذكر الدكتور الغامدى رواية أخرى نقلا عن الجوزجانى « طبقات ناصرى » يقول فيها أن السلطان محمد ، عندما علم بهروب أخيه ولجوئه الى البلاط الغورى ، أرسل وفدا من لدنه الى غياث الدين ، وقد حثه

---

(٤٠) نفسه ، ص ٢٩٤ حوادث سنة ٦٠٥ هـ .

(٤١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٩٤ حوادث سنة ٦٠٥ هـ .

على أن يلتى القبض على على شـــاه ، لهذا أقدم غياث الدين على القاء القبض على على شاه ، وسجنه فى القصر بمدينة فيروزكوه — الا أنه مع ذلك نجح خدم وأصحاب على شاه فى مخططهم الذى تآمروا بموجبه على حياة السلطان الغورى • اذ أنهم قرروا أن يقتلوه بعد أن فشلت جميع محاولاتهم مع غياث الدين فى سبيل اطلاق سراح سيدهم والعفو عنه فقتلوا الحاكم الغورى ، كان فى هذه الأثناء قد سار اليهم جيش السلطان محمد ، وأخذ تهديده لهم يلوح فى الأفق • وبعد أخذ وعطاء ومداولات بين كبار رجال وأعيان فيروزكوه ، وافقوا على اطلاق سراح على شاه من سجنه وتنصيبه حاكما عليهم ، وذلك ليقوم بمساعدتهم فى الدفاع عن أراضيهم ضد أمين ملك أو ملك أمين كما يسميه الجوزجانى الذى قدم على رأس جيش الخوارزميين •

ومع ذلك فانه فى يوم جمعة فى منتصف شهر جمادى الأولى فى عام ٦٠٧ هـ استسلمت مدينة فيروزكوه الى القوات الخوارزمية ، وهكذا انقرضت أسرة محمد سام ••• »(٤٢) •

الاستيلاء على غزنة وانتهاء الملك الغورى نهائيا :

لقد ذكرت كيف نجح تاج الدين أيلدز فى السيطرة على غـــزنة وما حولها ، وخلعوا طاعة الغوريين ، واستقلوا بأنفسهم • وقد كانت وفاة غياث الدين سببا رئيسيا فى تأكيد استقلال تاج الدين أيلدز بغزنة •

ولكن لم يهنأ أيلدز بهذا الاستقلال طويلا ، اذ ما لبث الشـــاه الخوارزمى أن رنا ببصره اليها ليستكمل جمع الممتلكات الغورية تحت سلطانه ، فبعد أن استولى على خراسان ، وباسيان ، أرسل الى ايلدز يطلب منه « أن يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل اليه فيلا واحدا

---

(٤٢) الغامدى : اوضـــاع الدول الاسلامية فى الشرق الاســـلامى ، ص ١٧٩ نقلا عن الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ج ١ ، ص ٣٧٧ — ٣٧٩ .

ليصالحه »(٤٣) وقد وعده بأنه سيتركه فى منصبه حاكما على غزنة من قبل السلطان الخوارزمى •

لذلك اجتمع ايلدز بكبار أمراء وأعيان دولته وشاورهم فى الأمر ، فأشار عليه أحد كبا دولته ويدعى قتلغ تكين بالموافقة ، وبذلك أصبحت غزنة اسميا تحت الحكم الخوارزمى •

وقد انتهز قتلغ تكين فرصة خروج ايلدز للصيد ، فاتصل سرا بعلاء الدين محمد خوارزمشاه يطلبه ليسلم اليه غزنة ، فأسرع علاء الدين محمد الى غزنة ، فسلمها اليه قتلغ ، فقام خوارزمشاه بقتل من بها من الجند الغورى ، وعندما وصلت هذه الأخبار الى مسامع ايلدز هرب ومن معه الى لهاوور بالهند(٤٤) •

أما عن قتلغ تكين فقد قام محمد خوارزمشاه بقتله ، وذلك بعد أن اجتمع به وانبه على صنيعه مع صاحبه قائلا « اذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن أحسن اليك صحبته واحسانه ، فكيف يكون حالى أنا معك ، وما الذى تصنع مع ولدى اذا تركته عندك »(٤٥) • وبعد قتله عين على غزنة ولده جلال الدين « منكبرتى » •

أما عن مصير ايلدز ، فقد توجه كما ذكرنا الى لهاوور ودخل فى قتال مع صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى وانتصر عليه وملك المدينة ثم اتجه الى دلهى « دهلى » حيث كان يحكمها مملوك آخر لشهاب الدين يدعى شمس الدين ايتلمش • الا أن ايلدز هزم على يديه • وبذلك انتهى دوره الى الأبد(٤٦) •

---

(٤٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ حوادث سنة ٦١٢ هـ ، ص ٣١٠ •

(٤٤) نفســه •

(٤٥) نفسه اختلفت الاقوال فى سنة الاستيلاء عليها ما بين سنة ٦١٢ ، سنة ٦١٣ هـ •

(٤٦) نفســه •

أما الجوزجانى فذكر انه بعد سقوط فيروزكوه فى يد السـلطان علاء الدين محمد سار على شاه « أخو السلطان » الى غزنة، وأعلن نفسه الحاكم عليها ، وبعد مضى وقت من الزمن قويت رغبة السلطان محمد فى امتلاكها ، لذلك أرسل وفدا سياسيا من طرفه الى أخيه لمحاولة اصلاح الشقاق بين الأخوين ، ولكن أولئك الرسل فى نهاية الأمر قاموا بقتل على شاه ، فسلمت البلدة الى أخيه فى سنة ٦٠٩ هـ وهكذا بقيت غزنة وأراضيها تحت نفوذ السلطات الخوارزمية(٤٧) .

الخوارزميون والقراخطائيون على عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه :

وضح أن السياسة التى أبداها علاء الدين محمد من أجل التوسع وفرض السيطرة اضطرته أن يغير النهج الذى رسمه له أبوه علاء الدين تكش فى علاقته بدولة الأتراك الخطا .

وجد خوارزم شاه محمد نفسه مضطرا الى استخدام القوة خاصة وان الالتزامات المالية التى فرضت عليه لدولة الخطا أرهقته ماديا الى جانب رغبته فى استعادة الاقاليم الاسلامية التى استولى عليها الأتراك واعادتها الى الراية الخوارزمية .

ويرى ابن الأثير أن الفرصة لاحت لعلاء الدين محمد عندما بعث اليه سلطان سمرقند وبخارى الملقب « خـان خانان » أى سـلطان السلاطين يشكو اليه ما يعانونه « من أنف وضجر فى تحكم الكفـار على المسلمين »(٤٨) لأنهم ثقلت وطأتهم على أهل البلاد حيث كان لهم فى كل مدينة نائب يجبى لهم الأموال .

---

(٤٧) الغامدى : نفسه ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ نقلا عن الجوزجانى : طبقات ناصرى ، ج ١ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٤٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٩١ حوادث سنة ٦٠٤ هـ .

وقد عرض السلطان التركى عثمان خان على علاء الدين محمد أن ينقذ بلاد المسلمين من الكفار ، ويخلصهم من تحكمهم فى اقدارهم واموالهم ، ووعده بالمساعدة على محاربتهم على أساس « أن يحمل اليك ما نحمله اليهم ويذكر اسمك فى الخطبة والسكة »(٤٩) .

وهناك رأى آخر وهو أن السلطان عثمان حاكم سمرقند تقدم الى سيده الحاكم كورخان وطلب منه يده ابنته ، الا أن كورخان رفض على أساس عدم التكافؤ بينهما ، فثارت ثائره صاحب سمرقند وأراد أن يثير المشاكل ضده انتقاما منه(٥٠) .

لذلك وافق علاء الدين محمد الا أنه أبدى تخوفه من عدم تنفيذ السلطان لوعده ، مما أدى الى قيام سلطان بخارى بارسال وفد من قبله من وجوه أهل بخارى وسمرقند ليكونوا رهينة عنده بعد أن « حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا منه الصدق والثبات على ما بذل »(٥١) . وبعد أن استوثق علاء الدين محمد من أمر سلطان بخارى، ووضع الرهائن تحت سيطرته ، وقرر أن يرتب أمور بلاده قبل أن يتوجه لمحاربة الخطا ، فعين أخاه على على طبرستان ، وعين الأمير كزلك خان على نيسابور ، والأمير جلدك على مدينة الخام والأمير أمين الدين أبا بكر على مدينة زوزن والأمير الحسن على هراة ، واستناب فى مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا ، وبعدها جهز جيشا توجه نحو نهر جيحون حيث وصل الى سمرقند ، فاجتمع هناك مع سلطانهما لتدبير الأمور(٥٢) .

---

(٤٩) نفسـه .

(50) Juwaini «op - cit» vol I, p. 340.

(٥١) ابن الاثير : نفسه ، ص ٢٦١ حوادث سنة ٦٠٤ هـ .

(٥٢) نفسـه .

وصلت أخبار الجيش الخوارزمى الى مسامع الملك الخطائى لذلك استعد استعدادا كبيرا لمواجهة هذا الجيش الذى ضم اليه حلفاءه من سمرقند ، واستمر القتال بينهما طويلاً مما أدى الى هزيمة القوات الخوارزمية المتحالفة ، ووقوع معظم الجنود أسرى فى أيدى الخطا حتى أن علاء الدين محمد وقع هو الاخر أسيرا فى أيديهم ومعه أمير يدعى فلان بن شهاب الدين مسعود(٥٣) .

ولعل انتشار خبر أسر السلطان الخوارزمى ووصوله الى مسامع ولاته أكبر الأثر فى اضطراب الأحوال داخل الدولة الخوارزمية مما سنبحثه فيما بعد .

أما عن مصير علاء الدين محمد ، فقد استمع الى رأى الأمير فلان ابن شهاب الدين الذى عرض عليه أن يشتركا معا فى حيلة ، وهى أن يدعى خوارزمشاه أنه خادم لابن شهاب الدين « فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخفة ويعظمه » .

وقد استطاع هذا الأمير أن يقنع الحارس التابع للخطا بأنه أمير عظيم ، وبدأ الأمير يتحايل على الحارس ، ويفهمه أنه يخف انه بعد عودة القوات المنهزمة ، وعندما يجده الناس معهم يظنون انه قد مات ويستولون على أمواله ، وافهمه بأنه يريد أن يمنحه كمية من هذا المال دون علم السلطات لذلك قرر الحارس على الأمير كمية من المال ، وطلب منه الأمير أن يبعث برجل عاقل الى بلاده ليحضر المال المطلوب ، وذكر له أن الخطا لا يعرفون أهله وانه لا يثق الا فى غلامه « المدعو « علاء الدين محمد واثق به ويصدقه أهلى »(٥٤) ، لذلك وافق الحارس على أن يرسل علاء الدين ، وبذلك نجح خوارزم شاه فى العودة سالما الى بلاده .

---

(٥٣) نفسه ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٥٤) ابن الاثر ، نفسه .

Juwaini «op - cit» vol I, pp. 345—349,

Barthold «op - cit» pp. 355—356

ويعود ابن اثير فيذكر انه بعد عودة خوارزم شاه بفترة أخبر شهاب الدين مسعود الحارس حقيقة شخصية علاء الدين محمد فما كان منه الا أن قال له « لم لا عرفتنى حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه الى مملكته »(٥٥) بل ان الحارس قرر أن يسير مع شهاب الدين لمقابلة خوارزم شاه فى بلاده حيث أكرم وفادته .

الا أن علاقة خوارزم شاه بدولة الخطا لم تتأثر بالهزيمة التى منى بها على أيديهم ، فنراه يكرر الكرة مرة أخرى للهجوم على بلادهم .

وبعد أن نظم أمور خراسان بعد الفوضى التى سادتها عندما شاع خبر أسره وقتله على يد الخطا ، خرج خوارزم شاه عابرا نهر جيحون سنة ٦٠٥ هـ فاستعد الخطا لمهاجمته ، فجمعوا جيشا كبيرا جعلوا على قيادته قائدهم العجوز « بطانيكوه » الا أن الخطا تعرضوا للهزيمة الساحقة على أيدى الخوارزميين ، فقتل منهم « وأسر عدد كبير منهم طابينكوه نفسه ومقدمهم » حيث جئ بهم الى خوارزمشاه « فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره الى خوارزم »(٥٦) .

انساحت القوات الخوارزمية فى قلب بلاد ما وراء النهر « فملكوها مدينة مدينة ، وناحية ناحية » حتى وصلوا الى وزكند فعين بها نواب له ، ورجع الى خوارزم مصطحبا معه سلطان سمرقند حيث

---

(٥٥) ابن الاثير ، نفسه .

(٥٦) ابن الاثير : نفسه . ويخالف الدكتور الغامدى راى ابن الاثير اذ يقول أن طابنكو أعدم فى جرجانية ، وأمر السلطان بالقائه ميتا فى نهر جيحون .

الغامدى : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

نمت المصاهرة بينهما ، فتزوج السلطان السمرقندى ابنة علاء الدين محمد(٥٧) .

عاد سلطان سمرقند الى بلاده محملا بالهدايا ومعه شحنة « جنود عسكريون » تابعة للسلطان الخوارزمى على رأسها ترت أبه وهو من أقرباء والده ، وظل مقيما ببلاده ما يقرب من عام لاحظ خلالها سوء سلوك الخوارزميين مع أهل البلاد ومع حكامها وعدم احترامهم لشعور المواطنين ، لذلك قرر السمرقندى العدول عن محالفة الخوارزميين ، والاتصال بالخطا ، حيث عرض عليهم القدوم لتسلم البلاد من الخوارزميين بل دفع لهم الجزية وتصاهر معهم وتزوج ابنة الملك الخطائى كورخان واهان ابنة خوارزم شاه « وأمر بقتل كل من فى سمرقند من الخوارزمية ممن يسكنها قديما وحديثا ، وأخذ أصحاب خوارزم شاه ، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم فى الأسواق كما يعلق القصاب اللحم » حتى انه وصل به الأمر الى محاولته قتل زوجته ابنة خوارزم شاه الا أنها « أغلقت الأبواب ووقفت بجوارها تمنعه »(٥٨) .

عندما وصلت هذه الأخبار الى خوارزم شاه ثارت ثائرته « وقرر قتل كل من بخوارزم من الغرباء »(٥٩) الا أن أمه نهته عن هذه الأفعال ، لذلك قرر التجهز للخروج الى بلاد ما وراء النهر .

---

(٥٧) هناك رأى آخر يذكر ان تركان خاتون أم السلطان محمد بما لها من نفوذ أوعزت الى ابنها بابقاء السلطان عثمان بخوارزم ، وعدم عودته الى بلاده بعد زواجه من ابنته وذلك اما رغبة فى ضم أراضيه اليهم واما رغبة فى تكريمه طبقا لعاداتهم وتقاليدهم التركية .

عن ذلك انظر :

Juwaini «op - cit» vol II, p. 344.

(٥٨) ابن الاثير ، نفسه .

عبر علاء الدين محمد بجيوش ضخمة نهر جيحون متوجها أولا نحو سمرقند ووجه نداءه الى حاكمها قائلا « قد فعلت ما لم يفعله مسلم ، واستحللت دماء المسلمين » ومع ذلك سامحه على شرط أن يترك البلاد الى حيث يشاء ، فرفض سلطان سمرقند متحديا ، عندئذ أمر علاء الدين محمد قواته بالهجوم على المدينة حتى نجحوا فى اسقاطها « وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند » فاستباحوها ثلاثة أيام بعدها زحفوا على قلعتها ، وقبضوا على صاحبها الذى طلب العفو من خوارزم شاه فرفض وأمر بقتله ، وقام بترتيب ولاياتها ، وعين عليها نوابا من قبله »[٦٠] واتخذ السلطان محمد من سمرقند عاصمة له حتى مجىء المغول •

وفى هذه الآونة نذكر أن أقاليم آسيا الشرقية فى هذه الفترة من التاريخ كانت أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان الى آخر سعيا وراء غنم سياسى أو ثروة مادية على حساب بعضها البعض ، ولم يكن هناك من طريقة لانهاء هذه الفوضى الا على يد زعيم قوى يظهر من بين هذه القبائل فيستطيع أن يلم شملها ، ولم يكن هذا الزعيم الا « تيموجين » جنكيزخان فيما بعد الذى ركز جهوده لتوحيد هذه القوى المتعادية المتنافرة التى تخضع للسلطان[٦١] •

سقوط دولة القراخطائيين نهائيا :

لعل سقوط سمرقند فى يد خوارزم شاه ، ووقوعها فى يد السلطان علاء الدين أكبر الأثر فى بداية النهاية للقراخطائيين الذين بدأ العد التنازلى لدولتهم •

---

(٥٩) نفسه ، ص ٢٩٥ •

(٦٠) نفسه •

(٦١) حافظ حمدى : المرجع السابق ، ص ٦٣ •

وقد أوضحت أن هناك قوه جديدة بدأت تظهر على الحدود الخوارزمية سيكون لها وزنها فى تاريخ آسيا الوسطى ، وسنعنى تفصيليا بدراستها ولسنا فى حاجة الى ذكرها الآن وهى قبيلة المغول الذين تمكن زعيمهم جنكيزخان « تيموجين » من بسط سيطرته على جميع القبائل المغولية مثل الكرايت والنايمان وكون منها حكومة واحدة ، وحارب حكام امبراطورية كين فى الصين الشمالية سنة ٦٠٨ ه حتى سنة ٦١٢ ه(٦٢) .

ويهمنا الآن بعد أن هزم جنكيزخان قبائل النايمان ، وقضى على تايانك خان فر ابنه كوشلو خان فى جمع من اتباعه وقد تعرض أثناء فراره وجولاته لمتاعب عديدة ، ووقع فى الضيق والعوز ، وتفرق الجمع الذى كان يصاحبه ، ويقال ان الجنود القراخطائيين اعتقلوه وحملوه الى ملكهم كورخان ، وتقول رواية أخرى أن كوشلو لجأ الى كورخان ، وصار محتجزا عنده مدة من الزمن(٦٣) .

وعندما حدث الخلاف بين الخوارزميين والخطا قام كوشلوخان بالايعاز الى كورخان بأنه يستطيع أن يجمع اتباعه المشتتين فى نواحى ايميل وقياليغ وبيش باليغ ويكون جيشا كبيرا يقف الى جانب كورخان ضد مطامع خوارزم شاه .

اقتنع كورخان بهذه الفكرة ، فقام الزعيم الفار بجمع جنوده واتباعه حتى كون عصبية قوية ، وحاول أن يظهر لكورخان انه تابع مخلص له ، الا أنه عندما شعر بضعفه صمم على الغدر به(٦٤) .

---

(٦٢) عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٥٣ — ٥٤ .

(٦٣) نفســه .

(٦٤) نفســه .

Lamb : Genghis Khan. p. 110.

D'ohsson «Histoire des mo..gols» T. I, p 169.

وقد قام بتدبير خطة يستطيع عن طريقها الوصـــول الى العرش ، فبدأ أولا بانتهاز فرصة الخلاف بين الخطا والخوارزميين ، فعـــرض تحالفه على علاء الدين محمد ، متفقا معه على ازالة هذه الدولة واقتسامها بينهما ، وقد أرسل اليه رسالة يقول فيها « ان هؤلاء الخطا أعداؤك ، وأعداء آبائك واعداؤنا فساعدنا عليهم ، ونحلف اننا اذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التى ينزلونها »(٦٥) .

وفى نفس الوقت قام ملك الخطا بالاتصال بخوارزم شاه مزينا له فكرة التحالف معهم ضد كشلوخان وقال له « أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد أتى من هذا العدو ما لا قبل لنا به وانهم وان انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير الينا بعساكرك ، وتنصرنا على قتالهم ، ونحن نحلف لك اننا اذا ظفرنا بهم لا نتعرض الى ما أخذت من البلاد ونقنع بما فى أيدينا »(٦٦) .

لذلك انتهز علاء الدين خوارزم شاه حاجة كل من الفريقين اليه فعمل على أن يظهر لكلاهما أنه معه ، وسارت القوتان المتعاديتان بعد ذلك كل لمحاربة الأخرى ، وكل منهما يظن أن الجيوش الخوارزمية فى جانبه ، أما علاء الدين خوارزمشاه فقد وقف بين هاتين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة احداهما على الأخرى لينضم الى القوة المنتصرة(٦٧) . وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية جاءت لتوءازره(٦٨) .

اشتعلت الحرب بين الخطا والتتر ، وأسفرت عن هزيمة ساحقة لكورخان وجنوده الخطا ، وانتصار كشلوخان التترى الهارب ، لذلك

---

(٦٥) ابن الاثير ، نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ .

(٦٦) نفســـه .

(67) Lamb . «op - cit» p. 110 — 111.

(٦٨) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ، ص ١٦ .

انضم علاء الدين محمد الى جانب كشلو .« وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم ، الا طائفة يسيرة مع ملكهم فى موضع من نواحى الترك »[٦٩] .

وبذلك نجح كشلوخان فى اعتلاء عرش دولة . الخطا . وان الاثار الهامة التى نتجت عن تدمير القراخطائيين كانت غاية فى الأهمية بالنسبة للعالم الاسلامى ، وذات ابعاد خطيره على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الاسلامى عامة . وذلك لأن أملاك كشلوخان جاورت أمـلاك الخوارزميين مما جعل السلطان علاء الدين محمد فى موقف لا يحسد عليه ، فان كشلوخان فار من وجه جنكيزخان ، ولابد أن تنشب معركة مصيرية ، فوجهت انظار جنكيزخان نحو الاقاليم القريبة من آسـيا حيث دولـة كشلوخـان عدوه القديم[٧٠] . ولذلك قـام كشلوخـان بتوسيع دولته على حساب القوى المجاورة ، فاخضع كثيرا من القبائل المجاورة ، ومد سلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية ، دون أن يعوقه عائق[٧١] .

لم يحترم كشلوخان الشعور الدينى للسكان فى دولته ، اذ حاولت زوجته المسيحية نشر دينها ، كما أخذ هو يعمل على نشر الديانة البوذية التى كان يعتنقها على حساب الأهالى من المسلمين ، فلا عجب اذا جلبت هذه السياسة عداوتهم[٧٢] .

---

(٦٩) ابن الاثير ، نفسه ، جـ ٩ ، ص ٢٩٥ ،
Lamb «op - cit» p. 110.

(٧٠) مرخواند : روضة الصفا ، جـ ٥ ، ص ٦٩ — ٧١ .
(71) Juwaini «ip - cit» vol II, p. 370

(٧٢) حافظ حمدى : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

كان السكان فى كاشغر خوتان من بلاد الخطائيين قد تمردوا عليه فأرسل جيوشه أولا الى كاشغر فى وقت حصاد الغلات فكان الجنود يستولون على المحصول ويأكلون ويحرقون وينهبون فارتفعت أثمان الحاجيات وتعذرت الأقوات ، وحدثت مجاعة هلك بسببها كثير من الأهالى، ولكن الغاصب المحتل كان يغدق على السكان البوذيين ويعطيهم كل ما يطلبون ، ولا يستطيع أحد أن يمنعه من هذا الظلم الصارخ ، والتفرقة غير المشروعة فى المعاملة — ولعل ما حدث فى خوتان كان من أبشع ما تصفه الاقلام حيث أمر الناس بالارتداد عن الاسلام ؛ اما للمسيحية أو للبوذية أو أن يتزيوا بزى الخطائيين ، فكان المسلمون يرتضون الحل الأخير مضطرين(٧٣) .

أما من موقف علاء الدين خوارزم شاه الذى قدم يد المساعدة للخطا ، فقد بعث الى كشلوخان يبين له أن النصر الذى أحرزه الخطا كان بفضل الخوارزميين ، فأيده على ذلك كشلو الا أن علاء الدين ما لبث أن كرر مراسلته لكشلو وطلب منه مقاسمته لنصف أملاك دولة الخطا وقال له « اننا اتفقنا على ابادتهم وينبغى أن نقسم بلادهم »(٧٤) .

لذلك رفض كشلوخان وهدده بالحرب حتى انه تجهز فعلا لملاقاة علاء الدين محمد الخوارزمى . وخرج الى حدوده . لذلك تأكد علاء الدين « أنه لا طاقة له به »(٧٥) لذا اقتصرت عملياته ضده على شن هجمات خاصة على أرض الخطا ، تلك الهجمات التى لا تتعدى السلب والنهب حتى أن كشلو خان أرسل اليه يقول « ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص »(٧٦) .

---

(٧٣) الصياد : المغول فى التاريخ ، ص ٥٦ .

(٧٤) ابن الاثير : نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٧٥) نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٧٦) نفسه ، ٢٩٦ .

وقد أفرد النسوى رواية تبين أن السلطان الخوارزمى أرسل أيضا لكشلوخان يطلب منه أن يسلمه كورخان خان الخطا المهزوم ، وذلك لأنه كانت هناك اتفاقية من قبل بين علاء الدين محمد وكورخان على أن يزوجه ابنته طوغاج خاتون،كما أنه رفض أن يقع كورخان أسيرا فى يد كشلوخان ومن قوله « أحين أصبح كسيرا يؤخذ أسيرا ، فان أردت السلامة فى نفسك وذويك ، فشأنك أن تسره الى ببنته وخزائنه ، وأمواله وأشياعه ، والا قد جئتك بما لا يغنبه منه الا حد حسام وثبات المقام » [٧٧] .

وقد رد كشلوخان على السلطان الخوارزمى ردا لطيفا رفض فيه تسليم كورخان لأن الأخير تذلل وتضرع اليه ألا يسلمه لعلاء الدين محمد بحجة أن الخوارزميين كانوا طوال التاريخ يدفعون الجزية والأموال للدولة الخطائية ، وكانو يرهبون جانبها ، وانه عندما قوى شأن علاء الدين محمد، وبدأ فى منازلة الخطا ، تنازل كورخان فى هذه الفترة ووافق على أن يزوج ابنته من علاء الدين محمد ، وحيث أنه قد هزم فعلاً ، لذلك استعطف كشلوخان على ألا يسلم ابنته ولا يسلمه هو شخصيا الى السلطان الخوارزمى[٧٨] ، وقد بعث علاء الدين رسله الى كشلو مجددا مطلبه ومشددا فيه حتى قام كشلو بالقبض عليه وتقييده[٧٩] .

لذلك احتدم الصراع بين الخوارزميين وكشلوخان حتى أن الأخير هددهم بغزو أراضيهم ، وفعلا تجهز لذلك . الا أنه لم يتمكن من تحقيق غرضه لوصول القوات المغولية الى حدود بلاده ، وهذا ما سنوضحه تفصيليا فيما بعد .

---

(٧٧) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٤٠ .

(٧٨) النسوى ، المصدر نفسه .

(٧٩) النسوى ، المصدر نفسه .

النزاع بين السلطان علاء الدين محمد والخلافة العباسية حول العراق العجمى :

حاولت الخلافة العباسية كما رأينا فى عهد هؤلاء السلاطين الغزنويين أن تفرض نفوذها على منطقة العراق العجمى ، خاصة بعد سقوط قوة السلاجقة الأتراك ، وقد بذل الخليفة الناصر لدين الله جهودا مكثفة فى سبيل استعادة النفوذ الروحى للخلافة العباسية •

ولقد تصدى علاء الدين محمد خوارزمشاه لمحاولات الخلافة العباسية الاستيلاء عل بلاد الجبل ، وأراد أن يستعيد نفوذه القديم عليها وأن يقضى على نفوذ الأتابكة التابعين لبيت البهلوان الذين كانوا يتظاهرون بولائهم للخلافة العباسية الا انهم كانوا يعملون فى الظاهر للاستقلال •

وقد ذكرنا أن نور الدين كوكجة كان حاكما على الرى وهمذان وبلاد الجبل ، وقد استمر حاكما حتى سنة ٦٠٠ هـ[٨٠] •

وقد قام كوكجه بالاستعانة بأحد مماليك ابن البهلوان ويدعى أيتغمش « فقدمه وأحسن اليه ووثق به » الا أن أيتغمش لم يحفظ له الجميل بل خرج عليه وحاربه وقتل كوكجة على يديه •

واستولى ايتغمش بعدها على أملاك كوكجه وأقره بن البهلوان على ما استولى عليه •

وقد لاحت الظروف لايتغميش لأن تتسع ممتلكاته وذلك حينما تحالف علاء الدين صاحب مراغة ، ومظفر الدين كوكبرى صاحب اربل من أجل الاستيلاء على أذربيجان من الأتابك أبى بكر بن البهلوان « لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر فى أحوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا »[٨١] •

---

(٨٠) ابن الاثر : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦٥ ، حوادث سنة ٦٠٠ هـ .
(٨١) نفسه ، ص ٢٨٢ ، حوادث سنة ٦٠٢ هـ .

وقد استعان ابو بكر البهلوان بأيتغمش الذى تصدى لهؤلاء ونجح فى أن يستولى على أقاليم من أملاكمها .

كما نجح أيتغمش أيضا فى مهاجمة قلاع الاسماعيلية المجاورة لقزوين « فقتل منهم مقتلة ، ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر آلموت »(٨٢) .

ولم يتوان أيتغمش على صد هجمات قام بها الخوارزميون على منطقة زنكان فكانت جيوشهم تقدر بحوالى عشرة آلاف فارس الا ان ايتغمش هزمهم « وأخذهم بالسيف فقتل منهم وأسر خلق كثير (٨٣) .

وبذلك ارتفع نجم أيتغمش ، وذاع صيته حتى عام ستمائة وثمانين، الا انه تعرض فى هذا العام لقيام أحد المماليك المدعو ناصر الدين منكلى وهو من أتابكة محمد بن البهلوان ، لذلك هرب أيتغمش الى بغـــداد فاستقبله الخليفة استقبالا طيبا ، وبقى فى بغداد حتى العام التـــالى حيث وصل الى بغداد محمد بن منكلى مبعوثا من قبل أبيه من بلاد الجبل، من أجل أن يتأكد من موقف الخليفة الناصر مع أيتغمش ومحاولة مساعدته للعودة الى بلاد الجبل واستردادها من متوليها منكلى(٨٤) .

ومن ناحية أخرى حاول منكلى أن يبعث ابنه الى الخليفة ليبين له حقيقة موقفه من الخلافة ، ويشرح له أسباب طرده لايتغمش واستيلائه على هذه البلاد .

---

(٨٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٨٢ حوادث سنة ٦٠٢ هـ .
آلموت : كلمة ديلمية معناها المكان الذى أرشد عليه العقاب .
محمد اقبال : تاريخ ايران ، حاشية ١٦٥ . وتعتبر آلموت هى مركز لشيخ الجبل زعيم الباطنية فى فارس وتقع بجوار مدينة الطالقان .

(٨٣) ابن الاثير ، نفسه . ؟

(٨٤) نفســه ، ص ٣٠٦ حوادث سنة ٦٠٩ هـ .

وقد ظل هذا الوفد مقيما ببغداد حتى مقتل أيتغمش فى سنة ٦١٠ هـ أى أنه بقى فى بغداد من المحرم سنة ٦٠٩ هـ الى مقتل أيتغمش فى سنة ٦١٠ هـ وربما أن الخليفة الناصر محمد قد ترك هذا الوفد مقيما ببغداد حتى يرى ما ستسفر عنه الأحداث فيما بعد .

فقد كان الخليفة قد أمر أيتغمش بالتوجه صوب همذان ، ويتضح مما ذكره ابن الأثير أن الخليفة قد « أنعم عليه وشرفه بالخلع » ووعده بارسال نجدة عسكرية اليه لمساعدته ، لذلك انتظر أيتغمش فى بلاد ابن ترحم زعيم التركمان الايوانية بالعراق فترة حتى تصله الامدادات . الا أن الظروف السياسية تغيرت . حيث قام الخليفة الناصر بعزل سليمان ابن ترحم عن ولاية التركمان الايوانية وولى بدلا منه أخاه الأصغر لذلك قام سليمان بالاتصال بمنكلى ، وبين له وضع أيتغمش وانه موجـود طرفهم ، لذلك دبر أمر مقتله مع التركمان فقتلوه وحملوا رأسـه الى منكلى[٨٥] ، الذى قويت شوكته وأصبح مسيطرا على ما بيديه من بلاد فى الوقت الذى أساء هذا العمل الى الخليفة الناصر لدين الله .

لم ينعم منكلى بالسلطة طويلا ، فلم يلبث فيها الا أقل من عامين حيث تحالف الخليفة العباسى ضده مع أزبك ابن البهلوان حاكم أذربيجان كما تحالف مع جلال الدين حسن شيخ الجبل الباطنى[٨٦] ومظفر الدين

---

(٨٥) ابن الاثير : نفسه ، حوادث سنة ٦١٠ ، ص ٢٠٧ .

(٨٦) نتعجب من تحالف الخلافة العباسية السنية مع شيخ الجبـل الباطنى الا انه خلال هذه الفترة حاول الباطنية فى فارس اقناع الخـلافة العباسية بأنهم قد أبطلوا المذهب الشيعى فى قلعة آلموت ، والواضح أن هذه حيلة ومحاولة ابتدعوها لكى يصرفوا الخلافة العباسية عن محالفـة الزعامة الاسلامية ، وكذلك ربما أن هذه حيلة ابتدعوها لم نصل الى مكنونها وحقيقتها .

ولقد أرسلوا الى دار الخلافة رسالة من الكيا جلال الدين حسن صاحب

=

كوكبرى بن زين الدين على جوجك حاكم اربل وشهرزور الذى جند البه كثيرا من المرتزقة من الموصل وديار بكر وحلب وجعل القيــادة لملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وقبل المعركة اتفق الحلفاء على أساس « أن يكون للخليفة « بعض البلاد ، لأوزبك وبعضها يعـــطى لجلال الدين »(٨٧) .

وقد أشار الجوينى فى تاريخ « جهانكشاى » عن سفارة جلال الدين حسن الى الخليفة العباسى ، فقد طلب من الخليفة المساعدة العسكرية ضد منكلى ، وطالب أعضاء الوفد الخلافة سرعة التدخل فى شـــئون منطقة الجبــل الداخليــة ، خاصة بعد قيــام منكلى بالاعتــداء على أراضــيهم(٨٨) .

وقد أسهب ابن الأثير فى شرح الظروف التى نجح بها الحلفاء فى القضاء على منكلى ، وتمكنهم من قتله ، وقاموا بتولية آغلمش الذى كان مقيما طرف علاء الدين محمد خوارزمشاه ، الا أنه ترك بلاده ، وخرج لمحالفة الخلافة(٨٩) .

=

آلموت يخبره بانهم تبرعوا من الباطنية وقاموا ببناء المساجد وأقاموا صلوات الجمعة والجماعة هناك حتى انهم صلوا صلاة التراويح فى رمضان .

عفاف صبرة : دراسات فى تاريخ الحروب الصــليبية ، ص ٢١٦ حتى أن الخليفة سر بذلك لأن والدة جلال الدين حسن وصلت الى دار الخلافة متوجهة الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فعاملتها الخلافة معاملة تليق بها .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢١٠ حوادث سنة ٦٠٨ هـ .

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٠٣ حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

(٨٧) ابن الاثير : نفسه ، ص ٣٠٩ حوادث سنة ٦١٢ هـ .

(88) Boyle. J. A. «Studies on the Tarikh Jahan. Gush of Juvayni» p. 701.

(٨٩) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، تحقيق حافظ حمدى ،

ون هنا يبدأ ظهور القوة الخوارزمية على مسرح الأحداث مرة أخرى لتبرز بعد ذلك حتى تمكنها من الاستيلاء على بلاد الجبل .

ولقد تطورت الأحداث حتى أن أغلمش رفض الطاعة لأزبك البهلوان ، وقرر أن يعلن طاعته للسلطان محمد خوارزمشاه صاحب نعمته الأول . وظل كذلك الى أن أغتيل .

ويرجع النسوى سبب اغتياله الى أنه كان يجلس للقاء الحجاج القادمين من أداء الحج ، فقفزوا عليه فى زى الحاج وانقطعت حينئذ خطبة السلطان بالعراق » [٩٠] ، وبنسب قتله الى أحد الاسماعيلية الباطنية الذين كانوا حلفاء للخليفة العباسى فى هذه الآونة كما ذكرنا .

والحقيقة أن علاء الدين محمد الخوارزمى اتخذ من هذا الحادث سببا فى فرض سلطانه الرسمى على بلاد الجبل ، بل والوقوف أمام الخلافة العباسية ، ومحاولة الاجهاز عليها فى عقر دارها حتى يخطب لعلاء الدين على منابر بغداد[٩١] .

وكان أن بدأ الأمر من جانب أزبك البلهوان صاحب أذربيجان ، وسعد بن زكلا صاحب فارس اللذان انتهزا فرصة مقتل أغلمش وقررا الاغارة على العراق العجمى فنهضا من جهتيمها اغتناما لفرصة خلوها عمن يحميها ويقيم كلمة الدعوة فيها »[٩٢] .

كان السلطان محمد الخوارزمى قد انتهى فى هذه الآونة من محاربة الأتراك الخطا والغوريون ، ولذلك وجه كل همة نحو جبهة العراق العجمى والعربى أى الى الخلافة العباسية ذاتها ، وأسفر عن وجهته تجاهها .

---

(٩٣) النسوى : سيرة السلطان ، ص ٥٢ .

(٩١) النسوى : ص ٥١ ، ابن الاثير : ص ٣١٣ حوادث سنة ٦١٤هـ .

(٩٢) نفسه ، ص ٥٣

وقد بدأ أزبك بالاتجاه الى أصفهان « على مواطأة من أهلها » وتوجه سعد الى الرى ومنها الى قزوين وخوار[٩٣] ، وسمنان[٩٤] .

فى هذه الاونة كان السلطان محمد خوارزمشاه مازال فى سمرقند وما أن وصلته هذه الأخبار حتى جهز جيوشا جرارة تربو على مائة ألف فارس كان معظمهم من الفرس — العلويين الذين رعوا فى ذلك فرصة للوصول للحكم[٩٥] . وتوجه ناحية قومس ، وهناك وصلت طلائع الجيش ناحية الرى ، وتم التحامها مع قوات سعد ، وانتصروا عليهم انتصارا ساحقا وتم تسليم سعد الى السلطان محمد خوارزمشاه ، « فأكرمه ووعده الاحسان والجميل وأمنه على نفسه »[٩٦] على أساس أن يسلم البلاد الى خوارزمشاه .

اتجه خوارزمشاه بعد ذلك الى قزوين وزنجان وأبهر ، ومنهم الى همدان حيث بلغه « وهو على مسيرة يوم من همذان أن السلطان بها يرتقب أخباره » لذلك استشار أصحابه فأشاروا عليه بالعودة الى أصفهان أو أذربيجان أو قلعة تبريز . وأخيرا قرر أزبك الاتجاه الى أذربيجان ، وبعث الى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه يعتذر له « عن دنس العصيان ، وتخيل ما صدر منه على وساوس الشيطان »[٩٧] وبذلك تم

---

(٩٣) خوار مدينة بالقرب من الرى .
ياقوت : ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

(٩٤) سمنان بين الرى ودامغان ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

(٩٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٥٤ .
ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٣١٣ حوادث سنة ٦١٤ هـ .
D'ohsson. op. cit., p. 109.

(96) Minorsky «The Turcs, Iran and Cau cacus in the middle ages». p. 36.

(٩٧) النسوى ، ص ٥٥ .

الاتفاق بين السلطان خوارزمشاه وبين أزبك البهلوان على « أن يخطب له أزبك فى بلاده ويدخل فى طاعته »[٩٨] •

وقد أكد النسوى وابن الأثير والجوينى على أن السلطن خوارزمشاه لم يف بعهده مع سعد بن دكلا •• وبعد أن أعطاه الأمان كما رأينا زوجه من امرأة من أهل بيت والدته تركان خاتون وشرط عليه أن يحمل كل سنة الى الخزانة السلطانية من بلاده ثلث الخراج[٩٩] الى أنه حين وصل الى قاعدة ملكه منعه ابنه أبو بكر ، ورفض أن يسلم الملك اليه ، وجمع جنوده وجابه أباه عسكريا ، الا أن الجنود انحازوا الى أبيه سعد « وتركوا ابنه فى خصاصته »[١٠٠] لذلك هزم الابن ودخل سعد البلاد وامتلكها ، ومع ذلك فان علاء الدين خوارزمشاه ما لبث أن غدر بالأمير سعد وقتله •

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه والخليفة الناصر لدين الله •

حكم السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ما يقرب من نيف وعشرين سنة ٥٩٦ — ٦١٧ هـ / ١١٩٩ — ١٢٢٠ م • وكانت علاقته بالخلافة العباسية خلال النصف الأول من مدة حكمة حسنة على وجه العموم • ولعل السبب فى ذلك يعود الى انشغاله بمشاكله الكثيرة داخل دولته وحروبه مع الغوريين والخطا ، فلم يرغب الدخول فى عداء سافر مع الخلافة العباسية بل على العكس من ذلك نجد أن الجانبين تبادلا الرسل بهدف تحسين علاقتهما[١٠١] •

فمن الرسل الذين قدموا من عند خوارزم شاه علاء الدين محمد الى الخلافة العباسية مرارا وزيره ابن الاصباغى المتوفى فى ذى الحجة

---

(٩٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩، ص ٣١٣ حوادث سنة ٦١٤ هـ •

(٩٩) النسوى ، ص ٦٢ •

(١٠٠) ابن الاثير ، نفسه حوادث سنة ٦١٤ هـ •

(١٠١) العبود : الدولة الخوارزمية ، ص ٩١ •

سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م ، « وكان يحترم ويبالغ فى الانعام عليه لما كان يعلمه من فضله وموالته للدولة العباسية »[١٠٢] .

كما أنفذ الخليفة العباس الناصر لدين الله سنة ٥٧٥/٦٢٢ هـ — ١١٧٩/١٢٢٠ م من جانبه الى خوارزم شاه علاء الدين محمد فى المحرم من سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م فخر الدين ابن الشيخ مجد الدين يحيى ابن الربيع مدرس المدرسة النظامية كما أرسل الخليفة الناصر لدين الله الى خوارزم شاه رسولا آخر هو نصر بن أسعد الخراقى المعروف بابن الأصيل المتوفى سنة ٦٠٣ هـ الذى كان قد تولى ديوان العرض فى رسائل الى خوارزم مرارا[١٠٣] .

وفى رمضان سنة ٦٠٢ هـ وصل الى بغداد نظام الدين محمـــد عبد الكريم السمعانى رسولا من خوارزم شاه علاء الدين محمد وتلقى بموكب الديوان العزيز ولكنه « أنزل بباب النوبى الشريف ، ليقبل العتبة فامتنع عن ذلك ، فأهين وألزم بتقبيلها مكرها »[١٠٤] .

وقد بقى نظام الدين المذكور فى بغداد وطلب فى العشرين من ذى القعدة من السنة المذكورة أن يؤذن له بالجلوس للوعظ بباب بدر الشريف فأذن له فجلس وحضره الخلق الكثير وأحسن الكـــلام وأجاد الوعظ وبالغ فى الثناء على البيت الشريف العباسى ، وأكثر من الدعاء للخدمة الشريفة الناصرية »[١٠٥] .

---

(١٠٢) نفسه ، نقلا عن ابن الساعى : الجـــامع المختصر ، ج ٩ ، ص ١٣٩ .

(١٠٣) نفسه ، ص ١٤٣ .
العبود ، ص ٩١ .

(١٠٤) العبود : نقلا عن الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(١٠٥) نفســـه .

كما أرسل الخليفة الناصر لدين الله فى سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م العماد جبريل المصرى الى خوارزم شاه وعاد الى بغداد فى التاسع عشر من ربيع الآخر ى سنة ٦٠٥ هـ[١٠٦] .

وفى نفس السنة سنة ٦٠٥ هـ وصل رسول من خوارزمشاه الى بغداد « وتلقاه الموكب الشريف الديوانى ، وفى ثانى جمادى الأولى جلس نائب الوزارة ابن أمسينا بالديوان العزيز ، وأحضر الرسول المذكور فأدى رسالته وعرض ما صحبه وسأل قبوله فقبل منه ، وأنزل بالمدرسة الثقبية بباب الأزج ، وفى عاشره خلع عليه واذن له فى العودة الى مرسله »[١٠٧] .

الا أن هذه العلاقة الطيبة لم تلبث أن تبدلت وتغيرت بتغير الأهداف والأطماع .

وان نظرة تاريخية دقيقة الى الوراء لتبين لنا حقيقة هامة وهى أن الخوارزميين قد وسعوا بلادهم على حساب الدولة السلجوقية فى فارس حتى اذا ما قدر لهم أن يزيلوا عرشهم ويؤسسوا لأنفسهم دولة على أنقاضهم أخذوا بعد ذلك يوسعون سلطانهم على حساب القوى المجاورة لهم وهى دولة الخطا فى الشرق والدولة الغورية فى الجنوب والدولة العباسية فى الغرب[١٠٨] .

ولابد أن تتضح لنا حقيقة أخرى وهى أن أطماع الخوارزميين فى الحلول محل السلاجقة فى بغداد لم يكن وليد عصر علاء الدين خوارزمشاه محمد ، وانما اتضح منذ عهد أبيه علاء الدين تكش . فقد ادعوا أحقيتهم فى هذه البلاد وطلبوا السيطرة على بغداد واحلال

---

(١٠٦) نفسه ، ص ٢٦٢

(١٠٧) نفسه .

(١٠٨) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٣٠ .

اسمهم محل أسلافهم السلاجقة فى خطبة الجمعة ، ونقش اسمهم الى جوار اسم الخليفة على السكة ، وطلب تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة فى بغداد الى ما كانت عليه أيام السلاجقة ، حتى اذا ما حضر الى بغداد وخلعت عليه السلطنة ، أقام فى هذه الدار ، وأصبح « الخليفة من تحت يده »[١٠٩].

والواقع أن علاء الدين محمد خوارزمشاه سار على نفس هذه السياسة بعد أن أظهر الود كما رأينا فى بادىء الأمر ، لكنه أسفر عن وجهه الحقيقى ، وعن سياسة أسلافه التوسعية ازاء الخلافة العباسية .

وقد بدأ تنفيذ سياسته هذه بعد قيامه بالاستيلاء على أراضى الغوريين ، والخطا والعراق العجمى كما ذكرنا آنفا .

ولابد أن نعلل الاسباب الظاهرية التى ابداها السلطان علاء الدين محمد لمهاجمة الخلافة .

أولا : أراد علاء الدين محمد خوارزمشاه أن يحقق سياسة آبائه واجداده وهى اقامة الخطبة للخوارزميين على منابر بغداد ، لذلك لا نعجب اذا علمنا أن علاء الدين أرسل أحد رجاله المقربين وهو القاضى مجد الدين عمر بن سعد الخوارزمى الى بغداد غير مرة يطالب بحق الخوارزميين فى اقامة الخطبة لهم ببغداد ، وكتب الى الخليفة العباسى يقول « كن معى كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب أرسلان وملكشاه ، واقربهم لنا عهدا السلطان سنجر فيكون أمر بغداد والعراق لى ، ولا يكون لك الا الخطبة »[١١٠] فأبى العباسيون ذاك وانكروه ، وقالوا أن الظروف هى التى أدت الى تحكم السلاجقة فى بغداد

---

(١٠٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

(١١٠) السبكى : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

وقت أن كانت الخلافة فى حاجة الى مساعدتهم ، وأعلنوا أن الخلافة لن تقبل أن يتحكم فيها المتحكمون[111] لعلمهم بما بين يديه من الشواغل بما وراء النهر وبلاد الترك[112] .

وقد صحب مجد الدين الخوارزمى عند عودته الشيخ شهاب الدين السهروردى « رسولا مدافعا ، وواعظا وازعا عما كان يلتمسه السلطان »[113] الا أن سفارته لم تفلح فى اقناع خوارزمشاه خاصة وان الخليفة العباسى استهان بالسبيل الذى كان للسلطان حسن شيخ الجبل الباطنى[114] .

كما أن السلطان الخوارزمى أبلغ الشيخ السهروردى أنه لم يؤذ أحدا من بنى العباس ، ومع ذلك فقد علم أن الخليفة العباسى قد أودع عددا كبيرا من الأتراك فى الحبس ، فأساءه ذلك لأنه تركى ورد على الشيخ السهروردى بأن عليه أن يذكر حديثه لأمير المؤمنين عله يكون أولى وأنفع ، وقد حاول السهروردى الدفاع عن الخليفة وتبرير تصرفاته[115] .

وقد وصف السهروردى مقابلته لعلاء الدين بقوله « استدعانى فأتيت الى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر فى الدنيا مثله وفى « الدهليز

---

(١١١) حافظ حمدى : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(١١٢) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٤٩ .

(١١٣) نفسه ، ص ٥١ .

(١١٣) نفسه ، ص ٥١ .

(١١٤) نفسه ، ص ٥١ والسبيل هو القافلة ، والحجاج التابعين لحاكم ما تكون مصحوبة بعلم وامير ولوازم ما يحتاج اليه الحجاج الى بيت الله الحرام من طعام وشراب وزكاة واموال للنفقة فى سبيل الله فى الأراضى المقدسة .

انظر الفاردى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم صاحب همذان واصبهان والرى وغيرهم فدخلنا الى خيمة أخرى وفى دهليز ملوك خراسان « مرو » « دهليزها كذلك ثلاث خيام ثم استطرد شهاب الدين فى وصف علاء الدين فقال : هو صبى له شعرات قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخارى يساوى خمسة دراهم وعلى رأسه قطعة من جلد تساوى درهما فسلمت عليه فلم يرد ولا أمرنى بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بنى العباس ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين والترجمان يعيد عليه قولى فلما فرغت قال للترجمان : قل له هذا الذى وصفته ما هو فى بغداد ؛ قلت : نعم ؛ قال : أنا أجىء واقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف ، ثم ردنا بغير جواب »(١١٦) .

والواقع أنه بالنسبة لتقديم الخليفة الناصر لدين الله لسبيل جلال الدين حسن ، فيبدو أنه من قبيل الدعاية والتشجيع لصاحب الاسماعيلية ؛ وذلك بمعاملته معاملة خاصة اكراما وتقديرا له ولأتباعه لأنهم نبذو ولأول مرة فى تاريخ هذه الطائفة معتقداتهم الدينية الى المذهب السنى ، فاذا قام الخليفة العباسى بتقديم قافلتهم على أصحاب السلطان الخوارزمى ، فان ذلك لأن الناصر أراد أن يجعل اعتناقهم للمذهب السنى مشهورا ومعلوما على نطاق واسع بين الناس . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فقد كانت قافلة صاحب الاسماعيلية ضمن حجاج أهل العراق أى ضمن قافلة الخليفة نفسه(١١٧) .

ثانيا : حاول السلطان علاء الدين محمد أن يختلق الأسباب لمعاداة الخلافة العباسية ؛ ومنها أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد خطب لولده الظاهر بأمر الله بولاية العهد فى صفر سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، لكنه أسقط الخطبة له فى جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ بحجة عجزه عن

---

(١١٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .
(١١٧) الغامدى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

القيام بولاية العهد ، فلما اسقطت خطبته فى سائر الافاق رفض خوارزم شاه اسقاطها ، وقال « قد صح عندى توليته ، ولم يثبت عندى موجب عزله وجعل ذلك حجة لطروق العراق بالعساكر ليرد خطبته »(١١٨) .

ثالثا : قام علاء الدين محمد بتأييد بعض حركات التمرد والعصيان ضد الخلافة العباسية ، فعندما عصى بعض مماليك الديوان « ديوان الخلافة » فى سنة ٦٠٨ هـ واستجاروا به اعانهم على عصيانهم ولكن الخليفة الناصر لدين الله أرسل الى مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل يعرفه ذلك واستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره فتمكن من قمع ذلك التمرد(١١٩) .

رابعـا : اكتشاف علاء الدين خوارزمشـاه محمد وثائـق فى دار محفوظات مدينة غزنة ، وبعد انتصاره على الغوريين سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م تفيد وجود مراسلات بين الخليفة الناصر لدين الله الى ملوك الغورية يحرضهم فيها على ضرورة مهاجمـة الخوارزميين ، لذلك لبى الغوريون نداءه وحاربوا خوارزمشاه كما سبق أن ذكرنا(١٢٠) .

خامسا : وجد خوارزمشاه رسائل أخرى فيها تحريض من الخليفة الناصر لدين الله الى الأتراك الخطا يحرضهم على مهاجمة الخوارزميين بل ويعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد الاسلامية التى يقتطعونها لأنفسهم من البلاد الخوارزمية ، كما أرسل اليهم الهدايا والخلع عربونا لصداقته وليس أدل على ذلك من الكتاب الذى أرسله جلال الدين منكبرتى بن

---

(١١٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦٩ حوادث سنة ٦٠١ هـ .

(١١٩) العبود : نفسه ، ص ٩٦ نقلا عن الحموى : التاريخ المظفرى ، ص ٢٧١ .

(120) D'ohsson. «Histoire des mongols» vol I, p. 185
Juwaini «op - cit», p. 97.
خواندمير : حبيب السير ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ .

علاء الدين خوارزم شاه الى المعظم عيسى صاحب دمشق يحرضه فيه على غزو أملاك الخلافة ، فقد جاء فى هذا الكتاب ما يلى :

« تحضر أنت ومن عاهدنى فنتفق حتى نقصد الخليفة ، انه كان السبب فى هلاك المسلمين وفى هلاك أبى وفى مجىء الكفار الى البلاد ، ووجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعى لهم بالبلاد والخلع والخيل » (١٢١) .

سادسا : اعتقد خوارزم شاه محمد بأن الخليفة الناصر كان هو المحرض الأول لسعد بن دكا أتابك فارس واوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان على الاستيلاء على العراق العجمى لذلك رأينا جهود علاء الدين محمد فى سبيل استعادة هذه المنطقة وضمها الى نفوذه قبل أن يتوجه لملاقاة الخلافة فى عقر دارها

سابعا : ارسال الخليفة الناصر لبعض فدائيى الاسماعيلية الى مكة المكرمة لقتل شريف مكة ، بسبب خلاف كبير بينه وبين الخليفة، لكن الاسماعيلية أخطأوا وقتلوا أخاه بمنى»(١٢٢) .

ويعلق ابن الأثير على هذا الحادث بقوله « أن قتادة حاكم مكة لما سمع بما فعله الباطنية فى آل بيته « جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة ، وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموه بالحجارة والنبل »(١٢٣) .

لذلك ساء حال حجاج المسلمين ، خاصة قافلة العراق التى كان

---

(١٢١) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص ٣٧ .

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

(122) Juwaini «op - cit» vol II, p. 491.

(١٢٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ حوادث سنة ٦٠٨ هـ.

بها أهل العراق ، وحجاج الباطنية الذين اعتنقوا مذهب السنة على يد جلال الدين حسن ، ومعهم أم شيخ الجبل ، فما كان من هؤلاء الحجاج الا أن انتابهم الخوف والقلق وقرروا أن يلجأوا الى « منزلة حجـاج الشام » فحملوا أغراضهم على جمالهم ، ومن نجا منهم توجـه الى حجاج الشام ، ومع ذلك عادت هذه القافلة بأسوأ حال الى بغداد •

الا أن قتادة أرسل بعدها وفدا على رأسه ابن له وجماعة من رجاله الى بغداد ليقدموا الاعتذار للخليفة « فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان ، فقبلوا العتبة ، واعتذروا عما جرى على الحجاج »(١٢٤) •

لذلك اتخذ خوارزم شاه من هذه الحادثة سببا أيضا لتوجيه ضربته للخلافة العباسية ، الا انه لا يعلم لماذا يتحرك خوارزم شاه من أقاصى بلاده ليحارب الخلافة من أجل أخو شريف مكة •

بل ان خوارزم اتخذ موقفا ايجابيا بأن قرر عزل الخليفة العباسى ، وأشار الى أن بنى العباس اغتصبوا الخلافة من العلويين وتقاعسوا عن القيام بواجبهم الجهادى ، بل انه « أمر الخطيب بنيسابور بترك الخطبة للخليفة • وقال انه قد مات ، ولمـا قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ وبخارى وسرخس(١٢٥) معنى ذلك أنها لم تقطع بخوارزم •

ثامنـا : بعد قيام علاء الدين بعزل الخليفة ووقف الخطبة له فى بلاده عزم على اعتناق المذهب الشيعى ، وتنصيب خليفة علوى فى بغداد وجمع رجاله وعلماء الدين فى بلاده ، من أجل أن يكسب عمله صفة شرعية وليحملهم على الأعتراف بأن العباسيين ليسوا أصحاب الحق الشرعى فى

---

(١٢٤) نفسه ، ص ٢٠٦ •

(١٢٥) ابن الاثير ، نفسه ، ص ٣١٣ حوادث سنة ٦١٤ هـ •
C Barthold : «Turkestan down to the mongol Invasion» p. 375.

الخلافة ، وانهم اغتصبوها من العلويين أصحاب الحق الشرعى فيها[١٢٦] • وانهم أهملوا واجبهم الدينى فى دفع الخطر عن ديار الاسلام ، واهملوا اهم واجباتهم[١٢٧] •

والحقيقة أن هذا الرأى الذى أورده المؤرخون الفرس حول تحول السلطان محمد الى المذهب الشيعى ، يعتبر رأيا عربيا اذ أن الخوارزميين من الأتراك ، وهم من أشد الناس تمسكا بالمذهب السنى ، ولا يميلون مطلقا الى المذاهب الشيعية ، وربما أن المؤرخين الفرس قد وضعوا عليه هذه الأقاويل •

وقد ذكر المؤرخون الفرس أن خوارزم شاه قد عين شخصا علويا فى منصب الخليفة من مدينة ترمذ يدعى علاء الدين الترمذى سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م[١٢٨] •

ويرى الدكتور الغامدى أنه لا الجوينى ولا واحدا من أولئك الذين نقلوا روايته قد ذكر أى معلومات اضافية عن علاء الملك الترمذى ذلك الخليفة الشيعى المزعوم ، فلا نجد معلومات عن تعيينه ولا عن مكان تعيبه ولا عن مكان وجوده فيما بعد كخليفة[١٢٩] •

ومع ذلك فيذكر الدكتور حافظ حمدى أنه قد خطب لهذا الخليفة العلوى على منابر الدولة الخوارزمية ، وصك اسمه على السكة بعد أن قطع الخطبة للخليفة الناصر فى أنحاء الدولة الخوارزمية ، وقد سر الشيعيون فى بلاد فارس أيما سرور بهذا النصر المبين الذى أحرزوه ، وظنوا أن الوقت قد حان لقلب الخلافة السنية ، وأقامة خلافة علوية

---

(126) D'ohsson «Histoire des mangosa» T. I, p. 189.

(127) Juwaini «op - cit» p. 391.

(128) Barthold : «op - cit».

(١٢٩) الغامدى ، ص ١٣٢ .

بعد ستة قرون من وفاة الرسول ، قضوها فى جهاد مستمر ومحاولات يائسة لتحقيق هذا الغرض(١٣٠) ٠

وقد عرضت مسبقا لدور علاء الدين محمد فى الاستيلاء على العراق العجمى ، وبذلك نرى أن سلطان الشاه الخوارزمى أصبح واسعا حيث شمل أراضى الغور ، والخطا وبعضا من قلاع الاسماعيلية والعراق العجمى وفارس ، لذلك أصبح عالى السلطان قوى الشكيمة ولا يقل عن بقية العناصر الأخرى التى نجحت فى الماضى فى الوصول الى قلب بغداد ، بعد أن استولى على نفس المناطق التى استولى عليها من قبل البويهيين والسلاجقة ٠

وللأسباب السابقة مجتمعه سواء أصحت جميع عناصرها أم أن هناك بعض منها قد دس على الخليفة الناصر لدين الله ، فقد قرر السلطان علاء الدين محمد ضرورة مهاجمة بغداد عاصمة الخلافة العباسية ٠

الترتيبات التى أعدها السلطان الخوارزمى قبل غزو العراق :

انفرد المؤرخ النسوى فى سيرته للسلطان جلال الدين منكبرتى فى كلامه عن الاستعدادات والترتيبات التى بدأ بها السلطان علاء الدين محمد قبل خروجه الى العراق ٠

أولا : قرر السلطان أن يضرب له على بابه نوبة ذى القرنين بدلا من النوب الخمس التى كانت تدق فى أوقات الصلوات الخمس أسوة بسائر السلاطين(١٣١) ٠ وقرر هذه النوب الخمس الى أولاده السلاطين ٠

---

(١٣٠) حافظ حمدى : المرجع السابق ، ص ٣٨ ٠

(١٣١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٦٥ ٠

وكانت نوبة ذى القرنين تضرب فى وقت طلوع الشمس وغروبها فاستعمل سبعة وعشرين دبدبة من الذهب رصعت مضاربها بأنواع الجواهر(١٣٢) .

وقام بتنظيم أحوال بلاد ما وراء النهر وهى التى نجح فى الاستيلاء على مدنها من الأتراك الخطا ، فأقر الملك تاج الدين بلكاخان صاحب أترار فى مدينة نسا ليقيم بها (١٣٣) .

وعين على خوارزم الخطيب برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جهان رئيس الحنفية ببخارا وخطيبها(١٣٤) .

كما وجه الى شيوخ الاسلام بسمرقند جلال الدين وابنه شمس الدين وأخاه أوحد الدين الى نسا تحرزا من قيامهم واطفاء لعذابهم وكانوا سادات الأرض آدابا بارعة وأقداما لاعلام العلوم قارعة(١٣٥) .

كما قرر علاء الدين محمد خوارزمشاه تقسيم ملك بلاده بين أولاده قبل خروجه الى العراق ، فعوض خراسان وخوارزم ومازندران الى ولى عهده قطب الدين أزلاغ شاه ، وسبب تفضيله على اخوته الكبار جلال الدين منكبرتى وركن الدين غورشايجى « اتباع السلطان رأى والدته تركان خاتون ، وتحرية مرضاتها » (١٣٦) .

---

(١٣٢) النسوى : نفســه .
(١٣٣) نفســه ، ص ٦٦ .
(١٣٤) نفسه ، ص ٨ .
(١٣٥) نفسه ، ص ٧٠ .
(١٣٦) نفسه ، ص ٧١ عاد علاء الدين محمد خوارزمشاه فعدل عن وصيته وهو على فراش الموت سنة ٦١٢ هـ / ١٢٢٠ م وأوصى بولاية العهد لابنه جلال الدين منكبرتى من بعده لثقته فى شجاعته من جهة ولأن أمه تركان خاتون قد وقعت أسيرة فى أيدى المغول من جهة أخرى .

وقد عين ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى على ملك غزنة وباميان والغور وبست وتكياباذ وزمين داور وما يليها من الهند • ولكن جلال الدين استناب عنه كربر ملك فنهض بها وضبطها •

قد ظل هذا النائب مقيما بها حتى عودة جلال الدين الى الهند عند غزو التتار لبلاده • وقام بتعيين ابنه غياث الدين بيرشاه على كرمان وكيش ومكران واستوزر له الصدر تاج الدين بن كريم الشرف النيسابورى • وعين على العراق العجمى ابنه ركن الدين غورشايجى واستوزر له عماد الملك محمد بن الشديد الساوى(١٣٧) •

وقد اتجه علاء الدين محمد خوارزم شاه بعد كل هذه الترتيبات وبعد أن دانت له كما أوضحنا بلاد الغور وأراضى الخطا وبعض قلاع الاسماعيلية ، والعراق العجمى خاصة فارس وأذربيجان • واتجه صوب العراق العربى أى ناحية الخلافة العباسية فى بغداد •

ويؤكد النسوى أن السلطان علاء الدين محمد « سير أمامه من العساكر ما عضت به البيداء ، وضاقت برحبها عن ضمها الفلا »(١٣٨) •

وتقدم الجيش فى المسير حتى وصل الى قلعة سد أباذ ، وهناك حدثت مفاجأة مناخية ، حيث كانوا فى بداية فصل الشتاء فهبت عليهم الأمطار والثلوج التى شلت حركة الجيش « فطمت الأباطح والاعلام ، وغطت الحزاكى والخيام » (١٣٩) ، وقد استمرت الأمطار والثلوج ثلاثة أيام متوالية لم تتوقف •

---

(١٣٧) النسوى : المصدر السابق ، ص ٧٢ — ٧٣ •

(١٣٨) النسوى ، ص ٦٤ •

(١٣٩) نفسه ، ص ٦٤ •

أما السيوطى فيقول ان بعض خواص علاء الدين خوارزم شاه قالوا فى هذه المناسبة أى حين حلت به الهزيمة « ان ذلك غضب من الله حيث قصدت بيت الخلافة » • السيوطى • تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ •

ويذكر النسوى تعليقا شعريا على هذا الموقف الصعب جاء على لسان الشاعر الشاشى يقول :

نثر السحاب من السماء دراهمـــا وكسا الجبال من الحواصل ملبسا
والريح باردة الهبـــــوب كأنهـــا أنفاس من عشق الحسان وأفلسا

وقد عملت الامطار والثلوج على هلاك معظم رجال خوارزمشاه علاء الدين محمد ، ودوابه ، « وصارت الأرض كأنها ببياضها سوداء ، وشمل الهلاك خلقا كثيرا من الرجال ، ولم ينج شىء من الجمال » (١٤٠).

لذلك اضطر علاء الدين محمد الى العودة الى بلاده ومعه البقية الباقية من جيشه ، ويؤكد النسوى مؤرخنا الثقة فى هذا الموضوع على أن علاء الدين محمد قد ندم على فعلته هذه فى حق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه اضطر لمقابلة الشيخ السهروردى وبعث به الى دار الخلافة « مستشفعا بالله منذرا ، وعن البغى محذرا » (١٤١).

وقد اتفق رأى النسوى مع رأى بن الأثير فى أن من يتجرأ على حرمة الخلافة يخسر الدنيا والاخرة لان بيت الخلافة « يؤيـــده الله بملائكة سمائه وله سر فى ادامته وبقائه » (١٤٢) .

ويعارض المؤرخ بارتولد هذا الرأى ، معتقدا أن ما فعله السلطان الخوارزمى لم يكن الا تحت وطأة الهزيمة ، ومحاولة لارضاء أهل البلاد ، الا أنه كان يضمر فى نفسه غير ما يظهر (١٤٣) . ولكننا نرى أن الرأى

---

(١٤٠) النسوى ، نفسـه .

(١٤١) نفســـه .

(١٤٢) نفسـه ، ابن الاثير حيث يقول أن البيت العباسى لم يقصـــده أحد بأذى الا لقيه فعله ، وخبث نيته » . ج ٩ ، ص٣١٣ حوادث سنة٦١٤هـ

(143) Barthold : «op - cit» p. 375.

الاول هو الرأى الارجح ، وذلك لان هيبة الخلافة كانت ولازالت تملأ قلوب الناس ، وخاصة جيوش خوارزم شاه الذين كان جلهم من الاتراك المتعصبين للمذهب السنى الحنفى ، أما بقية الجيش من الشيعة ، فقد كانوا وبلا شك يتمنون زوال الخلافة العباسية وعلو نجم المذهب الشيعى .

ولعل عودة السلطان علاء الدين محمد فى هذه الصورة الى نيسابور جعلته يقرر تنظيم الامور ، فكان أول خبر وصله عند وصوله الى نيسابور هو موت والى كرمان مؤيد الملك قوام الدين ، لذلك قام بتعيين ابنه غياث الدين بيرشاه على كرمان وكيش ومكران (١٤٤) .

ومما يدل على عظم الخسائر التى منى بها علاء الدين محمد أنه قد فنت معظم جماله بالعراق ، لذلك فقد قدم له نيسابور « أربعة الاف من النجاتى التركيات »(١٤٥) .

وقام السلطان الخوارزمى بعد عودته أيضا بعزل نظام الملك ناصر الدين ممحد بن صالح عن الوزارة لما عرفه عنه من سوء الافعال والأعمال .

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه والسلطنة الأيوبية

نحن ما زلنا نجول فى الدور الذى لعبه خوارزم شاه مع جميع القوى الميحطة به .

ومن أهم القوى الدولية التى لها وزنها فى العالم الاسلامى هى قوى الأيوبيين فى مصر والشام .

---

(١٤٤) النسوى ، ص ٧٤ .
(١٤٥) نفسه ، ص ٧٥ .

فقد نجح صلاح الدين الأيوبى — الذى ظهر فى فترة هامة من تاريخ العالم الاسلامى فى توحيد العالم الاسلامى فى جبهة متحدة تمتد من الفرات الى النيل • فقام بالقضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر وأعاد الديار الاسلامية الى حوزة الخلافة العباسية السنية فى بغداد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م(١٤٦) • فحقق بذلك للعالم الاسلامى وحدته المذهبية • ووضع الوجود الصليبى الذى كان يسيطر على أجزاء من بلاد الشام بين شقى الرحى وقضى على كل اطماعهم التوسعية وكانت بداية النهاية للوجود الصليبى فى بلاد الشام(١٤٧) •

والثابت تاريخيا أن الدولة الأيوبية التى أجهد صلاح الدين الأيوبى نفسه فى اقامتها تعرضت للكثير من المشاكل سببها أفراد البيت الأيوبى من الأبناء والاخوة حتى تمكن أخاه الملك العادل ٥٨٩ — ٦١٥ هـ من السيطرة على مصر والشام ، وتقسمت بقية المملكة الى سبعة أقسام رئيسية استقل بعضها استقلالا تاما عن مصر وخضع لها البعض الآخر خضوعا اسميا(١٤٨) •

وقد عاصر السلطان الملك العادل الأيوبى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه السلطان الخوارزمى الذى نجحت الدولة الخوارزمية فى عهده فى السيطرة على بلاد ما وراء النهر وايران والعراق العجمى ، ويبدو أن الملك العادل الأيوبى أدرك قوة خوارزم شاه علاء الدين فرغب فى اقامة علاقة ود وصداقة معه ، كما أن خوارزم شاه نفسه كان

---

(١٤٦) عن ذلك انظر ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ •
أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ •
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ٢٠٠ •
(١٤٧) عن جهاد صلاح الدين للصليبيين انظر ما سبق •
ابن ايبك : الدر المطلوب •
المقريزى : السلوك جـ ١ قسم ١ •
سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ق ١ •
(١٤٨) العبود : ص ١٥١ •

يرغب فى مصادقة الملك العادل ، وكسبه كحليف له بعد فشله فى غــزو بغداد سنة ٦١٤ هـ/١١٢٧ م[١٤٩] .

ويمكن القول ان بداية العلاقات السياسية بين الدولتين الخوارزمية والايوبية بدأت سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨م قبل وفاة العادل فقد وصل رسول خوارزم شاه محمد الى الملك العادل وهو بمرج الصفر [١٥٠] ، ولم تذكر المصادر عن الغاية التى قدم بها هذا الرسول ومن الراجح أن تكون غايته اقامة علاقة ودية بين الجانبين لأن الملك العــادل بعث بالجــواب الى خوارزمشاه فأوفد اليه جمال الدين محمد الدولعى الشــافعى خطيب دمشق ، ونجم الدين خليل بن على الحنفى قاضى العسكر ، وكان خوارزم شاه انذاك فى همذان ، وعندما وصل الرسولان لم يلتقيا به بســبب مغادرته المدينة الى بخارى لمجابهة الخطا والمغول ،ومع ذلك فانهمــا اجتمعا بولده جلال الدين منكبرتى الذى أبلغهما بوفاة الملك العادل فرجعا الى دمشق دون أن تتحقق مهمة لقائهمــا بخوارزم شــاه علاء الدين محمــد[١٥١] .

وهكذا شاءت الظروف أن يموت الملك العادل سنة ٦٦٥ هـ/١٢١٨م فشغل خوارزم شاه بمشاكله وفى مقدمتها الغزو المغــولى وكان لذلك أثره فى عدم تطور العلاقات بين الخوارزميين والأيوبيين خلال عهــد علاء الدين محمد .

---

(١٤٩) العبود ، ص ١٥١ .
(١٥٠) نفسه ، نقلا عن أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٠٩—١١٠ .
(١٥١) نفسه ، ص ١١٠ .

المغـــول

المغول شعب بدوى ينقسم الى عدد من الطوائف والقبائل العديدة تسكن اقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيا المركزية والشرقية وكانت هذه القبائل البدوية لا تعرف معنى الحضارة ، بل كانت قبـــائل نصف وحشية ، ولم تكن لهم سابقة بمدنية أو حضارة ، ولشدة بداوتهم كانت كل قبيلة من تلك القبائل تكون وحدة متماسكة من ناحية الجنـــس واللغة ويرأسها رئيس يحمل لقب نويان تطيعه وتأتمر بأمره ، ولذلك كانت حياتهم فطرية بدائية بسيطة لا يتسرب اليها التعقيد ، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشـــب والكلأ(١٥٢) •

لابد لنا أن نعرف أن الظروف الجغرافية فى هذا الأقليم قد جعلت منه اقليما قفرا ، فان الجبال المحيطة بهذه الهضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف ، وأما فى فصل الشتاء فنرى مناخها شديد البرودة وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها ، بحيث لم تشاهد الا فى أماكن متفرقة • وهكذا نرى أن ظروف البيئة تملى على سكان هذه البلاد أن يعيشوا عيشة رعوية ، وأن ينتقلوا من مكان الى آخر سعيا وراء الرزق(١٥٣) •

وقد عاش المغول هذه الحياة المناخية القاسية ، حيث كانوا يحتلون المنطقة الواقعة بين بحيرة بيكال فى الغرب وجبال كنجان على حـــدود منشوريا فى الشرق(١٥٤) • ولذلك استدعت حياتهم الصـــعبة ضرورة الاغارة على الممالك المتمدينة فى الصين وما وراء النهر وايران •

---

(١٥٢) عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايران ، ص ٩ •
(١٥٣) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية ، ص ١٠٨
العرينى : المغول •

(154) Lamb «Genghis Khan». p. 25.
Haworth «History of the Mongal's» vol IV. p. 14—27.

ويذكر رشيد الدين أن مجموع أقوام الاتراك والمغول لم يكن لهم مطلقا ملك قهار جبار يستطيع أن يحكم هذه الطوائف ، فكان أفرادها يتنازعون ، ويتصارعون ويحارب بعضهم بعضا ، وبالرغم من أنه كان لكل قبيلة ملك أو أمير ، فان افراد هذه القبيلة كانوا لا يخضعون له ولا يأتمرون بأمره .

ولما كان أهل الخطا يجاورون هذه القبائل ، ويتعرضون من آن لآخر لغاراتهم كانوا يعيشون دائما فى فزع منهم ، ويبذلون من الجهود والاحتياطات ما يدرأون به شر هذه القبائل المتبربرة ، فأقاموا سدا مثل سد الاسكندر يفصل بين ولاية الخطا وبين تلك الأقوام[١٥٥] .

وليس من المعقول أن يستقر الكيان السياسى فى هذه البلاد وهى على هذه الحال من الفوضى السياسية ، والاضطراب الاجتماعى وكانت الحالة هناك تستلزم ظهور شخصية قوية توحد القبائل المغولية أولا وتسيطر على سائر القبائل المبعثرة هنا وهناك ثانيا . ولم تكن هذه الشخصية الا شخصية شاب مغولى مات أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وكان من أثر وفاة أبيه وهو فى هذه السن المبكرة أن انفضت من حوله القبائل المغولية التى كانت خاضعة لحكم أبيه وظل هذا الفتى شريدا تتلقفه أيدى من يشفق عليه من اصدقاء أبيه حتى اذا ما بلغ السابعة عشرة بدأ نجمه يلمع اذ استطاع بفضل ذكائه وحنكته أن يجتذب اليه كبار رجال المغول من أتباع أبيه حتى اذا ما اقنع أفراد عشيرته بالانضواء تحت لوائه عول على اخضاع القبائل المنتشرة فى صحراء جوبى[١٥٦] .

وقد كان اسمه أول الأمر تموجين وهو أكبر أولاد أبيه وأكبرهم وأفضلهم وعندما صار ملكا على المغول سنة ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م وبلغت

---

(١٥٥) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(١٥٦) حافظ حمدى ، ص ١٠٩ .

Lamb «op - cit» p. 26.

سنه الواحدة والخمسين وقتل ملك النايمان ، لقب بلقب جنكيزخان(١٥٧) . أى أعظم الحكام أو امبراطور البشر واتخذ بعد ذلك مدينة قوة قوروم عاصمة لملكه .

والحقيقة أن التلقبات التى صادفها جنكيزخان فى شبابه والتجارب والمحن التى مر بها فى حيـــاته ، ومقاومته للمناخ القاسى وما فيه من برد قارس وحرارة خانقة ، ومقدرته على تحمل آلام الجوع والحرمان لعدة أيام وعدم اهتمامه بما يصيبه من جروح وآلام أو بسوء معاملته فى أوقات الضعف والهزيمة كل ذلك قد أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات وصنع منه رجلا صلبا حديديا أدهش العالم(١٥٨) .

وفى ظل هذه الحياة القاسية ، بدأ يظهر جبروت جنكيزخان وبطشه ، ولقد أجاد فن الرماية ومهر فى الصيد واشترك فى حلبات سباق الخيل واتقن المصارعة وتفوق على أقرانه(١٥٩) .

وقد نجح جنكيزخان فى الاستيلاء على الأراضى الصينية وضم قبائل الكرايت والنايمان . وبعدها قرر جنكيزخان ضرورة القضاء على عدوه القديم كشلوخان الذى فر من أمامه من قبل ، فبعد أن وطد سلطانه فى شرق آسيا لاخضاع القبائل المتمردة والتى دخلت فى طاعة دولـــة كشلوخان أرسل قائده سوبوتاى Suboutai لاخضاع قبائل المركيت التى انضمت الى بلاد كشلوخان ، كما أرسل قائده شبى Chepe أو شبى نويان للبحث عنه واحضاره حيا أو ميتا(١٦٠) .

---

(١٥٧) فؤاد الصياد : المغول ، ص ٤٠ .

(١٥٨) نفســـه .

(١٥٩) نفسه ، ص ٤٥ .

(١٦٠) مير خواند : روضة الصفا ، ج ٥ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

ولفظ نوين Noÿen كما ورد فى المرجع الصينى المعروف باسم Yuashi لقب معناه أمير أو سيد أو قائد ، انظر تفسير ذلك فى :
Bretschneider: op - cit vol I, p. 233 nate 592,
Howorth «op - cit» p. III, p. 88.

صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٤٢٥ .

ويجب أن نعرف أن جنكيزخان لم يكن غافلا عن عـدوه اللدود كشلو فيتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للاخذ بثأر أبيه ، واذا كان قد صبر عليه بعض الوقت ، فما ذلك الا لأنه كان مشغولا بحروبه فى الصين .

تمكن سوبوتاى من هزيمة قبائل المركيت ، وأبادها عن آخرها ، أما شبى نويان فانه سار الى كاشغر واستولى عليها بسهولة ، وفـر كشلوخان ولم يحاول مواجهة المغول فى معركة حاسمة ، وصار يتنقل من مكان لآخر والمغول يتعقبونه وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار جبه نويان سيد المنطقة ، وحاكمها ، وكان أول ما فعله الحاكم المغولى جبه نويان أن أطلق الحرية الدينية لجميع السكان ، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول كمحررين لبلادهم ، أما كشلوخان فانه هام على وجه فرارا من المغول الذين جدوا فى طلبه ، وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلموه الى المغول فقتلوه على الفوز ، وبعثوا برأسه الى جنكيزخان فى قرة قورم ، ثم أعملوا السيف فى كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضى عليهم جميعا سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م(١٦١) . وعلى حد قول النسوى « تركهم جزرا للسـيوف القواطع وطمعا للنســور الجوامع »(١٦٢) .

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كشلوخان على جميع القبـائل التركية التى كانت تخضع للقرة خطائيين ، واحتلوا مناطق أخرى كان كشلوخان قد ضمها الى دولته ، وكان لانتصـار المغول على غريمهـم كشلوخان نتائج هامة وسريعة أهمها على الاطلاق دخول جميع القبائل

---

(١٦١) فامبرى : تاريخ بخارى ، ص ١٥٥ .

Bretschinder «op - cit vol I, p.233.

وقد أخطأ النسـوى فى اسم القائد فذكره عـلى انه دوشى خـان ما يعرف باسم جوجى بن جنكيزخان لأن قائد الحملة هو شبى نويان .

عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية ، ص ٤٦ .

(162) Cam. Med. Hist. vol IV. p. 633—643.

التركية تحت السيطرة المغولية ، وكذلك مجاورة جنكيزخان بهذه القوة النامية الرهيبة أملاك الدولة الخوارزمية فأصبح الاصطدام متوقعا بين الطرفين فى كل لحظة مادامت أسبابه ودوافعه متوفرة عندهما والمتمثلة فى مطامع جنكيزخان ورغبته فى التوسع(١٦٣) .

المغول والخوارزميون

لقد أوضحنا الآن أن أملاك الخوارزميين جاورت ممتلكات المغول ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه القوة غير متكافئة والظروف التى تعيشها الدولتين مختلفة .

فقد خرج جنكيزخان بالفتح بعد أن نظم دولته وحدد قوانينها وعرفها فى الوقت الذى كانت فيه قوى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه مشتتة فى اتجاهات كثيرة ، فقد كان هذا السلطان الخوارزمى ميالا للسلطة والسيطرة واضافة الممتلكات ، وتأسيس امبراطورية على حساب القوى الاسلامية وغير الاسلامية .

وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين صب اللوم على الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، على أنه هو الذى حرض المغول على غزو الأراضى الخوارزمية ورأى أن جنكيزخان الذى ذاع صيته فى شرق آسيا وغربها هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يرد السلطان الثائر الى صوابه ، فلم يتردد فى أن يستعين به على عدوه الخوارزمى(١٦٤) .

وقد أيد بن الأثير هذه الرواية بقوله « وقيل فى سبب خروجهم الى

---

(١٦٣) النسوى ، ص ٤٦ .

(164) Curtin « The mongols history » p. 99.

بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر ، فكان مما نسيت أذكره فظن خير ولا تسأل عن الخبر »(١٦٥) .

وهناك من المؤرخين من فسروا القول أيضا باتهام الخليفة الناصر ومنهم ابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ فى تاريخ الدول والملوك . ونسج ميرخوند المؤرخ الفارسى الذى عاش بعد ابن الفرات بقرن من الزمن نسج على هذا الاتهام ورتب طريقة اتصال الخليفة بالمغول بواسطة رسول حلق رأسه وكتبت عليه الرسالة ثم أرسل بعد نمو شعره(١٦٦).

وقد أيد أبو الفدا هذه الرواية أيضا(١٦٧) كما أيدها المقريزى بقوله « وفى خلافته « الناصر » خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا الى همذان . وكان هو السبب فى ذلك ، فانه كتب اليهم بالعبور الى البلاد خوفا من السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية »(١٦٨) .

وهناك من المؤرخين المحدثين من يؤيد فكرة استدعاء الخليفة الناصر لدين الله للمغول ومنهم من يرفض هذه الفكرة مطلقا .

فمن من المؤرخين المسلمين يقف الاستاذ حافظ حمدى مؤيدا فكرة استدعاء الخليفة للمغول فيقول « ولا يسعنا الا أن نصدق فكرة استدعاء

---

(١٦٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ ووصف هذه الحرب بالكارثة التى لم يصب العالم الاسلامى بمثلها حتى أنه تردد فى ذكرها لأنه كما يقول كان ينعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . حوادث سنة ٦١٧ هـ .

(١٦٦) محمد صالح القزاز : الحياة السياسية فى العراق ، ص ٢٨ .

(١٦٧) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(١٦٨) المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ١ ، ص ٢١٨

الخليفة للمغول بعد أن علمنا أن سلطان الخليفة كان قاب قوسين أو أدنى من النزول وان الخليفة لم يجد طريقا يوصله الى الحد من نفوذ الخوارزميين الا سلكه ، فحاك حولهم الدسائس والفتن ، وألب عليهم أعداءهم من العناصر المحيطة بدولتهم وأثار كل ذلك متاعب جمة للخوارزميين ، ولولا انشغال علاء الدين خوارزم شاه بتلك المتاعب لاستطاع الخوارزميون حتما أن يسقطوا الخلافة العباسية »(١٦٩) .

ويؤكد أيضا على أن فكرة استعانة الخلافة العباسية بالعناصر الخارجية لتثبيت أقدامها فكرة نهج عليها الخلفاء العباسيون فى ظروف كثيرة ، فقد استدعى الخلفاء بنى بوية ليخلصوهم من استبداد الأتراك واستنجدوا بطغرلبك السلجوقى على البساسيرى ، بل استعانوا الخوارزميين فى القضاء على سلاجقة العراق (١٧٠) .

كما أيد هذه الرواية أيضا بعض المؤرخين الأوروبيين مثل دوسون وهورث وبراون وكيرتن ، وميور وجرينار وهارولدلام على أن الأخير انفرد بذكر الحقيقة التالية وهى أن الخليفة عرض على جنكيزخان استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب اذا هو هاجمها من الشرق(١٧١) .

أما الدكتور القزاز فيرفض هذه الفكرة ويقول « انى لا أتفق مع الذين ذهبوا فى تفسيره الى اتهام الخليفة الناصر لدين الله باتصاله بالمغول ودعوته لهم بمهاجمة الخوارزميين ويرى « أن هذا الاتهام ينصرف الى تقصير الخليفة الواضح وعدم تقديره لمسئولياته كخليفة

---

(١٦٩) حافظ حمدى : الدولة الخوارزمية ، ص ٤١ .

(١٧٠) نفسه ، ص ٤٢ .

(١٧١) نفسه ، ص ٤١ .

للمسلمين وتقاعده المتعمد عن الخطر الذى هدد البلاد بعد أن أعماه الحقد على خوارزمشاه فسهل بذلك على المغـول القضاء على هذه الامـارة الاسلامية مع استحالة اتصاله بالمغول فى ذلك الوقت(١٧٢) .

وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى الا أن الحقيقة تثبت أن هناك قوى بدأت تلفت نظر المغول الى القوة الكبيرة التى تجاور حدودهم وهى قوى الخوارزمية .

ولعل البداية الأولى للقاء المغولى الخوارزمى كانت قد تمت بمحض الصدفة وذلك لأن السلطان محمد كان يقيم فى بخارى وسمرقند وبعدها تحرك ناحية صحراء القرغيز حيث تسكن قبائل القبجاق الواقعـة الى الشمال الشرقى من حدود سلطنته ، وهو فى طريق عودته تقابل مع فرقة من الجيش المغولى بقيادة جوجى بن جنكيزخان .

وقد ذكر الجوينى أن السلطان محمد عزز جيشه بقوات اضافية بلغت ما يقرب من ستين ألفا فى حين كان الجيش المغولى حوالى عشرين ألفا وكان غرض السلطان محمد من مواجهة المغول على حد قول الجوينى « بأنه سوف يصطاد فريستين بسهم واحد »(١٧٣) .

والثابت تاريخيا أن جوجى بن جنكيزخان كان يقوم بمحاربة المركيت رغبة فى القضـاء عليهم ، وفعلاً نجح فى ذلك ، وأثناء عودته لاحقته قوات السلطان الخوارزمى(١٧٤) .

وكانت الأوامر التى كان قد تلقاها جوجى من الخاقان الأعظم فى قراقورم هى ألا يدخل فى حرب مع المسلمين ، لذلك بعث برسالة الى

---

(١٧٢) القزاز ، ص ٢٨ .

(173) Juwaini « op. - cit ». vol II, p. 370.

(174) Juwaini « Ibid ».

السلطان علاء الدين محمد يقول فيها : « انه يقبل الأرض وينهى أنه لم لم يتعد الى هذه الجهة متعديا طوره بل خدمة للسلطان » ومن جملة ما ذكر أيضا « أن أباه أوصاه بسلوك مسلك الأدب ان صادف عسكرا من العساكر السلطانية فى وجهته تلك وحذره أن يبدو منه ما يرفع ستر الاحتشام وينافى مذهب الاعظام » (١٧٥) . الا أن السلطان الخوارزمى رد على جوجى برسالة يقول فيها « بأن جنكيزخان ان كان أمرك ألا تقاتلنى ، فالله تعالى أمرنى أن أقاتلك ، ووعد لى على قتالك الحسنى ، فلا فرق عندى بينك وبين كورخان وكشلوخان لاشتراككم فى الشرك فأذن بحرب تتقصد فيها الرماح وتتحطم فيها الصناج »(١٧٦) .

عندئذ اضطر جوجى الى الدخول فى معركة مع السلطان الخوارزمى الا أن نتائج هذه المعركة لم تكن حاسمة ، اذ هزم الجناح الأيمن لكل من الجيشين الجناح الأيسر لجيش العدو ، وكان الجناح الأيمن لجيش المسلمين تحت قيادة جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر لخوارزم شاه وهو الذى انقذت شجاعته المسلمين من الهزيمة(١٧٧) . خاصة لأن المغول كانت لديهم أساليب فى القتال جديدة وشجاعة فائقة وجرأة نادرة أظهرت قدرتهم القتالية .

وقد كانت نية الفريقين متجهة لاستئناف القتال فى اليوم التالى الا أنه فى صبيحة ذلك اليوم ، وجد السلطان محمد وقواته أن الجيش المغولى كان قد هجر أرض المعركة وذهب الى بلاده تحت ستار الليلة الماضية(١٧٨) .

---

(١٧٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٤٧ .

(١٧٦) نفسه ، ص ٤٨ .

(177) Juwaini « op. - cit ». vol II, p. 377.

ورشيد الدين : جامع التواريخ ، ج ١ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(178) Juwaini « Ibid ».

وقد شعر السلطان الخوارزمى بقوة المغول ، وبدأ يحتاط منهم حتى أن المؤرخ النسوى الذى كان قد اعتاد أن يبرز بطـولات الخوارزمية نراه يقول « وتمكن من قلب السلطان من الرعب والاعتقاد ببسالتهم ما اذا ذكروا فى مجلسه يقول : لم ير رجالهم اقداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب »(١٧٩) .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الاشتباك لم يؤثر فى الصلات القائمة بين الدولتين ، ولعل كلا الفريقين قد عد هذا القتال نتيجة خطأ يؤسف له وان جنكيزخان نفسه عندما جاور الدولة الخوارزمية لم يشأ أن يجاهر سلطانها بالعداء ، بل حرص أول الأمر على أن يسالمه ويكون معه على وفاق ووئام ، وكان يهدف الى أن يبرم معه معاهدة تجارية ويتبادل معه الرسل والسفراء(١٨٠) .

وكان السلطان علاء الدين محمد منذ فترة يتتبع اخبار جنكيزخان وهو فى بلاد الصين ، بل وفكر فى تسخير جزء من الصين أسـوة بما فعل جنكيزخان وزين له قواده هذا العمل ، وبدأ هو نفسه يغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمها «ظل الله» والاسكندر الثانى وسنجر الثانى ، وما أن وصلت اليه أنباء استيلاء جنكيزخان على مدينة بكين عاصمة دولة الصين الشمالية أراد أن يستوضح الأمـر ، فأرسل وفدا من كبار دولته برئاسة « السيد الأجل بهاء الدين الرازى » الى الصين يحمل رسالة الخوارزمشاه الى جنكيزخان »(١٨١) .

ويذكر الجوزجانى فى طبقات ناصرى « أن السيد الأجل بهاء الدين الرازى وصحبه عندما وصلوا الى حدود طمغاج واقتربوا من عاصمة

---

(١٧٩) النسوى ، ص ٤٨ .

(١٨٠) الصياد : المغول ، ص ٩٧ .

(١٨١) عبد السلام فهمى ، ص ٤٨ .

D, ohsoon «Histoire des Mongols» vol I. pp. 202—203.

« التون خان » بدت لهم على مسافة بعيدة أكمة عالية بيضاء ظنوها جبلا تكسوه الثلوج ، فسألوا المرشدين وأهالى المنطقة عن سر هذا المكان ، فأخبروهم أنها عظام الناس الذين قتلهم المغول ، ولما تقدموا مرحلة أخرى ، وجدوا الأرض لزجة سوداء بسبب ما اختلط بها من دماء الآدميين ، وهكذا واصلوا السير حتى قصدوا أرضا جافة حيث صادفهم الكثيرون ممن لحقهم المرض أو هلكوا بسبب عفونة الهواء الذى نتج عن كثرة القتلى وعندما انتهى بهم المطاف عند طمغاج شاهدوا أسفل برج القلعة عظاما كثيرة قيل ان المدينة عندما سقطت فى أيدى المغول ألقى المحاصرون في القلعة بعشرين ألف فتاة عذراء متعمدين قتلهن حتى لا يقعن أسرى فى أيدى المغول ، فهذه العظام الملقاة على الأرض هى رفات تلك الفتيات(١٨٢) .

وعندما وصل هؤلاء الرسل الى معسكر جنكيزخان استقبلهم الغازى المغولى بأبلغ مظاهر الحفاوة والتكريم وحملهم رسالة ليبلغوها الى السلطان مؤداها أن جنكيزخان كما يعتبر نفسه ملك الشرق ، فان خوارزمشاه يعتبر أيضا ملك الغرب ، وأن جنكيزخان يميل الى أن تكون العلاقة بين الطرفين علاقة صلح ووفاق وأن تستمر قوافل التجار تروح وتجىء بين ممالك خوارزمشاه وجنكيزخان وهى تحمل الأمتعة والبضائع ليتبادلها الطرفان فى حرية وأمن(١٨٣) .

ولا شك أن أفعال جنكيزخان لا توضح حسن نيته أو جنوحه للسلم والصفاء مع أى زعيم دولة جاورته ، كذلك خططه لا تشير الا لروح عدوانية ، لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين

---

(١٨٢) الصياد ، ص ٩٧ — ٩٨ نقلا عن الجوزجانى فى كتاب طبقات ناصري .

(١٨٣) نفسه .

مستندة الى حق السيف وحده وبخاصـــة أن مشاكله فى شرق آســـيا واضطراره الى توطيد نفوذه فى الأقاليم الصينية يمنعه من أن يشغل جيوشه فى البلاد الخوارزمية أيضاً ، فهداه تفكيره الى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية تكون الصلة بينه وبين الأتراك الخوارزميين ويستطيع من خلالها معرفة أحوالها ويكون على صلة برجالها ، ويميلها على الخوارزميين وتضمن بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول(١٨٤) .

وحـــدث أن اســـتقبل عـــلاء الدين محمـــد خوارزمشـــاه ســـنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م — بعد عودته من العراق ، وبعد أن حلت بـــه الهزيمة وهو يحاول اخضاع الخلافة العباســـية — استقبل ثلاثة من التجـــار هم رسل جنكيزخان وهم « محمود الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ويوســـف كنجا الأترارى (١٨٥) مصـــحوبين بمجلوبات التـــرك من نقر(١٨٦) المعادن ونصب الحنو ونوافج المسك واحجار اليشب والثياب التى تسمى طرقوا »(١٨٧) .

وقد حمل هؤلاء التجار معهم رسالة من جنكيزخان موجهـــة الى علاء الدين محمد يقول فيها « ان الخان الكبير يسلم عليك ويقول ليس يخفى على عظيم شأنك ، وما بلغت من سلطانك ، ولقد علمت بسطة ملكك وانفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض ، وأنا أرى مســـالمتك من جملة الواجبات ، وأنت عندى مثل أعز أولادى وغير خاف عليك أيضا أننى ملكت

---

(١٨٤) فهمى ، ص ٤٨ .

(١٨٥) ينتسب هؤلاء الرسل الى مدن خوارزم وبخارى واترار على التـــوالى .

(١٨٦) النقر جمع نقرة وهى القطعة المضروبة من الذهب أو الفضة

(١٨٧) كانت تؤخذ من صوف الحمل الأبيض يباع الثوب منها بخمسين دينارا .

انظر النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٨٣ .

الصين ، وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لى قبائلهم وأنت أخبـــر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة ، وان منها لغنية عن طلب غيرها ، فان رأيت أن تفتح للتجار فى الجهتين سبيل التردد ، عمت المنافع ، وشملت الفوائد »(١٨٨) .

وبعد أن قرأ السلطان علاء الدين محمد هذه الرسالة غضب غضبا شديدا رغم ما يبدو فى هذه الرسالة من ود ظاهر الا أنها تحمل بين طياتها طابع التهديد والوعيد ، اذ أن جنكيزخان قد أهانه حين اعتبره فى منزلة الابن ، ومعناها التبعية للخان المغولى فمن المعروف أن العـــلاقة بين الابن وأبيه وبين الأخ الصغير والأخ الكبير وبين العم وابن الأخ ، انما تدل على أنواع مختلفة من التبعية كانت تكتب فى المعاهدات بين أمراء آسيا الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الطرفين المتحالفين(١٨٩) .

وليس بخاف على أن جنكيزخان أراد أن يخبر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه ، فاعتبر السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه — وهو تركى الأصل وان هـــذا القول يحمل معانى التهديد والوعيد (١٩٠) .

---

(١٨٨) نفسه ، ص ٨٤ ويذكر د. الغامدى عن أبو الغازى بهـــادر المؤرخ المغولى ان هذا الوفد الذى وصل الى السلطان محمد لم يكونوا تجارا وانما كانوا — على الأقل وقت قيامهم بسفارتهم هذه — بل انهم كانـــوا موظفين فى البلاط المغولى .

الغامدى : أوضاع الدول الاسلامية ، ص ٢٥٣ عن أبو الغازى بهادر : التاريخ العـــام .

(189) Do Ohsson « Histoire des Mongols » vol I, pp. 202 - 203.

(190) Ibid. p 204.

عندئذ ، ونتيجة لثورته النفسية قرر السلطان علاء الدين محمـد اجضار التاجر الأول محمود الخوارزمي وقال له « انك رجل خوارزمي ولابد لك من مولاة فيناوميل ، ووعده بالاحسان ان صدقه فيما يسأله وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة للوفاء بما وعده ، وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكيزخان »(١٩١) .

ويوضح النسوى أن موافقة التاجر محمود الخوارزمى على القيام بهذه المهمة لم يكن الا رغبة ورهبة . ثم بدأ السلطان محمد يسأل التاجر عن حقيقة ملك جنكيزخان للاراضى الصينية واستيلائه على مدينة طمغاج فاجابه بالاثبات . وبدأ يظهر غضبه للتاجر ، ويوضح له مدى اتسـاع ملك الخوارزمية ، وكثرة جيوشهم ، فكيف يتجرأ جنكيزخان على مخاطبته بالولد حتى أن محمود الخوارزمى شعر بمقدار غضب السلطان محمد ، لذا آثر ألا يقوم بالنصيحة ، وانما « مال الى الاسترحام » حتى أنه بدأ يحقر له فى عدد جيش جنكيزخان اذا قيس بجيش الخوارزميين(١٩٢) .

وهكذا نرى أن التاجر الخوارزمى نجح فى امتصـاص غضب السلطان محمد ، حتى أنه هون له من أمر المغول ، وحتى قبل للسلطان أن يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع جنكيزخان ، وعاد الرسل الى البلاط المغولى وبدأ التبادل التجارى بين الدولتين ، ونشطت جموع التجـار من المسلمين والصينيين ، فى التعامل التجارى(١٩٣) .

يقول بارتولد : « انه من المشكوك فيه كثيرا أن يكون جنكيزخان قد دبر ذلك ـ كما يقول ـ لاسخاط خوارزمشاه بحيث يجعل الحـرب

---

(١٩١) النسوى ، نفسه ، ص ٨٤ .

(١٩٢) النسوى ، نفسه ، ص ٨٥ .

D'ohsson «op - cit» p. 204.

(١٩٣) الصياد : المغول ، ص ١٠١ .

بينهما أمرا لا مفر منه ومهما يكن من شيء فان القطيعة بين هذين الحاكمين لم تكن بسبب هذا الحادث ويقال أن محمدا خوارزمشاه كظم غيظه خلال مقابلته للوفد الذى أرسله الخان ، ولم يبح بذلك الا فى الليلة التاليـــة لرسول من الرسل ، وقد يلقى منه تفسيرا مرضيا لهذا الأمر ، ثم صرف الرسل بعد أن رد عليهم ردا حسنا »(١٩٤) .

ولم يمض وقت قصير على توقيع المعاهدة التجارية بين الدولتين حتى قام جنكيزخان بعمل اعتبره السلطان الخوارزمى عمـــلا عدوانيا واستهانة بحقوقه . ذلك أن جنكيزخان قام باخضاع القبـــائل التركية وغيرها المنتشرة فى أواسط آسيا بحجة تأمين الطرق التجارية ، والضرب على أيدى المعتدين من اللصوص وقطاع الطرق ، حتى تكون التجارة فى مأمن من شرورهم وعبثهم وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله وكلفهم أن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة الى معسكرات المغول ، وكان هؤلاء الحراس يسمون قراقجية أى مستحفظين(١٩٥) .

وفى هذه الآونة وفى أثناء فترة السلام هذه حدثت حادثة أثرت على العلاقات بين القوتين فقد خرج ثلاثة من التجار الخوارزميين الى أقصى الشرق حيث معسكرات المغول وبلاط جنكيزخان يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس(١٩٦) وغير ذلك . وقد خفرهم حراس الطرق ، « المستحفظون » وقادوهم الى بلاط جنكيزخان بعد أن وقفوا على ما معهم من السلع ، وعرفوا أن مع أحدهم ويدعى أحمد من الثياب ما يليق بمقام جنكيزخان نفسه ، فلما مثل هذا الرجل بين يدى الخان طلب أثمانا باهظة لبضاعته ، فحنق عليه واغتصب بضاعته وجعلها لأفراد

---

(١٩٤) فهمى : ص ٥٠ ، حافظ حمدى ، ص ٦٩ .

(195) Juwaini «p - cit» vol. p. 69.

(١٩٦) الكرباس : لفظ فارسى معرب ومعناه الثوب الخشن .
انظر احفظ حمدى ، ص ٦٩ .

حاشيته ثم قبض على التاجر الشره ، ولما مثل التاجران الآخران أمام جنكيزخان لم يجرؤ أحدهما على طلب ثمن البضاعة وتظاهرا بأنهما انما جاءا بها هدية وأخيرا أمطر جنكيزخان هذين التاجرين بالذهب والفضة وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث فعفا عنه(١٩٧) . واعطاه ثمنها مجزيا لما كان يحمله ، ولم يقف عند هذا الحد بل أعز التجار الثلاثة وأكرمهم(١٩٨) .

أقام التجار فى أراضى الدولة المغولية ، وعوملوا معاملة طيبة وعندما قرروا مغادرة البلاد ، قرر جنكيزخان أن يختار كل أمير مغولى وكل قائد من قواده ، واحدا أو اثنين من أتباعه لتكوين قافلة تحمل الأمتعة المختلفة ، وتصحب هؤلاء التجار الخوارزميين الى ممالك السلطان لتبادل التجارة هناك ، وبهذا تكون وفد مغولى كبير بلغ عدد أفراده ٤٥٠ رجلا كانوا كلهم مسلمين(١٩٩) ، وهؤلاء التجار كانوا يحملون أصنافا كثيرة وأمتعة فاخرة من الذهب والفضة والحرير والأقمشة القيمة والمسك والأحجار الكريمة ، ولابد أن ما معهم كان شيئا كثيرا ، اذ كانت القافلة تتكون من خمسمائة من الابل ، وقد كلف جنكيزخان أحد هؤلاء التجار بحمل رسالة خاصة الى السلطان قال فيها « ان التجار وصلوا الينا ، وقد أعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين ، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف ، فينبغى أن يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين ، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين »(٢٠٠) .

الا أن مؤرخنا النسوى يرى أن هؤلاء التجار كانوا أربعة فقط

---

(١٩٧) نفسه ، نقلا عن ابن العبرى ، ص ٤٠٠ .

(198) Juwaini p. 71.

(١٩٩) يذكر ابن العبرى أن عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط من جميع الأديان دون تفريق . ابن العبرى ، ص ٢٣٠ .

(٢٠٠) الصياد ، ص ١٠٣ .

هم عمر خواجه الأترارى ، والحمال المراغى ، وفخر الدين الدنمركى البخارى، وأمين الدين الهروى(٢٠١) .

وصلت هذه القافلة التاجرية الى مدينة أوترار على نهر سيجون، مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها ، وكان يحكم هـذه المدينة ينـال خان ابن خال السلطان فى عشرين ألف فارس ينوب عن السلطان بهـا(٢٠٢) .

ويرى النسوى الذى تحامل كثيرا على النائب نيال خان أن نفسه قد شرهت الى أموال أولئك التجار ، لذلك كتب الى السلطان الخوارزمى يبلغه بأن هؤلاء القوم الذين قدموا الى اترار فى زى التجار ليسـوا تجارا بل جواسيس « أصحاب أخبار » وبدأ يلفق لهم التهم فى أنهم كانوا اا اختلوا بأحد العامة يهددونه بقولهم « انكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيكم ما لا قبل لكم به »(٢٠٣) .

لذلك أمره السلطان أن يحتاط عليهم حتى يقرر أمره منهم الا أن الحاكم صادر أموالهم وقتل جميع أفراد القافلة .

ويرى بن الأثير أن حاكم أوترار قد أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ، ويذكر له ما معهم من الأموال ، فبعث اليه خوارزمشاه يأمر بقتلهم ، وأخذ ما معهم من الأموال ، وانفاذه اليه»(٢٠٤) .

---

(٢٠١) النســوى ، ص ٨٥ .

(٢٠٢) النسوى : نفسه يذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء ، ص ٣١١ والديار بكرى فى كتابه تاريخ الخميس ج ٢ ، ص ٢٦٨ أن نيال خان كان خال السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ولبس ابن خاله .

(٢٠٣) النسوى ، ص ٨٦ .

(٢٠٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٣١ حوادث سنة ٦١٧ هـ.

والحقيقة أن النائب على اوترار تعدى صلاحياته ، ولم يستمع لرأى السلطان فى التحفظ على رجال القافلة ، بل قام بقتل رجالها .

ويؤكد المؤرخ الجوزجانى رأى ابن الأثير فى أن الخليفة أمر نائبه الحاكم على مدينة أوترار بأن يقتلهم جميعا وأن يجوز على سلعهم (٢٠٥) .

وهناك رأى آخر للمستشرق الانجليزى والمؤرخ المغولى ج. ج. ساووندرز قد كان محقا فيما ذهب اليه اذ يقول بأن حيــل جنكيزخان الخادعة ودهاءه الماكر لم يعد يخفى أمره على أحد ، فأصبح معــروفا وعلى نطاق وأسع ، فلم يفت على السلطان الخوارزمى أن يشك فى أنه غالبا ما يختفى الجواسيس ملتقطى الأخبار تحت زى تجار سالمين ، لذلك فقد شكت حكومة السلطان الخوارزمية فى حقيقة أمر تلك القــافلة التجارية التى وصلت الى اترار ذلك المركز الهام الواقع على حدودها الشمالية الشرقية ، وان ما تدعيه من أن هدفها كان تجاريا لم يكن الا ظاهريا يخفى وراءه غير ذلك ، لذلك فقد أقدمت السلطة الحاكمة هناك على القبض عليهم ، وحكم عليهم بالقتل(٢٠٦) .

والذى يبدو لنا هو أن نيال خان « غايرخان » الذى كان حاكما على هذه المدينة قد كان محقاً فى الاشتباه فى أمر أولئك الذين صــحبوا التجار فى عودتهم الى أرض الســلطان ، فقد ثبت لديه بأنهم كانوا جواسيسا وعملاء للمغول استغلوا مجىء تلك القافلة ، فجــاءوا معها ليعرفوا المسالك والطرق ، ومداخل البلاد ومخارجها ، وفى تقريره الذى

---

(٢٠٥) الغامدى : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ نقو عن الجوزجانى ، طبقات ناصرى .

(٢٠٦) الغامدى : المرجع السابق نقلاً عن ج.ج. ساووندرز : تاريخ الفتوحات المغولية ، ص ٥٥ .

بعثه السلطان بعد القبض عليهم يقال بأنه ذكر له « بأنهم يدعون أنهم تجار ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا كذلك ولكنهم جواسيس »(٢٠٧) .

وعلى كل فان السلطان محمد قد قام ببيع البضائع المصادرة لتجار بخارى وسمرقند(٢٠٨) وذكر النسوى أن الذى انتفع بهذه الأمـوال ليس السلطان محمد وانما نيال خان » وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة والأمتعة المنضدة مكيدة منه وغدرا وكان عاقبة أمره خسرا » (٢٠٩) .

ولقد ترك ما حدث لهؤلاء التجار آثاره السيئة على نفسية(٢١٠) جنكيزخان ، لذلك قرر أن يرسل وفدا الى السلطان علاء الدين محمـد مكون من كفرج بغرا كان أبوه من أمراء السلطان تكش ومعه اثنان من التتار ، محملين برسالة اليه فحواها « انك قد اعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار ، وأن لا تتعرض الى أحد منهم فغدرت ونكثت ، والغدر قبيح ومن سلطان الاسلام أقبح »(٢١١) .

وقد طلب جنكيزخان من السلطان محمد من أجل اثبات حسن نواياه أن يسلم نيال خان اليه ليجازيه على ما فعل حقنا لدماء المسلمين وتسليما للدهماء ، الا أنه توعده ان لم ينفذ طلبه » بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح ، وتتعضد معها عوامل الرماح (٢١٢) .

---

(٢٠٧) الغامدى : نفسه نقلا عن أبو الغازى بهادر : التاريخ العام ج ٢، ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢٠٨) ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ٣٣٠ .

(٢٠٩) النسوى ، نفسه ، ص ٨٦ .

(٢١٠) ارجع الى القصة التي رواها ابن لعبرى ، ص ٤٠١ عن الأثر النفسى الذى تركته هذه الصدمة على نفسية جنكيزخان .

(٢١١) النسوى نفسه ، ص ٨٧ .

(٢١٢) نفسه .

الا أن السلطان محمد لم ينفذ مطلب جنكيزخان وذلك لأن نيال خان أصلاً اما خاله أو ابن خاله أى أنه ابن تركان خاتون أم السلطان محمد ، وهى المرأة التى لعبت دورا بارزا فى توجيه السياسة فى هذه الآونة وتركت أثرها على ابنها خاصة فى تسلطها وجبروتها [٢١٣] وكـــان جميع العساكر أيضا من الأتراك وهم كانوا طراز خلته ووجه رزمته والمتحكمين فى دولته[٢١٤] .

لذلك قرر السلطان محمد قتل جميع الرســـل الذين قدموا اليـــه فيالها من قتلة هددت دماء الاسلام ، وجرت بكل نقطه سيلا من الدم الحرام»[٢١٥] .

وقد علق الجوينى على مقتل التجار بقوله « ان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار ، قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف من أرواحهم »[٢١٦] .

وبذلك كانت مذبحة اترارهى الشرارة التى فجرت رغبة جنكيزخان وجعلته يسرع للتنفيس عن غريزته الطبيعية فى الذبح والحرق والتدمير، فزحف بجيوشه الجرارة يساعده فى قيادتها أبناؤه الأربعة ، وبعـض حلفائه وأعوانه من زعماء القبائل مثل أمير الأيغور وأمير المالق وأمـير

---

(213) Barthold « Tunkestan » p. 394.

(٢١٤) النسوى ، ص ٨٨ .

(٢١٥) النسوى ، نفسه ، ص ٨٨ .

.. يرى المؤرخ دوجلاس أن علاء الدين لم يقتل الرسل الثلاثة بل قتل زعيمهم بن كفرج واطلق سراح الاثنين الآخرين بعد أن حلقت لحيتاهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيزخان كما شاهداها .

D'ouglas « The Life of Genghiz Khan » p. 15.

(216) Juwaini «op - cit» vol. I, p. 81.

الكارلوك وبقدر ما كان جنكيزخان فى زحفه متحفزا قوى العزيمة شديد الرغبة فى الانتقام بقدر ما كان خوارزمشاه علاء الدين محمد مترددا لا يدرك ما يعمل بعد مذبحة التجار(٢١٧) ، وقد وصفه ابن الأثير وهو فى هذه الحالة بقوله « فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ يفكر فى خطرهم ، فاستدعى الشهاب الحيوفى وهو فقيه فاضل ، واستشاره بالأمر الذى وقع والخطر الذى يتهددهم ، أشار عليه بخطة ، فلما استشار أمراءه أشاروا عليه برأى آخر ، فبينما هو فى الاستشارة اذ وردهم رسول جنكيزخان يتهددهم فردوا عليه بجواب الاستعداد للحرب »(٢١٨) .

الا أن بارتولد يقول ان مسألة اتجاه جنكيزخان لمحاربة السلطان لا ترجع الى مذبحة اترار بل انها ترتبط بخطة جنكيزخان فى الفتح والغزو ، وكثيرا ما يقال أن خطط جنكيزخان ان لم تكن بتحريض من دول أجنبية فقد كانت على الأقل تلقى تأييدا من الخارج وبخاصة من خليفة بغداد الناصر ، وذلك على حين أن الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الاسلامية عن هذه الحرب يدل على أن محمد خوارزمشاه سبب هذه الحرب أو على الأقل عجل بقيامها(٢١٩) .

وهنا لابد لنا من وقفة سريعة قبل أن نسرد تفاصيل حملات جنكيزخان على الدولة الخوارزمية التى كانت مفتاحا لغزو العالم الاسلامى وقلبه النابض بغداد ، فهذا مؤرخنا الكبير بن الأثير يعبر عن خاطرته حول هذا الموضوع قبل أن يسجل لنا أحداث الغزو المغولى بقوله ، لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم رجلاو أوخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن

---

(217) Ibid.

(٢١٨) ابن الأثير ، جـ ٩ ، ص ٣٣١ .

(٢١٩) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٤٩ .

يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليته أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »[٢٢٠] .

ولعل فيما ذكره بن الأثير خير دليل على النكبة الكبرى التى بدأت تدق أبواب الاسلام بدءا بالدولة الخوارزمية .

ولابد لنا أن نوضح الآن الاستعدادات التى تمت من كلا الطرفين المغولى والخوارزمى فى المواجهة الحاسمة التى باتت وشيكة .

بدأ السلطان محمد فى اعداد جيشه فبدأ أولا ببناء سور على مدينة سمرقند يبلغ اثنى عشر فرسخا وشحنه بالرجال والمقاتلة ، وقام بتفريق العمال والجباه فى جميع أرجاء البلاد من أجل جمع الخراج عن عام ستمائة وخمسة عشر من أجل بناء السور ، وبعث بجباة آخرين الى بقية الممالك الاسلامية وأمرهم بجباية خراج ثالث فى سنتهم تلك ، وأمر أن يستخدم بها رجال رماة مكملة العدة ، ويكون عدد رجال كل جهة على قدر ما يحصل منها من المال قليلا كان أو كثيرا يكون لكل واحد منهم حمل يركبه ويحمل سلاحه وزاده[٢٢١] .

وقد اقترح الامام شهاب الدين الخيوفى الذى كان يعتقـــد فيه السـلطان كثيرا بأن يرسـل الرسل والرسائل الى كافة البلاد لجمـع العساكر ، واستنفار الناس للدفاع عن الاسلام وجمـع التبـرعات والمعونات لايقاف عبور المغول نهر سـيحون لكن أمراء الجيـش لم يستحسنوا هذه الفكرة ورءوا انه من الأفضل ترك المغول يعبرون نهر سيجون ثم اصطيادهم بعد ذلك فى بلاد ما وراء النهر التى لا يعرفون مسالكها ، بل وقطع المدد عنهم واهلاكهم »[٢٢٢] .

---

(٢٢٠) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٢٩ .

(٢٢١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٨٩ .

(٢٢٢) الصياد : المغول ، ص ٥٧ .

قام بتفريق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك « ولم يترك بلدا من البلاد مما وراء النهر خاليا من عسكر »(٢٢٣) .

أما عن جنكيزخان فقد بدأ يرتب جيشه وفق خطة محكمة وهى توجيه ضربته للخوارزميين عبر أربع جهات ، لذلك قام بتقسيم جيوشه الى أربعة جيوش كل منها موجه الى منطقة بعينها .

الجيش الأول بقيادة ابنه جغتاى « أوكتاى » وهذا الجيش مكون من سبعة تومانات « التومان يساوى عشرة آلاف » أى أنه سبعون ألف جندى وقد ترك جنكيزخان لهذا الجيش مهمة فتح مدينة أترار .

الثانى بقيادة ابنه الأكبر جوجى ، وقد عهد اليه بمهمة فتح البلاد التى تقع على ساحل نهر جيحون ، وخصصا مدينة « جند » احــدى الحصون الاسلامية الهامة التى تقع على هذا النهر .

الثالث وهو عبارة عن فرقة صغيرة تتكون من ٥٠٠٠ جندى ، وقد أمرت بأن تفتح مدينتى بناكت وخجند وكانتا من أهم المنافذ على نهــر سيحون .

الرابع يتكون من أغلب قوات المغول ، وعلى رأسه جنكيزخان نفسه ، كما سار معه ابنه تولوى أو تولى ، قاصدا وسط اقليم ما وراء النهر ، وخاصة بخارى .

---

(٢٢٣) النسوى : ص ٩١ .

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل السبب الذى دفع علاء الدين محمد خوارزم شاه الى توزيع قواته على المدن الوخارزمية المختلفية فيرى جيبون انه ظن أن المغول سيحلون حصار هذه المدن العــديدة . ومن ثم يعودون الى بلادهم دون أن ينالوا من هذه المدن أو من ساكنيها منالا ، ويرى سايكس Sykes ان علاء الدين محمد خوارزمشاه ظن فى ذلك الوقت أن المغول سيكتفون من البلاد الاسلامية بنهب ما تصل اليه أيديهم من الغنائم ثم يعودون عن ذلك انظر حاشية رقم ٥ للمحقق .

وكان يهدف من وراء ذلك الى الحيلولة دون اتصال السلطان محمد ببقية جنوده الذين يدافعون عن البلاد المحاصرة(٢٢٤) .

وبذلك نرى أن جنكيزخان قد خطط تخطيطا دقيقا لحصر العالم الاسلامى بين كماشة قوية ، وهذا يؤكد أيضا مدى الروح الانتقامية المدمرة التى خرج بها جنكيزخان حتى أن المؤرخ لام يشبه قوته هذه « بالريح العاصفة والزلزال العالمى » ، فقد استطاعت هذه القوة البشرية أن تصل الى حدود آسيا الشرقية والغربية، وان سقوطها الوعر، بعقل لا يختلف عن عقل الحيوان الذى لا يكترث لتعذيب البشر الشره لكل ما هو جديد براق ، والذى يندفع اندفاع الأطفال الذين لا يدركون معنى المسئولية(٢٢٥) .

وقد وصلت أول هذه الجيوش الى مدينة أترار التى تعتبر مفتاحا لاقليم ما وراء النهر ، ومازال يحكمها نيال خان ، وقد ركز المغول هجومهم على هذه المدينة بالذات لأنها المدينة التى شهدت مذبحة التجار(٢٢٦) .

وقام ينال خان بتحصين المدينة تحصينا شديدا ، وقد قاومت أترار جيش جقتاى وأوكتاى أكثر من خمسة أشهر استبسل فيها اينال خان الذى كان يحس أن سلامته فى استمرار مقاومته حتى سقط جميع رجاله حوله ، وبقى وحيدا يصارع الغزاة بالحجر (٢٢٧) ، ولولا خيانة بعض قواده لطالت مقاومته ، ثم اقتيد حيا الى معسكر جنكيزخان « فأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه فقتل تعذيبا جزاء عن فعله

---

(٢٢٤) الصياد ، ص ١١٢ ، فهمى ، ص ٥٨ — ٥٩ .

(225) Harold Lamp The Crusades, The Flame of Islam. p. 337.

(226) D'ohsson «op - cit» pp. 218 - 221.

(٢٢٧) فاميرى : تاريخ بخارى ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

الفظيع وخطبه الشنيع وسعيه المذموم عند الجميع »(٢٢٨) وبذلك سقطت أهم مدينة تفتح الطريق أمام الجيوش المغولية لتجتاح مدن ما وراء النهـــر(٢٢٩) .

أما الفرقة المغولية الثانيـــة والتى كان على قيـــادتها جوجى بن جنكيزخان ، فانها توجهت الى مدينة جند ، واســـتولت فى طـــريقها على كثير من المدن والقلاع الواقعة على نهر سيحون ، وتمـــكن بذلك جوجى من السيطرة على مجرى النهر تقريبا ، وعندما اقترب من مدينة جند ، غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم(٢٣٠) .و قد أرسل قواد جنكيزخان رسولا الى جند يدعو الأهالى الى التسليم ، فانقسموا على أنفسهم فمنهم من يرى ضرورة الدفاع عن المدينة ، ومنهم من يرى عدم جدوى المقاومة ويدعو الى التســـليم فى الحال(٢٣١) . لعل الأهالى يجدون فى ذلك خير حل ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول ، والظاهر أن هذا الرأى كان يناصره أغلبية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ما داخل المدينة وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها . وأخيرا سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها وقتل من قتل من المغول وبعد أن وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما مخلصين أصدر أوامره لجنوده بالعبور الى اقليم خوارزم(٢٣٢) . وبذلك سيطر على القسم الغربى من بلاد ما وراء النهر وقطع اتصـــال الخوارزميين بـــه(٢٣٣) .

---

(٢٢٨) النسوى ، ص ٩١ .

(229) D'ohosson «op - cit».

(٢٣٠) فهمى : تاريخ الدولة المغولية ، ص ٥٩ .

(٢٣١) الصياد : ص ١١٤ .

(232) D'ohsson «op - cit». pp. 221 — 223.

(٢٣٣) فاميرى : تاريخ بخارى ، ص ١٦٦ — ١٠٨ .

أما عن الجيش الثالث فقد خرج للاستيلاء عــلى منطقة فرغانة والوادى الأعلى من نهر سيجون ، وقد بدأ هذا الجيش ممهته بمحاصرة مدينة بناكت أو فناكت الواقعة على هذا النهر ، وكان حاكمها من الأتراك وبعد ثلاثة أيام دخل المغول المدينة بعد أن كف الأهالى عن مقاومتهم وقبلوا تسليمها اليهم(٢٣٤) • وبعدها غدروا بأهلها ، وما أن دخلــوها حتى فصلوا الجند عن الأهالى المدنيين ، واعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول ، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية ، ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة خجندة الواقعة على نهر سيحون فتركها قائدها والتجأ الى جزيرة صغيرة فى وسط النهر بعيدة عن شاطئه فحاصروه حصارا شديدا(٢٣٥) ، ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقرابة خمسين ألف شــاب من الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية ، فكلفهم المغول باحضار الأحجار من الجبال المجاورة والقائها فى النهر ، وأخــيرا لاذ الحاكم الخوارزمى من مكمنه بالفرار من وجه المغول فى سبعين مركبا بعد أن شحن جنده وامتعته وسار فى النهر متجها الى الشمال ، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبى النهر الذى سدوه بقنطرة من السفن ، فما كان منه الا أن امتطى صهوة جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس ، واستطاع الافلات بنفسه فقط من حصارهم والوصــول الى مدينــة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للســلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه(٢٣٦) •

---

(٢٣٤) الصياد ، ص ١١٥ •

(235) D'ohsson «op - cit» p. 221 — 223..
Howorth «History of the mongols» p. 77.

(٢٣٦) فهمى ، ص ٦٠ •

الاستيلاء على بخارى :

خرج الجيش الرابع الذى كان يقوده جنكيزخان وابنه تولوى تجاه مدينة بخارى • واصطحب جنكيزخان معه أمور قواد المغول ، وقد استولى على المدن التى صادفها فى الطريق ، وعين على كل منها حاكما من قبله ، ثم اتجه الى حصار بخارى سنة ٦١٦ هـ/١٢١٩ م وقد قصد جنكيزخان بذلك أن يقطع بين السلطان وبين عساكره المتفرقة حتى لو بدا له فيما فعل من نفرقهم لم يقدر على جمعهم (٢٣٧) •

وقد كان السلطان محمد خوارزم شاه قد أمر أهل بخارى وسمرقند « بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل فى بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفى سمرقند خمسين ألفا »(٢٣٨) •

ورغم هذه الاستعدادات الا أن المغول نجحوا فى حصار بخارى « وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا »(٢٣٩) فى الوقت الذى عجزت فيه القوات الخوارزمية عن مجابهتهم وهربت معظمها الى خراسان وسلم الباقون لجنكيز خان كما قال النسوى أن أهلها « تجادلوا واستبدلوا بمسكة العزائم هتكة الهزائم »(٢٤٠) •

وقد قدم اليه قاضى المدينة بدر الدين قاضيخان ، ومعه طائفة من الأعيان يطلبون الأمان ، فى الوقت الذى اعتصم فيه بعض المدافعين داخل قلعة المدينة(٢٤١) •

---

(٢٣٧) النسوى ، ص ١٠٠ •
(٢٣٨) ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ٣٣٢ حوادث ٦١٧ هـ •
(٢٣٩) نفســه •
(٢٤٠) النسوى ، ص ١٠٠ •
(241) Juwaini «op - cit» vol. I. 85.

اجاب جنكيز خان أهل البلاد الى طلبهم ، وفتح ابواب المدينة فى الرابع من ذى الحجة سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م « فدخل الكفار بخارا » وبعدهم دخل جنكيز خان بنفسه ، واخاط بالقلعة ونادى فى البلد بألا يتخلف أحد ومن يتخلف قتلوه فحضروا جميعهم « فأمرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب »(٢٤٢) .

ويروى الجوينى ان جنكيز خان دخل المدينة ليتفقد ما فيها ، ثم ذهب الى المسجد الجامع ووقف أمام المقصورة ، وسأل عما اذا كان هو مقصد السلطان فلما قيل له انه بيت الله ترجل عن حصانه وصعد المنبر ، وصاح قائلا « كانت الصحراء خالية من العلف أما الان فاملأوا بطون خيولكم واشبعوها ، وعلى الفور قام جنده ونهبوا المدينة وفتحوا المخازن واستولوا على الغلات ، ثم حملوا الى فناء المسجد عدة صناديق تحتوى مصاحف القرآن الكريم ، والقوا بها تحت حوافر الخيل وحولوا الصناديق الى مذاود للخيول ، وبعد ذلك أحضروا كئوس النبيذ والمغنيات من المدينة ، وصاروا يشربون ، ويسمعون ويرقصون ويغنون وفق أصول غنائهم وألحانهم ، بينما وقف الأئمة والمشايخ والسادات والعلماء والمجتهدون أمام المزاود يعلفون الخيول ويحافظون عليها ، وينفذون ما يصدر اليهم من اوامر » (٢٤٣) .

اتجه المغول بعد ذلك الى قلعة المدينة كان يحتمى بها حوالى اربعمائة فارس ظلوا يجاهدون ويعملون على عدم تسليم القلعة لمدة اثنى عشر يوما حتى وصل النقابون الى سور القلعة واحتدم القتال « حتى تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لاقبل لهم به فقهرهم

---

(٢٤٢) ابن الاثير نفسه .

(243) Juwaini «op - cit» pp. 85 - 86.

الكفار (٢٤٤) وبذلك سقطت قلعة بخارى فى أيدى المغول ، وبعدهـا أمر جميع أهل المدينة بالخروج منهـا مجردين من أموالهم ، ليس مع أحـد منهم غير ثيابه التى عليه ، ودخل المغول المدينـة ويصف ابن الاثير هذا اليوم « بأنه كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجـال والنسـاء والولدان ، وتفرقوا أيدى سبأ وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضـا ، واصبحت بخارا خاوية على عروشها •• كأن لم يغن بالامس ، وارتكبوا من النسـاء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدافعو عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ، فمنهم من لو يرض بذلـك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل •••• ومن استسلم اخـذ اسيرا والقوا النار فى البلد والمدارس والمسـاجد ، وعذبوا النـاس بأنواع العذاب من طلب المال » (٢٤٥) •

الاستيلاء على سمرقند •

بعد ان انتهى جنكيز خان وجيوشه من غزو بخارى اتجهوا ناحية سمرقند « مستصحبين معهم الاسرى مشاة على أقبح صوره وكل من أعيا وعجز عن المشى قتل » (٢٤٦) وكانت المدينة من اكبر مدن ماوراء النهـر واكثرها أهميـة •

عند وصـول المغول الى حدود سمرقند تركوا الاسرى والاثقال خارج المدينـة وتقدموا بالخياله الى داخلهـا فى اليوم الاول وفى اليوم الثانى وصل الاسرى والرجال والانتقال ، ومع كل عشرة من الاسرى علم فظن أهل المدينة أن هؤلاء جميعا هم جيش المغـول • وقـد قـام هؤلاء المحاصرون بالاحاطة فى المدينة التى كان بداخلهـا حـوالى

(٢٤٤) الاثير نفسـه •

(٢٤٥) نفسه ص ٣٣٣ ، فلبرى — تاريخ بخارى ص ١٧٠ — ١٧٣ •

(٢٤٦) نفسـه •

خمسين ألف مقاتل من الخوارزميين . « وامام عامة البلد فلا يحصون » (٢٤٧) وقد كان بداخل المدينة عشرون فيلا اعدت للدفاع عن المدينة (٢٤٨) فى الوقت الذى تسرب اليأس فيه الى نفوس أهل المدينة . وقضى جنكيز خان اليومين الاولين فى تفقد حصون المدينة واختبارها . وفى اليوم الثالث أمر جنوده بالهجوم فتقدم عدد كبير من المحاربين الشجعان من الحامية الخوارزمية والتحموا بالمغول الا أن هذه الحامية الخوارزمية هزمت وكان على رأسها طغاي خاتون أخى تركان خاتون مما كان له أكبر فى اثارة مخاوف الجنود المحاصرين ، ولما كانت اكثر الحامية الخوارزمية من القبائل التركية التى تقيم على حدود الدولة الخوارزمية الشمالية رأى هذا الفريق من الجند أن تستسلم للمغول ويعرض الصلح على أساس أنهم هم والمغول من أصل تركى واحد (٢٤٩) .

وافق جنكيزخان على ما عرضه عليه الأتراك بشرط أن يسلموا للمغول سلاحهم وأموالهم وداوبهم ، فوافقوا ، وبعد أن اعطاهم الامان فتحت ابواب المدينة أمام المغول ، فدخلوها دخول الظافرين ، وجريا على عادة جنكيز خان فانه لم يحترم عهدا ، لذا قام المغول بقتل جميع الاتراك الذين أمنوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ونساءهم ودوابهم (٢٥٠) .

ويذكر رشيد الدين انه سمح اخيرا لحوالى خمسين ألفا من السكان بالعودة الى المدينة بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية (٢٥١) .

---

(٢٤٧) ابن الاثير « نفسه ، بارتولد » تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٦٠ حيث يقول ان حاميتها كانت تتالف من ٦٠ الف من الترك ، ٥٠ الف من التاجيك .

(248) Howorth. op. - cit., p. 79.

(٢٤٩) ابن الاثير .. نفسه .

(٢٥٠) نفسه .

(٢٥١) رشيد الدين « جامع التواريخ ج ١ ص ٩٦ .
Barthold. p. 163.

أما فى اليوم الرابع طلبوا من جميع أهل سمرقند الخروج منها ومن تأخر عن طلبهم قتلوه لذلك خرج أهلها ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى وبعدها دخلوا المدينة « فنهبوا ما فيها واحرقوا الجامع ، وتركوا باقى البلد على حاله ، وافتضوا الابكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال ، وقتلوا من لم يصلح للسبى » (٢٥٢) .

ويورد المؤرخ الصينى شانج شون Chang Chun . وهو أسقف صينى صحب جنكيز خان فى غزواته ، وكتب مؤلفا بالصينية عن هذه الرحلة ، فقد ذكر ان مدينة سمرقند كانت قبل اكتساح الدولة الخوارزمية تضم اكثر من مائة ألف أسرة ، ولكن بعد استيلاء المغول على هذه المدينة ، لم يبق فيها سوى ربع سكانها . كذلك ذكر ان كثيرين من العمال الصينين انتشروا في هذه المدينة ، ورغم ان الممتلكات ظلت فى أيدى المسلمين ، فان ادارتها كانت تحت اشراف الجيش المغولى (٢٥٣) .

وبسقوط سمرقند تمت لجنكيز خان السيطرة على معظم بلاد ما وراء النهر الا بعض مناطق داخلية لم تطل مقاومتها ، وانفتحت أمامه أبواب خراسان وبقية الولايات الغربية التى لم تكن مستعدة للقتال .

---

(٢٥٢) ابن الانير . ص ٣٣٣ ص ٩ ، بارتولد »

(٢٥٣) حافظ حموى « الدولة الخوارزمبة المغول » ص ١٢٦ .

موقف السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه من الغزو والمغـولى

وقعت أخبار الغزو المغولى على المدن الخوارزمية اترار وبخارى وسمرقند وقع الصاعقه على مسامع السلطان علاء الدين محمد . الـذى حار فى أمره ، وأراد أن يتخذ الخطوات المناسـبة التى تحمى اقليم خوارزم وبقية ممتلكاته من هـذا الغزو المدمـر ، الى جانب رغبته فى حماية آل بيته من المصير المحتوم الذى لا بد أن يتعرضوا لـه اذا اكتسحهم المغـول .

وآثرت قبل أن أدخل فى الموقف الايجابى الذى اتخـذه السلطان محمد أمام هـذا الغزو أن ابحث موقفه الداخلى أولا ، وما كـان يعانيه من اضطرابات داخل بلاده .

فقد كان أهل البلاد يكرهون السلطان محمد بسبب جنده الاتراك الذين لم يراعـوا عدلا أو رحمة فى معاملتهم للسكان ويذكـر الجوينى فى ذلك قائلا « لقـد كانت الرحمة والشفقة بعيدين كل البعد عنهم ، وازيحتا من قلوبهم ، فاى بلد مروا به أو حلوا فيه فأنهم يقومون بتدميره فيهرب سكانه ويلتجئون الى أماكنهم الحصنية ، ويطلبون الامـان داخل أسوارها ، ففى حقيقة الامـر كانت تصرفاتهم الرعنـاء ، وجلافتهم الهمجيه وعنفهم ، وأرواحهم الشريره هى التى تسببت فى سقوط أسرة السلطان » (٢٥٤) .

وهناك آراء تقول ان رجال الدين قد كرهوا حكم السـلطان علاء الدين محمد ، وذلك لانه قام بالقبض على الائمة والاعيان فى بلاد ماوراء النهـر واجبرهم على الرحيل ونفاهم — وقـام بنشر دعاية واسعة

---

(254) Juwaini «op - cit», vol. I. p. 465.

على انه ينوى أن يقصـد بغداد على رأس حملة عسكرية ضـد بنى العباس ، كذلك تفاقمت نظرة رجال الدين والعلماء الاسلاميين تجـاه السلطان محمـد عندما أمر بحذف اسم الخليفة العباسى الناصر من خطاب أيام الجمع والمناسبات فى أراضى سلطنته (٢٥٥) .

يحـاول النسـوى أن يلقى تبعة قضية كراهية الشـعب والقواد العسكريين وتركان خاتون للسـلطان علاء الدين محمـد على اكتاف أحد نوابه المدعو بدر الدين العميد .

ويصور النسوى دور الخيانة الذى لعبه بدر الدين العميد ، وهو الذى كان يشغل وظيفة النائب عن الصفى الاقرع وزير السلطان علاء الدين بأترار . فيذكر أنه عندما نجح جنكيز خان فى دخول اترار ، حضر اليه ابن العميد هـذا الذى كان كارها للسلطان علاء الدين الـذى سبق وان قتل أباه وعمه ، وبين لجنكيز خان أنه يحقد على السـلطان حقدا شديدا قائلا « لو قدرت على استيفاء ثأرى منه ببـذل روحى لفعلت (٢٥٦) . وبدأ يشرح لجنكيز خان مدى قوة السلطان العسكرية ، وضرورة احترازه من ان تفريق السلطان لعساكره فى البلاد ليس الا خطة مدبره . ثم عمـل بعد ذلك على تخطيط خطة الغرض منهـا التفريق بين خوارزم شاه وجنوده وبينه وبين أمه تركان خاتون .

وتم الاتفاق بين ابن العميد وجنكيز خان على أن يزور بن العميـد كتبا عن لسان الامراء أقارب تركان يسوءون فيهـا العلاقة بين السلطان وامه وبعث جنكيز خان بهذه الكتب الى خوارزم شـاه من ناحية والى أمه من ناحية أخرى بين للطرفين سوء نية الآخر ، حتى أنه حرض تركان خاتون على ابنها وبين لها أن لن يتعرض لهـا بقوله « ولست بمتعرض

---

(٢٥٥) الغامدى « اوضاع العالم الاسلامى » ص ٢٨١ .

(٢٥٦) النسوى « سيرة السلطان » ص ٩٢ .

الى ما تحت يدك من البلاد ، فان أردت ذلك بعثت الى من يستوثق لـك منى فتسلم لك خوارزم خراسان وما تتاخمها من قاطع جيجون » (٢٥٧) .

والحقيقة ان تركان خاتون وهى أم السلطان كانت أمرأة قوية متسلطة ذات نفوذ كبير فى الدولة حتى أنها شاركت ابنها مقاليد الحكم وعينت أقاربها فى التسلطة مثل نيال خان وغيره ، وقد كانت من قبيله بياروت (٢٥٨) كان ابوها ملك من ملوك الترك ، ثم تروجت من تكش بن ايل أرسلان .

وقد وصفها النسوى أولا بأنها « ذات مهابة ورأى ، واذا رفعت الظلامات اليها تحكم فيها بالعدل والانصاف ، كانت تنصف المظلوم من الظالم (٢٥٩) » الا أن النسوى نفسه يذكر لنا واقعة ثانية هامة تؤكد ان هذه السيدة كانت غليظة القلب سيئة الخلق بدليل أنها عندما وصلها الخبر من جنكيز خان بأن جنود السلطان قد انسحبوا من بلاد الترك ، وان السلطان هرب عند حافة جيجون لذلك قلقت تركان خاتون ، ورأت ضرورة ترك مدينة خوارزم ، الا أنها « قدمت عند خروجها من نقيض البر ، ما أرخ الزمان بسوء الذكر ، وانباء سبة مخلدة على وجه الدهر » (٢٦٠) فقامت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الاسارى وأبناء الملوك وذوى المراتب المنيعة من كبار الصدوور وسادات العزوم زهاء اثنى عشر نفسا محرمة » (٢٦١) .

---

(٢٥٧) النسوى « نفسه » ص ٩٣ .

(٢٥٨) هى فرع من قبائل كانكالى ، ويرجع أصلها الى السهول الواقعة فى شمال خوارزم وفى الشمال الشرقى من بحر قزوين
D'ohsson «op - cit» p. 196.

(٢٥٩) النسوى « نفسه » ص ٩٩

(٢٦٠) نفسه ص ٩٤ .

(٢٦١) نفسه .

لذلك نرى أن هذه الشخصية كان لهـا أثرهـا على زعزعـة مركز علاء الدين محمد ، وعلى قيام بدر الدين العميد بدوره الخيانى هـذا • وقد توجهت تركان خاتون ـ وحاشيتهـا من خوارزم الى العراق العجمى ، وحملت معهـا الخزائن وقافلتهـا النسائية ؛ ومن يحرسهم من رجال الى قلعة ايلال بمازندران (٢٦٢) ، ولكن المغـول كانوا أسرع منهـا ، وما ان بلغهم خبر رحيلهـا حتى تتبعوهـا فوقعت أسيرة فى أيديهم ، • وقادوها وحاشيتها وابناء السلطان الى معسكر جنكيز خان حيث ظلت أسيرة لديهم ، وصحبوها معهم الى العاصمة قره قورم حيث ماتت سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م ، أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم ، كما أعطى ابنه جغتاى اثنتين من بنات السلطان محمد فتزوج واحده منهمـا ، واهدى الثانية لاحد رجاله المقربين ، كما أعطى جنكيز خان ابنه ثالثة من بنات السلطان لحاجبه دانشمند (٢٦٣) •

ولابد لنا أن نعرض الان لموقف السلطان محمد ازاء جحافل المغول بعد ما رأينا ما أصاب جبهته الداخلية •

أولا ان السلطان عندما رأى الهزائم تترى عليه استدعى الشيخ شهاب الدين الخيوقى (٢٦٤) • لاستشارته فى الموقف الراهن للوقوف أمام المغول فنصحه الشيخ بالتمركز • على ضفـاف نهر سيحون ، وملاقاه المغول بعد عودتهم ، والاجهاز عليهم •• ومع ذلك فان السلطان قام بتفريق عسكره على مختلف المدن فى بلاد ما وراء النهر •

---

(٢٦٢) الذهبى « العبر فى خبر من غبر » جـ ٥ ص ٥٩ •

(٢٦٣) النسوى ص ٩٥ — ٩٦ — ٩٧ — ٩٨ •

(٢٦٤) كان فقيها فاضلا مبرزا مفتيا فى مذهب الشافعى رضى الله عنه وقد جمع الى الفقه والطب والخلافة وسائر العلوم الفصاحه واللسـن والتدبير الحسن . النسوى ص ١٠٩ •

وفى هذه الفترة كان جنكيز خان يدرك أن بقاء خوارزمشاه سيحول بينه وبين السيطرة على البلاد والخلود الى الراحة ، لذلك انتدب قائديه تشيبى وسبوتاى لملاحقة خوارزمشاه وجهزهما بفرق من جيشه سماها ابن الاثير « الفرق المغربة » (٢٦٥) ، وقد أمرهما جنكيز خان بالسير رأسا فى اثر علاء الدين ، فاذا وجداه على رأس جيش كبير فليتجنبا الاصطدام بجيوشه انتظارا لوصول المدد من الجيوش المغولية أما اذا ركن علاء الدين الى الفرار فيجب عليهما أن يتبعاه بلا تردد .

وقد أخذ هذان القائدان يبحثان عن السلطان الهارب واستوليا على المدن التى صادفاها فى الطريق ، وخربا المدن التى قاومت وابقيا على تلك التى لم تقاوم (٢٦٦) .

أما علاء الدين محمد ، فقد غلب عليه الخوف والهلع ، وهام على وجهه لا يلوى على شىء وزاد من رعبه ما بلغه من سقوط بخارى وما أصابه من تخاذل الناس عنه والتحاقهم بالمغول ، حتى كان منهم أخواله ، حينئذ انقطع أمله من البلاد ، واصبح كما يقول النسوى « ومن هناك وهى الامر ، وانبثق العسكر ، وانفصمت العرى وانتقضت المراير والقوى ، ولكل مرير انتقاض ، ولكن أمر انقراض كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينتزعه عمن يشاء وهو الفعال لما يريد (٢٦٧) .

وقد أرسل السلطان وهو فى مدينة ترمذ الى أهل بيته أن يخرجوا من خوارزم وان يتوجهوا لمقابلته فى مازندران ومن هذه

---

(٢٦٥) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٣٣٤ .

(266) D'ohsson « Histoire des mongols » p. 260.

(٢٦٧) النسوى ص ١٠١ .

المدينة أسرع هاربا الى طوس والتى هجرهــا بسرعة واسرع الى نيسابور •• فى الوقت الذى أمر فيه جنكيز خان رجـــاله بتعقبه قائـــلا لهم « اطلبوا خوارز مشاه اين كان ولو تعلق بالســماء حتى تدركــــوه وتأخذوه » (٢٦٨) •

فى هذه الفترة قــرر السلطان علاء الدين الاتجاه الى العراق العجمى نزولا على نصيحه عماد الملك وزير ابنه « ركن الدين » الذى بعث وزيره الى أبنه ليستفيد من خبرته فى ذلك الوقت العصــــيب ، لذلك أشار عماد الملك على السلطان ان يتجه الى العراق العجمى وأوهمه انه سيجد عنده المال والرجال الذين يساعدونه فى صد المغول (٢٦٩) • وقد اجتاز علاء الدين الطريق الى بسطام حيث وقــع اختياره على أحد خدمه الخصوصين ، وكان يثق فيه ثقة تامة ، فسلمه عشرة صـــناديق مملوءة بالجواهر والنفائس ، وأمــره بأن يحفظها فى قلعة أردهن (٢٧٠) • ولكن هذه النفائس وقعت كلهــا فى أيدى المغول عقب القضاء عــلى السلطان بمدة قصيرة وأرسلت جميعها الى جنكيز خان •

أما عن الجيش المغولى فقــد قرر اللحــاق بالسلطان الخوارزمى الى نيســابور فعبروا نهــر جيحون بطريقة أوضحها لنــا الاثير اذ انهم لمــا أقتربوا من النهــر لم يجدوا هناك سفنا تصــلح للعبور ، فصنعوا احواضــا من الخشب وكسوها بجلود البقــر لئلا يتسرب الماء اليهــا ، ثــم وضعوا فيها اسلحتهم وامتعتهم والقوا بخيولهم فى الماء وتعلقوا بأذنا بهــا بعد أن شدوا تلك الاحواض الى اجســادهم « فكان

---

(٢٦٨) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٣٣ •

(269) D'ohsson «op - cit» p. 243.

(٢٧٠) احدى القلاع بين دماوند ومازندران على مســافة ثلاثة أيــام من الرى • الصياد « المغول » ص ١٢٠ •

الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء بالسلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » (٢٧١) .

وقد سارت القوات المغولية وراء السلطان الهارب بسرعـــــة مذهلة حتى أنهـــا لم تترك لـــه وقتا لرؤية نسائه واهل بيته الـــذين جاءوا من خوارزم (٢٧٢) . وكانوا يعينون على كل مدينة يفتحونهـــا قائدا من رجالهم ، حتى نجحوا فى الوصـــول الى العـــراق العجمى واستولوا على مدينة الرى والتى كان لسقوطهـــا أثـــر بالغ فى نفوس الخوارزميين ، فقد أيقن الامراء وقواد الجيوش أنه لافائدة من الدفاع واخذ كل منهم يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك ، وانصرف كل الى شأنه ، وهكذا تفرقت بقايـــا الجيش الخوارزمى واستولى الفزع على نفوس الجميـــع (٢٧٣) .

اما السلطان محمد فقد كان يفكر فى الهرب الى بغداد علة يجد مخرجا من هذا المأزق عند الخليفة العباسى ، غير انه اضطر الى الرجوع عن هذه الفكرة عندما علم أن المغول يتابعونه ، وان الفرصة ضاعت ولم تعد تسنح له لتحقيق هذه الخطة (٢٧٤) . وفى خلال متاهات مازندران وشعابهـــا ، استقر خوارزم شاه فى قرية أبسكون على بحر الخزر القريبة من استراباد (٢٧٥) . وقد كان السلطان محمد يحضر الى المسجد فى هذه القرية « ويصلى به امام القراءة الصوات الخمس ، ويقرأ له القرآن وهو يبكى وينذر النذور ويعـــاهـــد الله باقامة العدل ان كان يكتب سلامته ويقيم فى الملك دعامته (٢٧٦) .

(٢٧١) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٣٤ .

(٢٧٢) الغامدى « ص ٣٠٢ » .

(٢٧٣) الصياد « المغول » ص ١٢١ .

. (274) D'ohsson «op - cit» pp. 251 - 242.

(٢٧٥) فامبرى « تاريخ بخارى » ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(١٧٦) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١٤٦ .

ومما يؤسف له أن هناك بعض رجال السلطان علاء الدين محمـــد انضموا فى هذه الفتـــــرة الى التتار ومنهم ركن الدين كبود خــــان وذلك لان السلطان كان قد قتل عمه نصرة الدين وابن عمه عز الدين كيخسرو ، لذلك قرر الانتقـــــام من السلطان ، وشـــارك التتـــار فى هجومهم على القرية ، وسهل لهم ذلك (٢٧٨) .

وعندما علم السلطان بنبأ هـــذا الهجوم ركب سفينته واسرع بها ، بينمـــا كانت سهام الاعداء تنهال عليه من كل جانب دون أن تصيبه وبلغ من حرص المغول على القبض عليه أن القى الكثيرون منهم بأنفسهم فى الماء يريدون اللحـــاق به ، والقبض عليه فلقوا حتفهم غرقـــــا . واخيرا استطاع أن يصل سالما الى الجزائر الصغيرة المنعزلة فى بحـــر قزوين « فاقام بهـــا طريدا فريدا لا يملك طارفا ولا تليد » (٢٧٨) .

ويضيف النسوى أن أهـــــل مازندران كانوا أصحـــــاب نخـــوه فكانوا يقدمون الى السلطان الطعـــام والشراب وكل ما شييهيه فكان آن اهدوه فرسا رغب فيه ومن عجائب الامر أن السلطان كان يكتب لكل من يقدم اليه طعاما أو شرابا كان يكتب له « توقيعا لمنصب جليـــل أو اقطـــاع طائل » ومنهم مما كان يكتب ذلك لنفسه ، حتى أن ابنه جلال الدين منكبرتى اضطر الى أن يفى بالتزامات أبيه عندما تقلد الســــلطة فيما بعـــد .

الا ان المرض اشتد بالسلطان خاصـــة عندما وصلته أنبـــاء أسر والدته وابنائه وما حل بهم ، فاشتد عليه الحزن . مما أدى الى وفاته فى نفس الجزيرة التى نزل بهـــا . ولم يجـــــدوا له ما يكفنونه بـــه فكفن بقميص الشخص الذى غسله وهو شمس الدين محمود الجاويش ودفن بالجزيرة ســـنة ٦١٧ هـ .

---

(٢٧٧) نفســـه .
(٢٧٨) النسوى : نفسه ص ١٠٧ .

وقد نعاه النسوى بقوله له (٢٧٩) .

أذل الملوك مصاد القروم   وصير كل عزيز ذليلا
وحف الملوك به خاضعين   وزفوا اليه رعيلا رعيلا
فلما تمكن من أمره   فصارت له الارض الا مليلا
وأوهمه العزأن الزمان   اذا رامه ارتدعنه كليلا
أتته المنية مغتاظه   وسلت عليه حساما صقيلا
فلم تعن عنه حماة الرجال   ولم يجد قيل عليه فتيلا
كذلك يفعل بالشامتين   ويفنيهم الدهر جيلا فجيلا

أما ابن الوردى فيقول (٢٨٠)

وفارق المسلمين اوطانه   وملكه متخنا بالمرض
وكم حوى من جوهر مثمن   فما فدى الجوهر هذا العرض

ويذكر الذهبى ان سبب وفاة السلطان أنه أصيب بالاسهال وطلب الدواء فأعوزه الخبر فمات (٢٨١) .

وبذلك آلت السلطة فى الدولة الخوارزمية الى اينه جلال الدين منكبرتى .

---

(٢٧٩) النسوى .. ص ١٠٨ .

(٢٨٠) ابن الوردى « تتمه المختصر فى اخبار البشر » ص ١٥٥

(٢٨١) الذهبى « العبر فى خبر من غير » جـ ٥ ص ٧٠ .

الفصل الخامس

جلال الدين منكبرتى

ومحاولة تثبيت الملك المتداعى

السلطان جلال الدين منكبرتى هوا بن السلطـــان علاء الدين محمد ، الاكبر الا أنه لم يعهد اليه بولاية العهــد فى حياته بل جعلهــا لاخيه قطب الدين أزلاغ شاه ؛ ولم يتراجــع السلطان علاء الدين محمــد عن قـــرار التولية هذا الا وهــو على فراش الموت سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م حيث أوصى بهــا لجلال الدين منكبرتى لثقته فى شجاعته والثـــابت تاريخيا أن السلطان علاء الدين محمد قد قســم الملك فى حيـــاته بين ابنائه فعين لكل واحد منهم بلادا ، ففوض خوارزم وخراســـــان ومازندران الى ولى عهده قطب الدين أزلاغ شاه » [١] وسبب تخصيصه لولاية العهد دون أخويه الكبيرين جلال الدين منكبرتى ، وركن الدين غورشاه ، اتباعه لرأى والدته تركان خاتون وتحريه مرضاتهــا » [٢] حيث كانت أم قطب الدين أزلاغ من نفس قبيله تركان وعشيرتهـــا ، ففضلته على غيره ، وبذلك نرى مدى تدخل الملكة الام فى شــئون الدولة وكيف أنهــا كانت سببا من الاسباب الرئيسية لزعزعة ملك ابنهــا علاء الدين محمــد .

أما عن نصيب السلطان جلال الدين فى هــذا التقسيم فقد عينه أبوه على ملك غزنه وباميان والغور وبست وتكياباذ وزمين داور وما اليها

---

(١) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ٧١ .

(٢) نفســـــه .

من الهند ، ورغم هـذا التقسـيم الا أن السلطان علاء الدين كـان محبا فى قرارة نفسه لابنه جلال الدين ، وكان يرى أنه احـق بالسلطة وولاية العهد لانه على قدر كبير من الشجاعة والبسـالة ، لذلك لـم يجعله يتوجه الى بلاد الهند فى حياته بل عين له نائبا يدعى كرير ملك ، ولم يتوجه جلال الدين الى بلاد الهند الا بعـد مهـاجمة المغول لـه فيمـا بعـد .

وقد كانت تركان خاتون تكره جلال الدين كراهية شـديدة . حتى انهـا بعد ان تعرضت للأسر على يد جنكيز خان طلب منهـا بدر الدين هلال الخادم أن يتفقا على الهـرب الى جلال الدين وذكرهـا « أن الاخبار قد تواترت بشوكته وبسطة باعة واتساع عراضه » (٣) . الا أنها رفضت قـائله « كيف يهون على أن اكون فى نعمة ابن أبى جيجاك » (٤) فالاسر عند جنكيز خـان أحب الى من ذلك .

ومع ذلك وعندما تغيرت الظروف على السلطان علاء الدين محمـد ، وفر هاربا من المغول عند قلعة أسترباد . فما كان منه الا ان « ارتقى زمان جلال الدين الى درجة الملوكية فوفى لـه حقه بالاحسان والانعام جزاء لـه عن خدمته للسلطان » (٥) . والواقـع ان الظروف هى التى خدمت جلال الدين لولاية العهـد . فأولا الاحوال السيئة التى آل اليها السلطان علاء الدين ، وثانيا عندما علم بنبأ أسر والدته تركان خاتون ، فشـعر أنه قد تحلل من سيطرتها ونفوذها ، وقام بتنفيذ قراره الذى صعب عليه تنفيذه أثناء وجودها .

وعندما قلد علاء الدين محمد ابنه جلال الدين منكبرتى فى استرأباد أمرأ بناءه الاخرين أن يقفوا وراءه ليساندوه وان يخلصوا فى ولائهم

---

(٣) النسـوى ص ٩٦ .

(٤) اسم والدة جلال الدين منكبرتى .

(٥) النسـوى ص ١٠٧ .

له ، وإن يخضعوا طائعين لاوامر (٦) وكان عـلاء الدين محمد يـرى ان ابنه جلال الدين هو الشخصية التى تصلح للوقوف أمام جحافل المغول حيث بين لـه « ان عرى السلطنه قد انفصمت والدولة قد وهت قواعدهـا وتهدمت ، وهـذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه ، وليس يأخذ ثأرى منه الا ولدى منكبرتي » (٧) :

أما الجوينى فانه يخالف ما ذهب اليه النسوى فى أن السـلطان علاء الدين قد عزل اوزلاغ شاه عن العرش ، وعين جلال الدين (٨) .
ويهمنا الآن أن نـرى أحوال مدينة خوارزم بعـد أن خرجت منهـا تركان خاتون ، ووفاة السلطان علاء الدين .

تولى أمر خوارزم بعد هذه الاحداث رجلا يدعى كوه دروغان — كان سيئا ، تعثرت الاحـوال فى أيامه ، وتدهورت أحوال النـاس حتى أن الاموال ضاعت ، واصبحت مفتوحة لكل مختلى كما أن أحـوال الجهـات المجاوره أصابهـا ما أصاب خوارزم من تدهور ، حتى استطاع أحد نواب السلطان الوصول الى خوارزم وقام باصلاح ما أفسـده كوه دروغان .

وظل الحال على ذلك حتى قدم الى هناك السلطان جلال الـدين منكبرتي وأخوه أزلاغ شاه وأق شاه (٩) .

استقبل الناس فى خوارزم جلال الدين منكبرتى واخواه استقبالا

---

(٦) رشيد الدين « جامع التواريخ » جـ ١ ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٧) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١٢٠ .

(8) Juwaini «op. - cit» vol. II p. 401.

(٩) النسوى ص ١٢١ .

حسنا وفرحوا كثيرا لمقدمهم « وتباشر الناس بقدومهم تباشر من أعضل داؤه فظفر بدوائه » (١٠) •

الا أن هـذا الموقف الهادىء لم يلبث أن انقلب الى مشـاكل سياسية كبيرة وبدأت عوامل الفرقة والتفكك تعمـل فى داخـل البيت الخوارزمى • ولعل بداية هـذه الفتنه ترجـع الى وجود أعداء كبيرة من الاتراك القنقلى كاناكلى من نفس قبيلة تركان خاتون والـده السلطان علاء الدين وقد ذكرنا أن تركان خاتون كانت ترغب فى اوزلاغ شـاه لذلك سار جميـع هؤلاء الجنود الاتراك سيرتهـا ، وكرهوا أن نتغير ولاية العهـد لصالح جلال الدين منكبرتى ، وبمـا أن هؤلاء الاتراك كانوا يمثلون النسبة الكبرى فى الجيش الذى جمعه جلال الدين ، وكان يقدر بحوالى سبعة الآف فارس • لذلك اصبح السلطان فى وضع سياسى سيىء •

ويذكـر الجوينى فى ذلك انه على الرغم من أن الغالبية العظمى من الشعب والطبقات الراقية والتركية والرجال المتعلمين من جميع فئاتهم ناصروا جلال الدين وحبذوا أن يتولى الحكم بعد والده ، وكانوا كرغبون ان يخدموا تحت سلطته الا أن الاتراك اجبروه على أن يهجر جرجانية واقليم خوارزم (١١) •

وقد حاول جلال الدين اخضاعهم بالقوة فتآمروا على قتله ، وقد كانت القوات التركية التى يقدر عددها بسبعة آلاف جندى تحت قيادة « مقدمهم توخى بهلوان الملقب بقتلغ خـان ويقال انه خـال أوزلاغ شاه (١٢) حتى انهم بدءوا يحرضون اوزلاغ شاه على أخيه وينكرون

---

(١٠) نفسه ص ١٢٢ •

(11) Jawaini «op - cit» sol II p. 402.

(١٢) النسوى ص ١٢٢ •

عليه » رضاه بالخلع كفرانا للنعمة وتواطأوا على أن يقبضوا على جلال الدين فيسلموه أو يقتلوه » (١٣) الا أن الاستاذ بارتولد أورد روايـــة وهى أنهم قرروا سمل عينيه (١٤) •

لذلك لـــم يجد جلال الدين مفرا الا النجاه والهـــرب ، خاصـــة بعـــد أن أعلمه أحـــد رجاله المدعو اينانج خان بخطة الجنود الاتراك فأشـــــار عليه اينابخ بالرحيل صوب خراسان ، مصطحبا معه ثلاثمائة فارس وجعل قيادة هـــذه القوات للقائد نيمور ملك على حسب رواية دوسون D'ohsson أما رواية النسوى فيذكر « دمر ملك » (١٥) • وهو حاكم مدينة جند • وعبر جلال الدين الصحراء التى تفصل اقليم خوارزم خراسان فى ستة عشر يوما وصـــل بعدهـــا الى الاراضى القريبة من مدينـــة نســـا (١٦) •

وقد استمر اوزلاغ شاه مقيما فى خوارزم ومعه القوات التركية المتمردة لمدة ثلاثة أيام فقط ، اضطروا بعدهـــا الى الهـــرب من خوارزم عندما وصلت الى أسماعهم أخبار قدوم القوات المغولية جادة فى السعى للوصول الى جلال الدين واخواته •

لذلك هرب اوزلاغ شاه وأخيه اق شاه نادمين على موقفهم من اخيهم جلال الدين حيث كان هو الشخصية التى من الممكن الاعتمــــاد عليها فى قهر هذه القوات المغولية لما فيه من قدارت قتالية • فحـــاول اوزلاغ أن يقتفى أثره باحثا عن خبره سالكا حيث ســـلك ســـائرا

(13) Barthold «Turkstan down to The mongal invasin. p. 32.

(14) Barthold p. 432.

(١٥) النسوى ص ١٢٢ •

(16) D'ohsson p. 262.

منجدا كان أو غائرا »(١٧) ولحسن حظه أن تقابل مع رسول من مدينة نسا ، فأنعم عليه اوزلاغ شاه نعما كثيرة ، وكتب له اقطاعا لصاحب مدينة نسا • وبينما هم فى محادثاتهم هذه عند منطقة مرج سائغ بالقرب من نسا • اذ وصلت اليهم الاخبار بوصول قوات التتار بالقرب منهم ، عندئذ هرب اوزلاغ شاه واخيه فتبعته قوات المغول الى منطقة أستوا(١٨) والتقت القوات الخوارزمية بقيادة أوزلاغ شاه مع قوات المغول واسفرت النتيجة عن انتصار مبدأى أدى الى غرور أوزلاغ شاه بقوته •

لم يتصور اوزلاغ شاه أن هناك قوات اخرى للمغول موجودة بخراسان فلم يلبث أن فوجىء بأن هناك قوات اخرى تحيط به وبقواته حتى تمكنوا من القبض على الاخوين أوزلاغ شاه وآق شاه • وقاموا بقطع رأسيهما « وقد نصبا على الرماح رغما للاحرار وكيادا النظار »(١٩) وذلك من أجل الامعان فى تحقير الخوارزميين •

وبذلك أصبح الصدام بين جلال الدين منكبرتى والمغول وشيكا •

الدور الاول

السلطان جلال الدين منكبرتى والمغول

لقد رأينا كيف نجح جلال الدين منكبرتى فى الهروب الى حدود مدينة نسا ، الا أن المغول بدءوا بعد ذلك فى الاستعداد للحاق بـه

فقد قام جنكيز خان بتجهيز جيوشه للتوجه الى مدينة خوارزم حيث جعل القيادة لابنائه جوجى وجغتاى واوكتاى الذين كانوا قد

---

(١٧) النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين • ص ١٢٩ •

(٨) استوا كوره من نواحى نيسابور • ياقوت جـ ١ ص ٢٢٥ •

(١٩) النسوى ص ١٣٠ انظر •

Peter Brent « The mongd al enipire » p. 68.

اتموا فتح بلاد ماوراء النهـر بالاشتراك مع جيوش جنكيز خـان ولكى يحاصر جنكيز خان أبناء السلطان الراحل علاء الدين محمد من كل جهة أمـر جيوشه فى خراسـان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء التى تفصل خوارزم عن خراسـان وقـد نجح جلال الدين منكبرتى فى التصدى لهذه القوات التى كانت تقدر بحوالى سبعمائة مقاتل فى حين كانت قواته لا تتجاوز ثلاثمائة مقاتل ، وغنم ما معهم واخـذ طريقة الى مدينة نيسابور [٢٠] .

وعندما وصل جلال الدين الى نيسابور بدأ يجهز القوات ويراسل الاطراف لجمع الجيوش لمواجهة المغول ، وقـد ظل مقيما فى نيسابور ما يقرب من شهر ، حتى بدأت قوات المغول فى مداهمته لذلك تـرك نيسابور ومعه القوات الخوارزمية متجهـا الى زوزن [٢١] ومنهـا الى بست [٢٢] وهناك علم أن القوات المغولية محتشـدة فى اقليم الطالقان وبعدهـا نجح جلال الدين فى سحق قوة مغولية كانت محاصرة لقلعة قندهار « فنهضا اليهم ، واعداء الله لهم عارون لا يدرون كيف ترصدهم النوائب وتحيط بهم المصـائب » [٢٣] فلم ينج منهم الا من لاذ بالفرار الى جنكيز خان ، وبعدهـا اخذ جلال الدين منكبرتى طريقه نحـو عاصمته غزنه فدخلها « ظاهرا ظافرا ولله على تيسير النجح شاكرا [٢٤] .

---

(20) Phillips. ED « The Mongols. » p. 62.

Saunders « The history of The mong ol Conquest » p. 59.

(٢١) النسوى : ص ١٣٢ وزوزن احدى مدن خراسان وتقع بـين نيسابور وهراه .

(٢٢) مدينة بين سجستان وغزنه وهراة . ياقوت : معجم البلـدان ج ٢ ص ١٧٠ .

(٢٣) النسوى « المصدر السابق » ص ١٣٣ .

(٢٤) المصدر النسـابق ص ١٣٤ .

وقد رحب به الاهالى ، وانضم تحت لوائه جمـــوع كثيرة من مختلف الاجناس ، كمـا أسرعت الى الانضمام اليه الجنود الخوارزميـة المشتته فى كابل وبيشاور وغيرهمـا من المدن الواقعـة عـلى حدود الهند وبذلك استطاع أن يجمع جيشـا بلغ ستين ألفا من المشــاه وسبعين ألفا من الخياله (٢٥) .

سـقوط خوارزم .

اثناء الدور الذى تحرك فيه جلال الدين منكبرتى حتى وصوله الى غزنه كانت القوات التى بعث بهـا جنكيز خـان المثلة فى أبنائه الثلاثة جوجى وجغتاى واوكتاى ، قد أخذت طريقها صـوب خوارزم لان جنكيز خان يعـرف جيدا أهمية موقـع خوارزم وكثرة عدد السكان فى هذا الاقليم وما اشتهر عن اتراك القنقلى من شجاعة وبأس فقـد اتخذ كافة الاحتياطات اللازمة ، ولم يدخر وسعا فى جلب معظم قواته من عدة جهات حتى وصلت القوات نحو ٠٠٠ر١٠٠ جنـدى (٢٦) . فى الوقت الذى كانت فيـه الجيـوش الخوارزمية فى ظروف سـيئة خاصـة بعد أن رحل عنهم جلال الدين منكبرتى وقتل اخواه .

وبعد وصول قوات المغول الى حدود المدينة ، حاصروهـا حصارا شديدا امتد ما يقرب من سبعة شهور ، وقـد قاسى المحاصرون شـديدا من جراء ذلك وتكبدوا خسائر كبيره ، بل ان الخلافات دبت بين جـوجى وجغتاى خاصـة وان والدهم جعل القيادة لاوكتياى (٢٧) .

طلب المحاصرون من أهل المدينة التسليم ، ووعدوهم الامـان الا أن أهل المدينة استهانوا بهـذه القوات وقد وصفهم النسـوى بأنهم

---

(٢٥) الصياد « المغول فى التاريخ » ص ١٣٣ .

(٢٦) المرجع السابق ص ١٢٥ .

saunders « op. cit., » p. 59.

Phillips « op. cit., » p. 62.

(27) Saunders « op. cit » p. 60.

السفهاء حتى أنهم قد نفذوا رأيهم على غيرهم الذين رغبوا فى السلم كما ان جلال الدين منكبرتى بعث اليهم ينصحهم بالتسليم السلمى الا أنه « لم ينفع ما قدم من التنبيه » (٢٨) وهنا انقض عليهم جوجى خان ، وطوقهم من كل جانب ، وصاروا يعملون فيهم سيوفهم حتى اذا آذنت الشمس بالمغيب كانوا قد اهلكوا عددا كبيرا من هؤلاء الجنود » (٢٩) .

وقد صور بن الاثير ما حدث تصويرا دقيقا فيذكر « ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة ، وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم ، فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون ، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه ، وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ، ثم انهم فتحوا السد الذى يمنع ماء جيحون عن البلد ، فدخله الماء ، فغرق البلد جميعة ، وتهدمت الابنية ، وبقى موضعه ماء ، ولم يسلم من أهله أحد البته ، فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفى ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فينجو واما أهل خوارزم فقد اختفى من التتر غرقه الماء أو قتله الهرم فاصبحت خرابا يبابا » .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر (٣٠)

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أيشى ولم يسمر بمكه سامر (٣٠)

وبذلك نرى مدى ما أصاب مدينة جرجانية حاضرة خوارزم حيث يصور لنا المؤرخان ساوندرس Saunders وفيليب Phillip أن المدينة

---

(٢٨) النسوى « المصدر السابق » ص ١٧٢ .

(٢٩) نفسه ص ١٧٣ .

(٣٠) ابن الاثر « الكامل » ج ٩ ص ٣٤٣ زينى دحلان « الفتوحات الاسلامية » ج ٢ ص ٤٣ .

اصبحت حطاما ، فقد أغرقتهــا مياه السدود ، وقاموا بذبح السكــان الرجال والنساء والاطفال ولم يستثنوا غير حوالى مائة الف من الصناع أرسلوهم الى بلاد المغول (٣١) .

وقد أكد النسوى هذا الرأى الذى أورده هذان المؤرخان الغربيان حيث قال « وامر فأخرج الناس فرادا وثباتا وجموعا واشتاتا ونودى بانفراد أرباب الصنائع وانعزالهم ناحية فمنهم من فعل ونجا ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف تساق الى بلادهم (٣٢) .

وهكذا بهذه الوحشية التي تفوق حد الوصف لــم يبق أحــد على قيد الحياة من سكان المدينة ، وبلغ عدد القتلى كثرة هائلة الى حــد أن أحــد المؤرخين امتنع عن احصــاء هؤلاء القتلى الذين راحوا نتيجة هــذه المذبحة (٣٣) .

وبذلك زالت جرجانية عاصمة خوارزم ، بعد حصــار اســـــتمر أربعــة أشهر وانفتح الطريق للمغــول للاستيلاء على اقليم خراسان

الاستيلاء على خراســان .

فكر المغول فى الهجوم على خراسان منذ أن بدأ هجومه على اقليم خوارزم ، وكان أول ما فعله القائد المغولى ازاء خراســان أن امــر بارســـال فصــائل من جيشه فى ذلك الوقت الذى أرســل فيه جيشا الى اقليم خوارزم ليســد المسالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب (٣٤) .

---

(31) Saundres « op. cit., » p. 60.
Phillips « op. cit., .

(٣٢) النسوى « سيرة السلطان » ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(33) Juwaini « op - cit » al II. p. 462 — 464.

(٣٤) فهمى « المغول » ص ٦٧ .

وقد تعرضت خراسان قبل ذلك بفترة يسيره لغزو مفاجيء قـام به كل من جبه نويان وسوبوتاى حينمـا كان يطاردان السلطان علاء الدين محمد ، فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور مثل جيش الاحتلال المغولى فى خراسان ليل العدد ، ذلك لأن القائدين المغولين لم يهتما كثيرا باخضاع خراسان قدر اهتمامهمـا بمطاردة الخوارزمشاه واسرتة (٣٥) •

وقد استمر الوضع على ذلك الى أن قام جنكيز خـان باخضـاع جميـع المدن الواقعة فى اعالى نهـر جيحون ، ومن أشهرهـا ترمذ وبلخ ومن العجيب ان جنكيز خـان لما استولى على مدينة ترمذ أمر باخراج جميـع السكان من المدينة أوامر جنـده بقتلهم جميعا وقـد حدث أن هم أحد المغول بقتل امرأه عجوز فأرادت هـذه المـرأه ان تفتدى نفسـها بجوهرة ثمينة كانت تمتلكهـا ، فلما طالبهـا المغول بهـذه الجوهرة ، ذكرت انهـا ابتلعتهـا فى جوفهـا ، فشق المغولى بطن المرأه ، واخرج الجوهرة من جوفهـا • وقد انتشر الخبر سريعا بين المغول ، فظنوا أن السكان جميعا قـد خبأوا الجواهر فى بطونهم ، لذلك أمـر جنكيز خان بشق بطون جميـع الموتى للبحث عمـا عسى أن يكون فيهـا من جواهر (٣٦) •

وقد قرر جنكيز خـان ألا يستمر فى فتح بقية المدن فى هـذا الاقليم ، وسـار نحو الطالقان ليواصل اخضاع المدن الواقعـة فى أعال نهـر جيحون تاركا فتح خراسان لابنه تولوى •

وقد اطاع تولوى أوامر أبيه وقـاد جيشـا يبلغ سـبعين ألف مقاتل سنة ٦١٧ هـ وكانت طـلائع هـذا الجيش تقدر بحوالى

---

(٣٥) نفسـه •

(36) D'ohsson « op - cit » p. 271.

عشرة آلاف جندى بقيادة « طغا جارنويان » زوج ابنـه جنكيز خـان، واتجهوا نحو مدينة نسـا [٣٧] .

ويطلق النسوى على هذا القائد لقب « تفجار نويين » وعلى زميل له تسمى بركانوين ، ويذكر انهمـا توجها الى خراسان « لنهبهـا واحراقهـا وامتصـاص مخ عظامهـا ، ودم أعراقها » [٣٨] .

وقد وصلت فرقة من هذا الجيش الى مدينة نسـا كمـا ذكرنـا وكان على قيادتهـا القائد بل كوش الذى تعرض لسهم من سـهام المدافعين عن هذه المدينة فسقط قتيلا ، لذلك قاموا على أهل هذه المدينة ، وتحرك طغاجار لمحاصرة المدينة حتى ذكـر النسوى أنهم « قدمـوا حصارها على حصار سائـر المدن بخراسان » [٣٩] وبدءوا بحصـار قلعتهـا لمـدة خمسة عشر يوما لـم يفتروا عن القتال ليـلا ولا نهارا ، ونصب عليهـا عشرون منجنيقا تجذبهـا الرجالة الذين جمعوا من أطرافه خراسان ، وكانوا يسوقون الاسرى تحت الدبابات حتى يوصلوهـا الى السور ، فان لم يقتلوا بهـا قطعوا رقابهم ، فظلوا كذلك حتى نجحوا فى اسقاط المدينة الوقت التى كان « الناس قد استحفوا فى بيوتهم الى أن اضاء النهار نزلوا اليهم من السور ساقوهم الى فضـاء وراء البسـاتين يسمى عوربان كأنهم قطعان الضانية تسوقهـا الرعاه [٤٠] .

وقد أمن التتار الناس ، وبعدها حشروهم الى ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء والفجيج يشق جلبات السماء والصياح يسد منافـذ الهواء ، ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضـا ففعلوا ذلـك خذلانا ، والا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص غدوا من غير قتال ، والجبل

---

(37) Saunders « op - cit » p. 60.

(٣٨) النسوى « نفسه » ص ١١٣ .

(٣٩) النسوى ص ١١٤ .

(٤٠) نفسـه .

قريب لنجا أكثـــرهم وحين كتفوا جاء واليهم بالقوس واضجعوهم على العدا واطعموهم سباع الارض وطيور الهواء [٤١] حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ اكثـــر من سبعين ألف .

توجه طغاجار بعد مذبحة نسا الى مدينة نيسابور فى ســـنة ٦١٧ ه وهاجم المدينة ، فقتل بسهم من سهام المسلمين وتولى القيادة بعده تولوى[٤٢] .

الاستيلاء على مرو .

كانت مرو هدفا أساسيا لجيش تولوى وقـــد كان الخوارزميون قـــد اختاروهـــا حاضرة لهم لما لهـــا من الغنى والثـــراء والحضارة .

وكانت عدة جيش تولوى حوالى سبعين ألفا منهم اعداد كبيرة من أسرى البلاد التى فتحوها ، وعندما رأى أهل البلاد ضخامة هذا الجيش أرســـل علماء الدين الى تولوى يعرضـــون عليه التســـليم فخدعهم تولوى بالموافقه ؛ حتى انهم أرسلوا الى امير المدينة يقولون « لا تهلك نفسك واهل البلد واخرج الينا نجعلك أمين هـــذه البلدة ونرحـــــل عنك [٤٣] الا أنه نقض العهـــد وقبض على رســـل المدينة واميرهـــــم وكتفوهم ، وبعدها جمعوا أهل المدينة من التجار واربـــاب الامـــــوال وضربوا رقابهم « واما العامة فانهم قسموا الرجـــال والنســـــــــاء والاطفال » . فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل »[٤٤] وبعدها أحرقوا المدينة واحرقوا تربة السلطان سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال وفى اليوم الرابع قتلوا أهل البلاد كافة[٤٥] حتى بلـــغ عددهم

---

(٤١) نفسه ص ١١٥ .
(٤٢) ابن الاثير الكامل ص ٣٤٢ .
(٤٣) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٤٢ .
(٤٤) نفســـه .
(٤٥) نفسه .

حوالى سبعمائة ألف قتيل . أما الجوينى فيقـدرهم بحوالى مليون وثلاثمائة ألف غير الجثث(٤٦) التى كانت فى أماكن خفية لا يستدل عليها .

الاستيلاء على نيسابور :

لقد سبق أن ذكرت أن المغول قد هاجموا نيسابور على يد طغاجار الا أنه أصيب بسهم أصاب منه مقتله لذلك ، تيقن المغول أنه لابد من جمع جيش كثيف ليتمكنوا من اسقاط هذه المدينة لذلك تراجعوا عنها الى مرو كما ذكرنا ، واتصلوا بجنكيز خان يطلبون منه النجدة . فبعث اليهم بنجدات ، ذكر النسوى على قيادتها « بقيقو نوين ، وقد بوقا نوين وطولون حربى » (٤٧) الا أن الثابت تاريخيا أن القيادة العسكرية مازالت فى يد تولوى بن جنكيز خان(٤٨) حتى بلغ عدة جيشهم خمسين ألف فارس .

كان بداية الهجوم على هذه المدينة سنة ٦١٨ هـ ، فبدأ تركيز الهجوم على شرق المدينة ، وأحاطوها بالدبابات والمنجنيقات ، فى الوقت الذى وقف فيه أهل المدينة وقفة رجل واحد ضد هذا الغزو ، الا أن قوة المغول كانت أكثر منهم ، فأرسل الاهالى نوابا عنهم الى معسكر المغول على راسهم قاضى قضاة خراسان ليعرض الصلح على تولوى ، ويتعهد بدفع الاموال الا أن تولوى غدر به (٤٩) .

قرر تولوى بعد ذلك الامعان فى حصار المدينة ، حتى سقطت من جميع جهاتها ، واندفعوا داخل المدينة كالسيل العرم الذى

---

(46) Juwaini « op - cit » vol II p. 407.

(٤٧) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١١٨ .

(48) D'ohsson « op - cit » p. 288.

(49) Juwaini « op - cit » p. 407 — 408.

لا يبقى ولا يزر وانقضوا على السـكان كالوحوش الضـارية « حتى سال بهـا السيل ، وطاف بهـا الويل ، ونـاح عليهـا النهـار والليـل » (٥٠) .

وقد دخلت ابنه جنكيز خان « أرمله طغاجار » يصحبها عشرة آلاف رجل فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونسـاء واطفـال ، ولـم يتركوا حتى القطط والكلاب ، وذلك تأرا لمقتل زوجها (٥١) .

يعرض لنـا المؤرخون المسـلمون الكثـير عن أنـواع التعذيب التى لاقاهـا أهل هـذه المدينة ، فيذكرا بن الاثير انهم « قتلوهـم وسبوا حريمهم ، وعاقبوا من اتهموه بمال ... واقاموا خمسة عشرة يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الاموال ...... وأمروا بأهـل نيسـابور أن تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد »(٥٢) .

أما الجوينى فيذكر « أنهم قطعوا رؤوس القتلى ، وبنوا منها أهرامات عاليه أحدها للرجـال والاخـر للنساء والثالث للأطفال ، وبذلك ضمنوا ألا ينجو مخلوق من حد سيفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الاشـلاء والجثث المتراكمة » (٥٣) . « ويذكر ميرخواند » أراد تولوى أن يطمئن الى القضـاء على جميع السكان فترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السـكان الذين قد يظهرون بعـد رحيل الجيش المغولى ، وفعـلا ظهر عدد منهم كانوا مختبئين بين القتلى أجهز عليهم المغول ، وقد قدر عـدد من قتل من سـكان مدينة نيسابور بنحو مليون ونصف المليون » (٥٤) .

---

(٥٠) النسوى « نفسه » ص ١١٩ .

(٥١) ميرخواند « وضة الصفا » ج ٥ ص ١١٧ — ١١٩ .

(٥٢) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٤٣ .

(53) Juwaini « op. - cit » p. 408.

أما النسوى فينعى ويقول « أمروا الاسارى فبسطوهـا بالمجاريف حتى صارت أرضا ملسـاء لامدرة بهـا ولا صخره يأمن فيهـا الفارس العثره فلعبوا فيها بالاكره ، ومات اكثـر أهلهـا تحت الارض اذ كانوا قد اتخذوا بهـا سراديب ونقوبا ظنوا انهـا ما نعتهم » [٥٥] •

الاستيلاء على هراه •

بعد الانتهـاء من أمـر نيسابور كمـا أوضحنا اتجـه المغـول بقيادة تولوى صوب آخـر مدينة من مدن خراسان وهى هراه التى يرى ابن الاثير أنها من أحصن البلاد »[٥٦] •

وقد أرسل تولوى رسولا من قبله يطلب من أهلهـا التسـليم أو القتل ، وعندما رأى اصرار أهل المدينة على المقاومة ، قرر اعـلان الحرب ، ومهاجمة المدينة ، وعندما رأى أهل البلاد أنه لا قبل لهم بمحاربة المغول أرسل حاكم المدينة يطلب التسليم ، بشرط تأمين الارواح ، فوافق تولوى • الا أنه بعد ان دخل المدينة ، بدأ فى قتل أتباع السـلطان جلال الدين منكبرتى ، والتى بلغ عـددهم ما يقـرب من ١٢٫٠٠٠ شـخص [٥٧] • أما بقية السكان فقـد أبقى عليهم تولوى ، وجعـل فى المدينة شحنة من المغول ، الا أن أهل المدينة انتهزوا فرصـة خروج تولوى واتجاهه الى الطالقان للحاق بأبيه جنكيز خان الذى كان متجهـا لقتال جلال الدين فى غزنه — « حتى وثبوا على الشـحنة فقتلوه » وبعـدهـا قـام المغـول الذين عـادوا اليهم ودخلوا المدينـة عنوه •

---

(٥٤) ميرخواند « روضة الصفا » جـ ٥ ، ص ١١٩ — ١٢٥ •

(٥٥) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١١٩ •

(٥٦) ابن الاثير « الكامل » جـ ٩ ص ٣٤٣ حوادث سنة ٦١٧ هـ •

(٥٧) براون « تاريخ الادب فى ايران » ص ٥٦٠ •

« وقتلوا كل من فيه ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ونهبوا الســـواد وخربوا المدينة واحرقوها » (٥٨) •

وبذلك حقق تولوى هدفا كبيرا من اهداف المغول وهـو الاستيلاء على منطقة خراســان التى كانت من أهم ممتلكات الدولة الخوارزمية ، فانحسرت الآن أملاك جلال الدين منكبرتى ، لتكون فى غزنـة وبلاد الهند •

المغـول وجـلال الدين منكبرتى

فى غزنـة

لقد بدأت هـذا الفصـل بعرض عام للدور الذى قام به جـلال الدين منكبرتى منذ أن انفصـل عن أخوته • حتى وصوله الى غزنة التى أراد اتخاذهـا قاعـدة للنضـال الاسلامى ضـد المغول • خاصـة واننا قد استعرضنا الآن كيف سقطت مدن خوارزم وما وراء النهـر وخراسان لذلك كانت غزنة هى الاسـاس ، بل المقر الوحيد لبعث المقاومة الاسلامية •

وقد رأينـا كيف استقبل أهل غزنة جلال الدين بعد انتصاراته التى حققهـا على المغول ، وانضموا تحت لوائه •• والحقيقة ان وصوله كان فى الوقت المناسب اذ أنه أوقف صراعا عنيفـا كاد أن يستقر بين أفراد الجيش الخوارزمى الاتراك والغوريين •

ولنا أن نستعرض الآن الاحوال فى غزنة عند وصول جلال الدين اليهـا فقـد كان النائب الاصلى عن جلال الدين منكبرتى هو كربر ملك الا أن اضطر ان يترك غزنة بناء على استغاثة أمين ملك حاكم هراه لكربر

---

(٥٨) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٤٣ •
peter Brent « op - cot » p. 72 .

ملك للقدوم اليه بعسكره لمساعدته فى الاستيلاء على اقليم سيستان لذلك لبى كربر ملك الدعوة ، وتوجه الى أمين ملك لمساعدته • فى هذه الاونه كان هناك جندا كبيرا من الجنود الغور وهو اختيار الدين خربوست وهو حاكم اقليم بشاور موجودا ، فانتهز فرصة خروج كربر ملك من غزنه « وانتهز خلوها ممن يحميها وأراد تحريف كلمة الدعوة فيها » (٥٩) فدخل غزنة واحتلها ، واصبح هو الحاكم الفعلى عليها •

وقد كان على غزنة عند خروج كربر ملك فيها صلاح الدين محمد حتى تناط الفرصة للتخلص منه ، وحين واتته ، نجح فى أن يضر به بخنجر فى صدره وقتل خربوست الذى اعتقد أنه كان يدبر مؤامرة عسكرية ضد السلطان جلال الدين منكبرتى (٦٠) •

وقد حاول الجوينى فى روايته لهذه الاحداث أن يفسرها على ضوء الخلاف الحاد الذى كان بين الجنود الاتراك والغوريين ، وعدم رغبتهم فى الاقامة على أرض واحدة • ومدى تعصب الغوريين لابعاد الاتراك عن غزنه ، كما أنه يختلف عن رواية النسوى التى تقول أن مقتل خربوست كان فى ميدان عام وأنهم قاموا بصلب ابن اخته تاج الدين الا ان الجوينى يذكر أنه قتل فى مأدبة اقيمت على شرفه ، فقام المتآمرون بالاحاطة به وقتله ، وقتلوا معه ابن اخته • تاج الدين (٦١) •

عندئذ قدم أمين ملك ودخل غزنة واعلن نفسه حاكما عليها من قبل السلطان جلال الدين •

---

(٥٩) النسوى ص ١٥٢ •

Juwaini « op. - cit » p. 461.

(٦٠) النسوى « نفسه » •

(61) Juwaini « op. cit » p. 461 — 463 .

وكانت هذه الاحوال العـامة للعناصر المختلفـة التى كـانت تقيم فى غزنة عند قدوم جلال الدين منكبرتى اليهـا • ورغـم ذلك فقـد أوضحنا كيف استقبل استقبالا طيبا « فقـد تباشر الناس بوصوله تباشر الصوام بهلال الفطـر ، وذوى المحول والاعدام بانهلال القطر » (٦٢) • وقـد انحسرت الفتنة عند قدوم جلال الدين ، فبدأت جميـع هـذه القوى تنضم الى لوائه من الخلج (٦٣) والفرس والاتراك وغيرهم • حتى بلغ عدد جيشـه ثلاثين ألف فارس وانضم اليه أمين ملك بقوة مماثلة (٦٤)

وبعد أن اجتمعت هذه القوات الخوارزمية • خـرج جلال الدين فى ربيـع سنة ٦١٨ هو ١٢٢١ م الى السهول المحيطة بيروان فى الشمال الشرقى من غزنة ، وتقابـل مـع طلائع الجيش المغولى هناك ، فاستطاع ان يهزمهم ، وان يقتل منهم ما يزيـد على الالف جندى ، وفر الباقون الى أن عبروا نهر جيحون ، وحطموا السد القائم عليه ، ثـم لجأوا الى جنكيز خان وسردوا عليه أنباء المعركة (٦٥) •

ويورد بن الاثير « لما انهزم التتار أرسل جلال الدين رسولا الى جنكيز خان يقول فى أى موضـع تريـد يكون الحـرب حتى نأتى اليه » (٦٦) •

كما ان جنكيز خان كان قـد سمع نبأ انتصار جـلال الدين منكبرتى على قوات المغول عند قندهار ، لذلك جهز جيشـا جعل قيادته لأحـد

---

(٦٢) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١٥٤ •

(٦٣) نفسـه •

(٦٤) نسبه الى خلج وهو موضع قريب من غزنة ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٥٤ •

(٦٥) الصياد « المغول فى التاريخ » ص ١٣٣ •

(٦٦) ابن الاثير « الكامل » ج ٩ ص ٣٤٣ •

القـادة المغول يدعى « تشيكى قوتوقونويان » وهو الذى كـان الخان المغولى قد تبناه كابن خامس بين أبنائه الكبار ، وقـد قدرت قوات المغول تلك ما بين عشرين الى ثلاثين ألف رجل (٦٧) .

توجه القائد المغولى صوب غزنة ، حيث دارت رحى الحـرب بين القواتين الخوارزمية والمغولية ، وقد التقت هـذه القوات عنـد مدينة بيروان ، استمرت يومين ، ففى اليوم الاول لم تنته المعركة الى نتيجـة حاسمه ، وفى اليوم التالى بدأ النصر يلوح لجلال الدين حيث حمـل على قلب الجيش ، « وركب جلال الدين اكتاف الغل ..... وكيف لا وقد فجعوه باخوته وأبنه ومملكته وذويه وفصيلته التى تؤويه » (٦٨) . وبدأ جلال الدين يقتل فى المغول ليعوض وينتقم مما حل به وباسرته وكان انتصارا ساحقا (٦٩) ، وبعدهـا ولت خياله المغول الادبار ، وكان انتقـام الخوارزميين من المغول شديدا ، حيث كانوا يدقون الاوتار فى آذان الاسرى ، وجلال الدين ينظر اليهم ويعلو وجهه البشاشة بمـا ظفر » (٧٠) فلقد عذبوهم فى الحياة الدنيـا ولعذاب الاخرة اشدوا بقى.

وقد وصلت اخبار السلطان جلال الدين منكبرتى الى بعض المدن الاسلامية مثل هراه ومرو التى سقطت على ايدى المغول ، فتصوروا أن جلال الدين قـد قضى نهائيا على الجيش المغولى ، فبدأت كل مدينـة تقوم على الحامية المغولية الموجودة بهـا ، تقتل وتطـرد ، مما أدى الى قيـام المغول بالاجهاز مرة أخـرى على هـذه المدن خاصـة مدينة

---

(٦٧) الغامدى « اوضاع العالم الاسلامى ص ٣١٩ وقد ذكـر النسوى اسم هذا القائد تولى خان ، ويذكر بن الاثير بان هـذه الحملة كـانته تحت قيادة بعض ابناء جنكيز خان .

(٦٨) النسوى « نفسه » ص ١٥٤ .

(٦٩) النسوى ص ١٥٥ .

(٧٠) فهمى ص ٧٦ .

هراه التى قدم اليها جنكيز خان بنفسه واستطاع الاستيلاء عليها وقتل من أهلها مليونا وستمائة ألف رجل حتى كما أجهز المغول على كل شىء (٧١) .

وللاسف الشديد فقد بدأت عوامل الفرقة والعنصرية تدب بين أفراد الجيش الخوارزمى ، وذلك لان هناك فرقة من الخلج قد تركوا جلال الدين اثناء القتال ، وانضموا الى سيف الدين بغراق وأعظم ملك ، ومظفر ملك ، لانهم غضبوا من تصرفات الاتراك ، الذين وصفهم الخلج بأنهم جبناء ، ولم يقفوا فى المعركة مع المغول مثلما وقف الخلج بل انهم انسحبوا من الميمنة ومع ذلك فوجىء الخليج بأن هؤلاء الاتراك « يزاحموهم فيما أفاء الله عليهم من الغنائم لو ما طبعوا على غراره»(٧٢)

وقد احتدم النزاع بين الفرقتين فقام الاتراك التابعين لأمين ملك « الامينين » بتصرفات غير لائقة تجاه الخلج وقائدهم أعظم ملك حتى أن التركى ضربه بالمقرعة ، « فاشمأزت لذلك نفوسهم ونفرت قلوبهم » وقد حاول جلال الدين منكبرتى التدخل من أجل تصفية النزاع خاصة فى هذه الساعة الحرجة الا أن كل طرف منهما أصر على موقفه . بل ان « الاتراك زادوا شر وعصبية بسوء معاملة ، وعدم مجاملة وقلة حظ من التجارب ، وقطع نظر من العواقب » (٧٣) .

لذلك ونتيجة لسوء المعاملة ، ومحاولة جلال الدين الميل الى جانب الاتراك ، انسحبت الفرقة الخلجية مع سيف الدين وزملائه

---

(71) Saunders « op cit » p. 61 .

(٧٢) النسوى « نفسه » ص ١٥٥ .

(٧٣) النسوى .

D'ohssan p. 314.

نحو بيشاور ، وانضم اليهم عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة (٧٤) .

ويذكر الدكتور الغامدى ان سبب الخلاف كان حول حصان مغولى اذا ان كل قائد يدعى انه أحق من الآخر بحيازته (٧٥) .

وبذلك نرى أن جلال الدين قد وقع ضحية لذلك الشعور والعلاقات العدائية التى ساءت بين مختلف افراد قوته ، ولما رأى أن جيوشه قد اصبحت مقصورة على الاتراك الخوارزمين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الاسلامى ادرك انه لم يعد قادرا على مواجهة المغول ، واضطر الى الانسحاب الى سهل يقع غربى نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيز خان الى غزنه ، للانتقام من الهزيمة التى حلت بجيشه فى سهولها .

معنى ذلك أن جلال الدين منكبرتى بدأيعيد علينا قصة والده علاء الدين محمد خوارزمشاه الذى ظل يهرب من وجه المغول حتى مات طريدا فى أستراباد (٧٦) .

وقد تجهز جنكيز خان بقواته من الطالقان نحو غزنة ، وحينما وصل اليها علم بأن جلال الدين هرب منها من خمسة عشر يوما متجها نحو نهر السند ولم يتوقف جنكيز خان بل أخذ طريقه مسرعا ليتعقب جلال الدين الى حيث وصل .

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده عله يجد مأمنا فى بلاد الهند ، وما ان علم السحارة الهنود من أهل السند

---

(74) Phillips « op. cit » p. 65.

(٧٥) الغامدى « نفسه » ص ٣٢١ .

(٧٦) النسوى « نفسه » .

بقدوم جنكيز خان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمى وجنوده على الشاطىء [٧٧] ، وفى هذه الحالة قدمت جحافل جنكيز خان حتى أن جلال الدين لم تكن لديه فرصة لتهيئة قوارب أخرى ليعبر نهر السند [٧٨] لذلك لم يكن هناك مفر من أن تتلاقى القوتان حيث حدد النسوى تاريخ اللقاء صبحية يوم الاربعاء لثمان خلون من شوال سنة ٦١٨ هـ فى وقت قلت فيه جيوش جلال الدين ، ومع ذلك فقد « حمل على قلب جنكيز خان فمزقه بددا وجعله طرائق قددا » [٧٩] •

وقد وضح ان جنكيزخان قد دبر كمينا لجلال الدين مكون من حوالى عشرة آلاف فارس من فرق البهادرية نجحوا فى الاجهاز على ميمنة جلال الدين وكان عليها أمين ملك فهزمهم هزيمة نكراء ، وانقلب انتصار جلال الدين الى هزيمة ، حيث « تبدد نظامه ، وتزعزت من الثبات اقدامه » [٨٠] واسفرت المعركة عن اعداد كبيرة من القتلى مضرجين بالدماء الى جانب الغارقين فى النهر ، حتى قام جنكيز خان بأسر ابن لجلال الدين منكبرتى فى السابعة أو الثامنة من عمره ، وقتل بين يدى جنكيز خان [٨١] واكثر من ذلك أن جلال الدين رأى والدته وزوجته وبعض نساء أسرته يصحن بأعلى أصواتهن ليخلصهن من الاسر ، فأمر باغراقهن فى ماء السند حتى لا يمتهن على يد المغول ، كما أن جنكيز خان قد نجح فى الاجهاز على العساكر الخلجية التى فارقت جيش جلال الدين ، ولو انها صمدت مع جلال الدين واتحدت معه ، لكان للمعركة نتيجة أخرى •

---

(٧٧) فهمى « تاريخ الدولة المغولية » ص ٧٦ •

(78) Juwaini « op - cit » vol. p. 405.

(٧٩) النسوى « نفسه » ص ١٥٨ •

(٨٠) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ١٥٨ •

(٨١) نفسه ص ١٥٩ •

ورغم الهزائم التى منى بهـا جلال الدين الا أن الشجاعـة التى بذلوهـا فى محاربة المغول لفتت أنظار جنكيز خان ، فوقفوا فاغرين أفواههم عجبا ودهشة عندما أبصروا هـذا المنظـر ، وتوجه جنكيز خان الى أولاده قائلا ينبغى ان يكون للاب ابن مثل جلال الدين وحيث أنه قـد نجـا من الغـرق والفـار ووصـل الى السـاحل سـالما ، فسوف تتولد عنه اعمال كثيرة ومتاعب لاحصر لهـا بالنسبة الينا ، واذا كيف يستطيع الرجل العاقل ان يغفل عنه » (٨٢) .

هروب جلال الدين الى الهند .

بعد الهزائم التى منى بهـا جلال الدين لم يصبح امامه مفـرا سوى توليه وجهه شطر نهر السند ، فلبس ملابسه ، وركب جواده ، والقى بنفسه مـاء النهـر ، « وقـد عبر به الجواد ذلك النهـر العظيم وقـد تبعه ما يقرب من أربعة الاف من رجاله حفاة عراه كأنهم اهل النشور حشروا فبعثوا من القبور » (٨٣) ويذكر ان جنكيز خان علم أن عدوه الخوارزمى قد أمر بالقاء كل ما كان يملكه من ذهب وفضة فى نهر السـند حتى لا يقـع غنيمه سهلة فـى يد المغـول فأمـر بعض رجاله المتخصصين فى الغوص بالبحث عن هذه الكنوز فغاصوا فى النهـر وامكنهم انتشال بعض هذه الكنوز (٨٤) .

وقد حطت الأمواج بجلال الدين عند ناحية بعيدة وكان معه ثلاثة من رجاله هم قلبرس بهادر ، وقابقج وسعد الدين على الشربدار ، ولحق بهم غيرهم فيما بعد ، ومع ما هم فيه من ظروف فقد بدءوا شن الحملات

---

(٨١) نفسه : ص ١٥٩ .

(82) Juwaini « op - cit » vol II p. 410.

(٨٣) ابن الأثير ج ٩ ، ص ٢٩٤ براون ، ج ٢ ص ٥٧٠ .
فامبرى : تاريخ بخارى ، ص ١٧٨ .

(٨٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٣٦ .

ضـد الأهالى الهنود فى المنطقـة يقتلون وينهبون ، وبهذه الطـريقة استطاعوا أن يحصلوا على السلاح والمال (٨٥) .

ومع أن بلاد الهند أصبحت الآن هى المأوى لجلال الدين ورجاله ، الا أن الخوارزميين لم يراعوا حرمة البلاد ، وصارت هناك خلافات بينهم وبين كثير من أمراء المناطق الهندية .

كان قباجة أحد الولاة التابعين للغور فى بلاد الهند ، وقـد بـدأ التعامل بين قباجة وجلال الدين عندما علم الأخير أن بنت أمين ملك نجت من الغرق وتوجد فى مدينة أوجاهى التابعة لممتلكات قباجة ، فطلب جلال الدين من قباجة أن يرسلها اليه ، فوافق قباجة ، وأرسل الزوجة الى زوجها معززه مكرمة ، وتسبقها الهدايا (٨٦) .

لم تستمر الألفة والمودة طويلا بين هذا الوالى الهندى ، وبين جلال الدين ، وبدأ الصراع عندما وصل شهاب الدين ألب الذى كان وزيرا لجلال الدين أثناء ولايته على غزنة — الى أراضى قباجة بعد معـارك المغول ، ولم يكن قباحه فى هذه الفترة يعرف بخبر نجاة جلال الدين ووصوله سالما الى الأراضى الهندية . لذلك فقد تحدث قباجة الى شمس الدين فى موضوعات سرية كثيرة تخص جلال الدين (٨٧) . وعندما وصلته الأخبار بنجاة جلال الدين تخوف كثيرا من شهاب الدين وزاده الوهم عندما قام جلال الدين منكبرتى بالمطالبة بارسـال وزيره شهاب الدين اليه ، الا أن قباجه قرر قتل الوزير خوفا من افتضاح أمره (٨٨) .

---

(٨٥) النسوى : سيرة السلطان ص ١٦٢ ، ابن واصل : المصـدر السابق .

(٨٦) نفسه : ص ١٦٣ .

(٨٧) نفسه : ص ١٦٤ .

(٨٨) نفسـه .

وهناك سبب آخر لتكدر العلاقة بين قباجه وجلال الدين وهى قيام أهل مدينة كلور التابعة لممتلكات قباجه بالاستيلاء على ممتلكات قرن خان ابن أمين ملك ، والذى دفعت به المقادير بعد الغزو المغولى الى هذه المدينة التابعة لقباجه ، ولم يتوقفوا على السلب والنهب ، وانما قاموا بقتله ، وسرقوا من أذن هذا الفتى درة سلموها لقباجه الذى تسكر هؤلاء القتله على فعلتهم هذه ، بل واقطع من سلمه الدرة اقطاعا خاصا [89] .

لذلك قرر جلال الدين الانتقام ، فخرج بقواته الى مدينة كلور فحاصرها وحارب أهلها « وباشر الزحف بنفسه ، فاصابته نشابه فى يده فأصبح كالأسد موتورا والنمر مجروحا ومضرورا » [90] ، وقد ظل يباشر القتال حتى سقطت المدينة فى يديه ، لذلك قرر قباجه طلب النجدة ، فقدمت اليه قوات شمس الدين أيلتمش الذى كان احد ارقاء الدولة الغورية ، وقد نجح فى تأسيس أمارة فى دهلى الجزء الشمالى من هذه البلاد بعد سقوط الدولة الغورية • وكان قوام قوات أيلتمش تقترب من العشرة آلاف فارس وبذلك وجه قباجه وأيلتمش قواتهما ضد جلال الدين من أجل طرده من البلاد ، الا أن جلال الدين أحرز انتصارا واضحا على هذين الحليفين « والجأه الى الهروب مجدا » [91] •

وقد نجح جلال الدين بعد ذلك فى القيام بمحاولات عديدة لكسر شوكة قباجه ، فاستطاع أن يتوجه الى لاهور ، وأن يدخل ابن قباجه فى طاعته على أساس أن يدفع له الأخير مالا قد قرر عليه ، كما توجه الى سيستان ، وجعلها تابعة له مع الابقاء على واليها فخر الدين السعلاوى [92] وفعل كذلك بمنطقتى أوجا وخانسر •

---

(٨٩) نفسه : ص ١٦٤ •

(٩٠) نفسه : ص ١٦٥ •

Peter Brent « op - cit » p. 88.

(٩١) النسوى : سيرة السلطان ، ص ١٦٥ •

(92) D'ohsson « opp - cit » p. 309.

عندئذ وصلت الأخبار بقدوم قــوات تحت قيادة ايلتمش تقدر « بحوالي ثلاثين ألف فارس ومائة ألف رجل وثلاثمائة فيل » (٩٣) لذلك تحركت قوات جـلال الدين وقواده لمواجهة هذه القوة ، ونجحوا في الهجوم عليها وتكبيدهم خســائر كبيرة ، مما اضطر شمس الدين ايلتمش الى طلب الموادعه ، والصلح ، مذكرا جلال الدين بعدوهم الكبير جنكيزخان وبأنه هو سليل الخوارزمية ، ولا يصح رفع السلاح في وجهه ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته « لتستحكم الثقة وتتأكد المقه وتزول الوحشة » (٩٤).

ولذلك بعث ايلتمش الهدايا الى السلطان صحبة ابنته ، الا أن القوات الخوارزمية لم تتوقف عن الاعتداءات على حرمات السكان ، لذلك أقدم الحكام الهنود على الوقوف في وجه القوات الخوارزمية مرة أخرى . وعلى أن يمسكوا « جلال الدين » عليه حافة ماء جنجيز فليجئوه الى حيث لا سبيل الى الذئب ويحترشوه احتراش الضب » (٩٥) لذلك فان البلاد والزوايا تكاثرت على جـلال الدين . وزيادة على ذلك فقد وصلت اليه الأخبار من العراق بأن أخاه غياث الدين قد بدأ يعد العدة ، للاســتيلاء على هذه المناطق ، ويخرج بها عن طاعة جلال الدين بل انه نجح فيما بعد في اعلان نفسه حاكما على العراق ، وذلك لأن أهل العراق وجدوا فيه أميرا ضعيفا يستطيعون أن يوجهوه الوجهة التي يرتضونها (٩٦) .

قرر جلال الدين خوارزمشاه ضرورة ترك بلاد الهند بما بهـــا من مشاكل والتوجه الى العراق لاستعادتها من أخيه غياث الدين ، وترك جهان بهلوان أزبك الملقب بوفاء الملك نائبا عنه في بلاد الهند .

---

(٩٣) النسوي : نفسه ، ص ١٦٧ .

(٩٤) نفسه : ص ١٦٨ .

(٩٥) النسوي : ص ١٦٨ .

(٩٦) النسوي : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
Juwaini « op. - cit » vol II pp. 147 - 148.

وقد كان هدفه من ذلك أيضـــا استرداد مملكة آبائه وأجداده • والانتقـــام ممن كان لهم يد فى وقوع مملكته فريسة للغزو المغولى مثل الخليفة العباسى ، كمـــا أنه رأى حكام المدن والأقاليم المختلفة قـــد انتهزوا فرصة رحيل الجيوش المغولية ، فاستقلوا ببعض الولايات فى خراسان ومازندران والعراق العجمى •

اتجاه جلال الدين الى كرمان :

لعل الظروف الصعبة التى أوضحناها داخل بلاد الهند أجبرت جلال الدين على اعداد العدة لترك هذه الأراضى ، الى جانب الظروف التى آل اليها الوضع فى دولة المغول حيث انحسر المد المغولى ، وعاد الغزاه الى منغوليا (٩٧) وكذلك موقف أخاه غياث الدين لذلك قرر التوجه صـــوب بلاد العراق •

اتجه أولا ناحية كرمان ويصور لنا النسوى مدى ما قساه جلال الدين وهو فى طريقه من بلاد الهند الى كرمان من صعاب وشدائد «أنستهم سائر الكرب وأوردتهم بأجمعهم سواقى العطب » (٩٨) ، حتى وصـــلوا الى مدينة كرمان التى كان الوالى عليها براق الحاجب من قبل غياث الدين بيرشـــاه •

والواقع أن غياث الدين كان يضـــع ثقته كلها فى براق الحاجب الا أن هذا الوالى كان مخادعا كاذبا حتى وصفه النسوى بأنه «كان يخلط طاعة بجفاء ، ويسر حشوا فى ارتقاء » (٩٩) •

لذلك وعند قدوم جلال الدين استقبله براق الحاجب استقبالا طيبا ، وأقام معه فى مدينة كواشر عاصمة كرمان ، ورغم هذه المقابلة الطيبة

---

(٩٧) الغامدى : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ •

(٩٨) النسوى : المصدر نفسه ، ص ١٧٤ •

(٩٩) نفسه : ص ١٧٥ •

من قبل براق الحاجب الا أن جلال الدين فطن الى حقيقة نواياه ، وفكر في التخلص منه ، وجوه قومه نصوحه بالتريث وعدم التعجل بالغدر به .

اتجه جلال الدين بعد ذلك صوب شيزار في الوقت الذي قدم اليه حاكم منطقة يزد[100] المدعو علاء الدولة ، يعلن له طاعة أهل بلاده وخضوعهم للسلطان جلال الدين .

وقد حاول جلال الدين أن يستميل قلوب أهل المنطقة ويجذبهم الى طاعته فانتهز فرصة خلاف قائم بين الأتابك سعد صاحب فارس وبين أخيه غياث الدين بيرشاه ، فأرسل يطلب ابنه الأتابك سعد زوجة له ، فوافق على طلبه ، وقويت العزائم بهذه المصاهرة . ونجح بعد ذلك جلال الدين في التوجه الى أصفهان وانضمت اليه السلطة الحاكمة بها .

عندما وصلت الى مسامع أخيه غياث الدين أخبار ما حدث من قبل ولاته وانضمامهم الى أخيه جلال الدين جد العزم على مواجهته بما لديه من قوات ، لذلك تراجع جلال الدين وأرسل اليه أخيه رسالة استعطاف ورسول برتبة أمير آخور [101] .

عندما وصلت هذه الرسالة الى مسامع غياث الدين تراجع عن

---

(١٠٠) يزد احدى مدن فارس وتقع على بعد سبعين فرسخا من شيراز ، والفرسخ ثلاثة أميال .

(١٠١) النسوى : نفسه : صص ١٧٦ — ١٧٧ .

رشيد الدين « جامع التواريخ » ج ١ ص ٣٩٢ .

Juwaini « op - cit » vol. II p. 149.

والامير آخور وظيفة يقوم صاحبها بالاشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل وخويانات .

انظر زيادة : السلوك : ج ١ ص ٤٣٨ حاشية رقم ٣ .

ملاقاة أخيه فى الوقت الذى قام فيه رسول جلال الدين باستمالة قلوب مجموعات كبيرة من رعايا مغيث الدين ، مما أدى الى قيام غياث الدين بالقبض على رسول أخيه ، لذلك قرر جلال الدين مواجهته حربيا .

عندما سمع غياث الدين بقدوم جيش أخيه ، هرب تاركا أمــه فى خيمته ، فى الوقت الذى وصل فيه جــلال الدين ، وتقابل مع الأميرة الأم ، وبين حسن العلاقة بينه وبين أخيه ، وطمأنها على وضعه السياسى ، لذلك حضر غياث الدين الى أخيه ودخل هو ورجاله فى طاعته (١٠٢) .

---

(١٠٢) النسوى : المصدر السابق .
رشيد الدين : جامع التواريخ : جـ ١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

الفصل السادس

جلال الدين منكبرتى
والقوى السياسية المجاورة

أ ـ الخلافة العباسية :

سبق أن أضحت العلاقة التى ربطت بين البيت الخوارزمى ، والخلافة العباسية ، وكيف أصبح العداء هو الطابع العام لهذه العلاقة ورأينا كيف حمل الخوارزميون مسئولية ما أصابهم وأصاب العالم الاسلامى من هجمات مغولية للخليفة العباس الناصر لدين الله وأنه هو الذى استدعى المغول للقضاء على الخوارزميين . لذلك قرر جلال الدين ـ ابان وصوله الى كرمان وفارس ونجاحه فى القضاء على عقوق أخيه ـ أن يكون حلفا ضد الخليفة العباسى ، وأن يغزى أراضيه ، لذلك كتب الى المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبى صاحب دمشق يقول « تحضر ومن عاهدنى واتفق معى حتى نقصد الخليفة فانه كان السبب فى هلاك أبى ومجىء الكفار » [1] غير أنه أخفق فى مسعاه عندما أجابه المعظم عيسى « أنا معك على كل أحد الا الخليفة امام المسلمين » [2] .

وقد أكثر المؤرخون القدامى والمحدثين فى توسيع هوة الخلاف بين جلال الدين والخليفة العباسى . الا أن المؤرخين الفرس ، والذين

---

(١) العبود : المرجع السابق ، ص ١٠٧ نقلا عن سبط بن الجوزى « مرآة الزمان » ج ٨ .

(٢) المصدر نفسه .

كانوا من رجال الدولة الخوارزمية يحاولون أن يبعدوا هذه الحقيقة ، ومن هؤلاء النسوى الذى ذكر أن اتجاه جلال الدين الى الأراضى العراقية ، كان من أجل قضاء فصل الشتاء بهذه البلد ، بل انه لم يعتد على هذه الأراضى التابعة للخلافة ، وانما أرسل مبعوثا من قبله للخليفة الناصر ليوضح له المواقف والخلافات السياسية بين الطرفين ويستطرد المؤرخون الفرس قولهم ، بأن جلال الدين عندما أقبل الربيع ترك الأراضى المجاورة لبغداد دون أى هدف عدوانى متجها ناحية خوزستان (٣) .

وسواء أصحت الأخبار العربية أم الفارسية حول هذا الموضوع فان جلال الدين قد قام بحصار مدينة تستر عاصمة أقليم خوزستان وكان القائم عليها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله فكان « حافظا لها وأميرا عليها » (٤) .

وقد نجح وجه السبع فى حماية المدينة من عدوان جلال الدين منكبرتى مما اضطره الى ترك حصارها والاتجاه الى المناطق المجاوره مثل بادرايا وباكسايا (٥) وبعض رجاله اتجه ناحية البصرة . وقد اتسمت حملات منكبرتى على هذه الأماكن بالنهب والسلب وقطع الطريق . تصدى الأمير وليكين شحنه البصرة التابع للخليفة الناصر لدين الله لقوات جلال الدين وقتل منهم مجموعة كبيرة حتى رفعوا الحصار عن المدينة . الا أن جلال الدين نجح رغم محاولات جيش الخلافة فى الوصول الى يعقوبا .

---

(٣) النسوى « سيده السلطان جلال الدين » صص ١٩٢ — ١٩٣ ، رشيد الدين « جامع التواريخ » جـ ١ ص ٣٩٣ .

(٤) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ حوادث سنة ٦٢٢هـ ص ٣٥٥ .

(٥) ابن الأثير « نفسه » جـ ٩ حوادث سنة ٦٢٢ ص ٣٥٥ .

عندما وصـــلت أخبار حمـــلات جلال الدين الى بغداد « تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروح والعشى والنشاب » [٦] .

ورغم الاستعدادات التى استعد بها الخليفة الناصر لدين الله لمواجهة قوات جلال الدين الا أن الأخير لم يتجه ناحية بغداد بل توجه نحو خوزستان فى «صبر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب» [٧] وبعدها فى توجه الى يعقوبا ومنها الى دقوقا حيث قاومه أهلها مقاومة كبيرة ، وخرجت سرية خوارزمية الى البت والراذان فهـــرب أهلهـــا الى تكريت ، وتتبعهم الخوارزميون حتى أن أهل البوازيج التابعة لصاحب الموصـــل بعثوا اليه يطلبون منه أن يرسل اليهم شحنة من الجنـــــود تحميهم ، وقدموا اليه الأموال اللازمة ، فوافق على طلبهم ، كما نجح جلال الدين فى ضم مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل الى صفة ، وتم الصلح بينهما بعد أن كان مظفر الدين متفقا مع الخلافة العباسية للوقوف فى وجه جلال الدين [٨] .

وقد نجح جلال الدين فيما بعد فى الوصول الى أتابكية أذربيجان ومنها انقض على دولـــة الكرج المسيحية والباطنية فى فارس وهـــذا ما سنتعرض له تفصيليا .

أما بالنسبة للخلافة العباسية ، فقد توفى الخليفة الناصر لدين الله الذى اتهمه المؤرخون المحدثون على انه لم يكن على مستوى المسئولية فقد نظر الى الغزو المغولى من وجهة نظره العنيفة الأنانية ، فلم ير فيها تهديدا مباشرا لسلطته الخاصة وأراضيه فى العراق ، وأسوأ من

---

(٦) نفســـه ص ٣٥٦ .

(٧) نفســـه .

(٨) ابن الأثير « نفسه » ابن واصل « مفرج الكروب » جـ ٤ ص ١٤٥ وبذكر « انه بذل السيف فى أهلهـــا وفعل اشنع من فعل التتر فقتل أكثر وذهب من سلم منهم وتفرقوا فى البلاد واستولى جلال الدين على ما فى دقوقا من الأموال وكان فيها متمولون كثيرون وتجار » .

من ذلك كله أنه كان رجلا طاعنا فى السن ومصابا بأكثر من مرض أقلها فقدان البصر ، كما كان عاجزا كل العجز ، وحكومته قاصرة وضعيفة مستضعفه لا تستطيع أن تقف لمقاتلة المغول ، فقــد كان الناصر يتمنى أن يرى بأم عينيه دمار جلال الدين اذ أنه أصبح ممثلا للأسرة الخوارزمية وهم أعداؤه السابقون (٩) .

تقلد عرش الخلافة بعد وفاة الخليفة الناصر لدين الله ابنه الظاهر بأمر الله ٦٢٢/٦٢٣ هـ ـ ١٢٢٥/١٢٢٦م فى وقت كان جــلال الدين منشغلا فى فتوحاته فى مناطق أذربيجان وبلاد الكرج ، لذلك فان الخليفة الظاهر الذى لــم يأمن هو الآخر مثل أبيه تصرفات جلال الدين منكبرتى اضطر الى مراسلة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وصرفه عن التحالف مع جلال الدين لما كان بينهما من علاقة متينة ، فكان المعظم يلبس خلعة جلال الدين ويركب فرســه ويحلف برأسه » (١٠) ومن أجل أن يحقق الخليفة الظاهر بأمر الله غايته أوفد رسوله محى الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين بن العجوزى الى المعظم عيسى ومعه الخلع والتشريفات ورسالة تتضمن نهيه عن موالاة جلال الدين وقد أجــابه المعظم الى ذلك (١١) .

وقد حــاول الخليفة الظاهر أن يغير من طبيعة العلاقة بينه وبين جلال الدين ، فأرسل اليه رسولين أثناء مقامة بتبريز « مبشرين بانتصاب الامام الظاهر بأمر الله منصب آبائه الخلفاء » (١٢) وهؤلاء هما نجم الدين الرازى ، وركن الدين بن عطاف وقــد أمر ابن عطاف أن يقيم حضرة السلطان جلال الدين ويعود الرازى بمن يصحب من الرسل ليستصحب الخلع والتشريفات . وقد قابل جــلال الدين مبعوث الخليفة بارتياح

---

(٩) الغامدى « المرجع السابق » ص٣٣٦ .
(١٠) العبود « المرجع السابق » ص١١١ .
(١١) ابن كثير « البداية والنهاية » ص ١٩١ .
(١٢) النسوى « المصدر السابق » ص ١٨٠ .

وبعث معه القاضى مجير الدين حاملا الخلع الا أنه عند وصوله الى بغداد كان الظاهر قد توفى ، فعادت الخلع الى بغداد « وحمل السلطان الأمر فى ردها الى بغداد لتغير النية فى حقه الى أن تحقق السبب » (١٣) .

وقد عادت العلاقة بين الخوارزميين والخلافة العباسية الى التكدر فى عهد الخليفة المستنصر وهذا ما سيتضح لنا فى الموضوعات التالية .

ثانيا — الخوارزميون والكرج (١٤) :

اهتم جلال الدين منكبرتي بضرورة توسيع نفوذه على حساب القوى فى شمال الدولة الخوارزمية ومن أهمها أذربيجان وجورجيا . والواقع أن الخوارزميين فكروا منذ أيام السلطان علاء الدين محمد في تولية وجوههم صوب أذربيجان ، فقد بدأ جلال الدين بارسال مبعوث من قبله الى الأتابك أزبك بن البهلوان يأمره باقامة الخطبة والسكة باسمه في عامة بلاد ممالكه ، وأن يحمل الى الخزانة السلطانية أتاوة معينة (١٥) .

وافق أزبك على اقامة الخطبة وسك اسم السلطان الخوارزمى على السكة فخطب للخوارزميين على منابر آران وأوزبيجان وبعث الهدايا الى السلطان ، وسلم له قلعة قزوين ، لكنه لم يتمكن من دفع الأتاوة المقرره ، واعتذر للسلطان لأن الكرج دائموا الاغارة على بلاده وجميع دخل بلاده كرس للدفاع عن أهلها ، ودفع أخطار الكرج لذلك أعفاه الرسول منها وبعث الى الكرج رسولا من قبله يحذرهم من محاولة مهاجمة أذربيجان لأنها من ممالكه الخاصة .

---

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) عن الكرج وتاريخهم وعلاقاتهم السياسية انظر :
عفاف صبره « دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، من ص ٤٢١ الى ص٥١٥ .

(١٥) النسوى « المصدر السابق » ص ٥٨ .

وكان فى نية السلطان علاء الدين مهاجمة الكرج لولا اضطراره الى العودة بجيوشـــه الى خراسان للاستعداد لمواجهة الخطر المغولى « وكان فى نيته أن يبعث الى أزبك بحوالى خمسين ألف فارس من نخب عسكره يغزون الكرج » (١٦) .

وقد شغل السلطان محمد بعد ذلك فى مواجهة الغزو المغولى الى أن توفى كما ذكرنا .

وبعـــد أن نجح جلال الدين فى الاســـتيلاء على أملاك الخلافة العباسية من أهمها ياعقوبا دقوقا — كما ذكرنا — اتجهت قوات جلال الدين ضد مراغه (١٧) ، فاحتلتها ثم سار جـــلال الدين من هناك الى همذان حيث كان ايغان طائس ، الذى كان من كبار رجال والده السلطان محمد مقيما بها (١٨) بعد أن أعلن نفسه حاكما عليها فوضع حدا لتمرده ، واخضعه لسلطانه بعد ذلك نجده يعود مرة أخرى الى مراغه ، ومن هناك سار باتجاه مدينة تبريز عاصمة الأتابك أزبك بن البهلوان حاكم أذربيجان، وبعد حصار دام أربعة أيام أو خمسة أيام سلمت زوجة الأتابك وهى بنت السلطان السلجوقى طغرل الثالث مدينة تبريز الى الأمير الخوارزمى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م (١٩) ثم قام جلال الدين وتزوج تلك الملكة بعد أن

---

(١٦) المصدر السابق ص ٥٩ .

(١٧) يذكر النسوى أن اهـــل مراغة هم الذين استدعوا جلال الدين خلاصا مما منوا به من شيوع الظلم واستيلاء ارباب الدولة وحكم النســـاء وتشبث اظفار الكرج بها .

انظر المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(١٨) ايغان طائس هو خال غياث الدين اخى جلال الدين وزوج اخته.

(١٩) على الرغم من أن أهل اذربيجان كانوا قـــد وقفوا فى وجـــه الخوارزميين اثناء غزو جنكيزخان بل وناصروا المغول عليهم وقت محنتهم فان جلال الدين تسامح مع أهل تبريز واحسن اليهم واصلح ما خرب من المدينة .

ثبت طلاقها من زوجها الأتابك أزبك [٢٠] .

ويعلق النسوى أن الزواج تم برغبتها الشخصية ، وقد اجمعت المصادر على أن جـلال الدين أحسـن الى أهل البلاد وبث فيهم العدل ، ووعدهم الاحسـان والزيادة منه ، ثم بدأ يركز جهوده لمهاجمة بـلاد الكرج [٢١] .

وقـد ثبت أن الكرج قاموا بحملات متعددة على بلاد الاسـلام واسـتغلوا الظروف السياسية للأقاليم المجاورة خاصة مناطق خـلاط وما حولها وأذربيجان وبلادها وأران وأرزن الروم ، ودربند شروان وما لاقاه أهل هذه البلاد من تعنت وجور وتعذيب ونهبهم ما وصل الى أيديهم من خيرات البلاد كما استغلوا فترة الغزو المغولى أيضا ، وضعف ولاة هذه المناطق عن الوقوف فى وجهه وبدءوا يكثروا الهجمات .

لذلك كان هم جلال الدين منكبرتى الأكبر وهو أحد قادة العالم الاسـلامى ، هـو توطيـد نفوذ دولتـه الذى ولى ، وتأديب هـذه الدولة ، وتعويض المسـلمين ما فاتهم ليرد اليهم شـيئا من كرامتهم ،

---

(٢٠) ابن الأثير « الكامل » ج ٩ ، ص٣٥٨ حوادث سنة ٦٢٢ هـ .

ابن واصل « مفرج الكروب » ج ٤ حوادث سنة ٦٢٢ هـ .

النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص‌ص ١٩٤ — ١٩٥ .

وبذكر أن أزبك قد ترك تبريز وتوجه الى كنجه خوفا من رجال الدين ، ويذكر ابن الأثير ص٣٥٨ أن زوجته كانت هى الحاكمة فى حياة زوجها ، وزوجها مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب .

(٢١) أرسل جلال الدين القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى رسولا إلى ملك الروم وملوك الشـام بكتب تتضمن تملكه أذربيجان وقلعة ما تشبث بها من أنياب الكرج بحدى سنانه وغضبه فذلك برهانان من ربه واعلامهم بأنه نوى غزو الكرج فبعركهم نهبا وحربا ، ويعرفهم أن للبيت ربا .
النسوى « المصدر السابق » ص١٩٤ .

رغم ما درج المؤرخون عليه من وصـــف جلال الدين من أنه كان قائد قوة انتهكت أراضى المسلمين وحرماتهم (٣٣) .

ويبدأ بن الأثير كلامه فى هذا الموضـــوع بنعى للأحـــداث التى أصابت المسلمين من هجمات الكرج ، وكيف كان المسلمون « تحت الذل والخزى كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم ، فكنا كلما ســمعنا بشىء من ذلك سالنا الله تعالى نحن المسلمين أن ييسر للمســلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثأرهم » فيرى بن الأثير أن الله يسر لأهل البــلاد جلال الدين لينتقم من الكرج وعندما بعث جلال الدين يخطرهم بنيته فى مهاجمتهم فأجابوه بالتحدى والاستخفاف بقوته (٣٤) .

بدأ الكرج فى تجهيز قوتهم لمهاجمة الخوارزميين ، والبدء بالعدوان قبل أن يبدأ جلال الدين ، فقد اجتمعوا بموضع يقال له كربى (٣٥) فكانت عدتهم ستين ألفا ، ويعلل النسوى مناورتهم بالعدوان حتى يشــعروا بما عندهم من الشوكة والكثرة ، لعله يرغب فـــ مهادنتهم فيســلمون بها من جر العقاب » (٣٦) .

جهز جــلال الدين قواته وجمع شـــتاتها وعندما وصـــل الى نهر

---

(٣٢) سبط بن الجوزى « مرآة الزمان » جـ ٨ ص٦٣٤ .

(٣٣) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٣٥٩ حوادث سنة ٦٢٢هـ .

(٣٤) قالو له « باننا قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا واكثر عسكرا ، واقوى نفسا بددوا عسكره وملكوا بلاده وافنوا اهلها قتلا واسرا ، ثم هرب الى جزيرة فى البحر فمات فيها كمداً » ابن الأثير « نفســـه » .

(٣٥) ابن واصل « مفرج الكروب » جـ ٤ ص ١٥٢ حوادث سنة ٦٢٢هـ بينما يذكر هوراس أن المقصود بها هو زوزان Zauzan احد أقاليم أرمينية أنظر النسوى ، المصدر السابق ص ٢٩٧ .

(٣٦) النسوى « المصدر السابق » .

رسى [٢٧] وصلته الأنباء باقتراب الكرج فتوجه الى كربى فرأى الكرج « بكثرتهم ووفرتهم وقوة رجــالهم ما جعل جــلال الدين يرتاع منهم « ما يروع الذئاب من سوام الغنم والليوث الجياع من هوام النعم [٢٨] .

رتب جلال الدين جيوشه وانتظر هجوم الكرج فلم يهجموا فانتظر الى أليوم التالى ، ثم عقد العزم على البدء بالهجوم لأنه رأى أن « العدو مال الى المماطلة » [٢٩] وقرر أن يركز هجومه من جميع الجهات ، وأعد لهم الخطة التى يجب أن يسيروا عليها .

تحركت الفرقة الخوارزمية الأولى لقتال الكرج الذين كان يقودهم فى هذه المعركة القائد شلوه [٣٠] فقاتلوه واقتتلوا وهزم الكرج هزيمة نكراء وقبض على القائد شلوه ، وأسره المسلمون فأصــبح ايوانى هو مقدم العسكر عليهم وفر مذموما مدحورا .

والمعروف أن الملكة عليهم هى الملكة روسودان ، ويوضح كل من ابن الأثير وبن واصل هذه النقطة ويعرض أن « ايوانى لم يكن فى الحقيقة ملكهم ، وانما كان الملك يومئذ فى يد امرأة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة » [٣١] .

عندئذ هرب ايوانى وتوجه الى قلعة تابعة للكرج وتقع على الطــيق

---

(٢٧) نهر أرسى Araxes فى بحر قزوين بعد أن يلتقى بنهر الكور Kur وقد ورد ذكر هذين النهرين فى صبح الأعشى باسم الرسى والكر . القلقشندى « صبح الاعشى » جـ ٤ ص ٤٠٢ .

(٢٨) النسوى « نفسه » ص ١٩٨ .

(٢٩) المصدر الســابق .

(٣٠) يذكــر واصل أن القائد عليهم كان ايوانى ولبس شــــلوه ابن واصل « مفرج الكروب » جـ ٤ ص ١٥٣ .

(٣١) ابن الأثير « الكامل » حوادث سنة ٦٢٢هـ .
ابن واصل « مفروج الكروب » جـ ٤ ص ١٥٣ حوادث سنة ٦٢٢هـ .

فاحتمى بها ولكن قوات جلال الدين منعته من ذلك (٣٢) ويعرض النسوى صورة حية لما فعله جلال الدين بالكرج بعد هزيمتهم على يديه يتضح منها الرغبة الأكيده للانتقام منهم لما سبق أن فعلوه بالمسلمين ، فكان انتقام جلال الدين واضحا ، فقد كان الكرج يساقون اليه وهو واقف على التل . « والكرج تساق اليه بجزايم الذل كما ساق الموجومون الى النيران ، وجوه عليها غبرة الكفران ترهقها قترة الخذلان حتى أن جلال الدين كان يأمر أتباعه ان كل من يصل اليه يطأ بأقدامه على قتلى الكرج ويدوسهم » (٣٣) .

أمر جلال الدين أحـد رجاله وهو تاج الدين مليح بالتوجه الى تبريز بجماعة من أمراء الكرج والأسرى ورؤس القتلى مبشرا بما أتاح الله عـلى يديه « وقد غنم جـلال الدين غنائم كثيرة إمتلأت بها أيدى رجاله » .

أقر جلال الدين جنوده داخل أرض الكرج وأمرهم بالبقاء بها تحت امرة أخيه غياث الدين بن خوارزم شاه ، وكان قد انضم اليه وصار من اعوانه ، وتوجه نحو تبريز لما وصله من أخبار الفتنة التى قام بها من قبل شمس الدين الطغرائى وابن أخيه نظام الملك (٣٤) .

وبعد أن انتهى من أمر الفتنة توجه الى كنجه وبيلقان وغيرها من

---

(٣٢) لم يكن هذا الانتقام رغبة فى سفك الدماء والتشفى ولكن نتيجة لما فعله الكـرج من قبل بالمسلمين ودليل ذلك موقف جلال الدين مع أهل اذربيجان عندما دخلها وكيف تسامح مع أهلها ومنحهم الأمن والأمان .

(٣٣) النسوى « نفسه » ص١٩٩ .

Juwaini « op - cit » p. 427.

(٣٤) ابن الأثير « نفسه » .

ابن واصل « مفرج الكروب » ج ٤ ، حوادث سنة ٦٢٢هـ .

النسوى « بسيرة السلطان جلال الدين » ص ٢٠١ .

PeterBrent « op - cit » p. 110.

البلاد ، وكان مظفر الدين أزبك موجودا هناك فهرب منها ، ووصلته أنباء زواج الملكة زوجته من جلال الدين « وان ذلك كان برغبة صادقة منها وخطبة من صوبها متتارجه » (٣٥) عندئذ مات أزبك حزنا ونكدا . وفى العام التالى قرر جلال الدين مهاجمة الكرج فقام « ببث غوارته الى خريات بلاد أنجاز (٣٦) وفى نفسه قصد تفليس » (٣٧) ، فقاد جيشه ضد أراضيهم فوصل الى نهر آرس عندئذ نجح فى اكتشاف رسالة موجهة من قبل شلوه الكرجى الأسير عنده الى أمراء انجازيا يحذرهم برحيل السلطان ، لذلك قبض عليه جلال الدين ووسطه (٣٨) على شاطىء النهر .

توجه جلال الدين الى تفليس التى كانت محصنة تحصينا دقيقا لكنه حطم هذه التحصينات ، واقتحم المدينة ، ونجح الجيش الخوارزمى فى السيطرة على تفليس عاصمة الكرج ، ومقر المملكة روسودان فحمل على الناس حملة « كشفتهم عن رؤوس بلا غلاصم (٣٩) ، وأيد بلا معاصم » .

ودخل غياث الدين المدينة ، وبدأ الانتقام من الكرج بنفس الصورة التى حدثت من قبل عندما هزموهم فى العام الماضى ، ولعل ذلك

---

(٣٥) النسوى « المصدر نفسه » .

(٣٦) خريات المقصود بها خرثيليات فى بلاد الانجاز بجورجيا .

(٣٧) النسوى « المصدر نفسه » .

(٣٨) التوسيط : عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف على أن تكون الضربة قوية تحت السره ، فينقسم الجسم الى نصفين من وسطه وتنهار امعاء المحكوم عليه الى الأرض .
انظر عاشور « العصر المماليكى » ص ٤٢٤ .

(٣٩) الغلصم « اللحم بين الراس والعنق ، والجمع غلاصم وهذا كناية عن القتل والفتك » .

صورة للانتقام من هؤلاء الكفار لما سبق وأن فعلوه بالمسلمين (٤٠) .

وقـــد حـــاول الكرج وجنودهم المرتزقة الاحتماء بالقلعة الا أن جلال الدين وجنوده أحاطوا بها ، وسلطوا عليها آلات الحصار ، فطلب الكرج الأمان وتسلم القلعة (٤١) .

وقد أعمل جلال الدين الأسر فى الرجال والسبى فى النساء ولم يعف من القتل الا من اعتنق الاسلام ، وهكذا انتقم للمســلمين الذين عانوا ما عانوه من أهالى جورجيا فى السنوات التى سبقت عودته الى فارس ، وقد استطاع الخوارزميون بعد هذا النصر ان يضعوا أيديهم على هذه البلاد ، وان يطبعوها بالطابع الاسلامى الى حين (٤٢) .

ومازال بن الأثير ينعى فى حوادث هذا العام ، ويتذكر ما فعله ملك آرزن الروم مغيث الدين طغرل شاه ، والذى خاف من هجمات الكرج على بلاده ، وحاول أن يأمن شرهم فزوج ابنه من الملكة روسودان ، فتنصر الابن مرضاة لأبيه ، ولبس الأب « على رأسه علما منه فى اعلاه صليب » (٤٣) .

وقد استمرت قوات الخوارزميين تقتحم مدن الانجاز ، وقد أبقى جلال الدين بمدينة تفليس شرف الدين الذى عينه واليا عليها ، فقـــام باستكمال مهمة جلال الدين الذى اضطرته الظروف السياسية أن يترك مناطق القتال ويعود مسرعا الى الجنوب من ممتلكاته فى كرمان حيث

---

(41) Brosset « Histoire de la Georgie » T. I, pp. 504 - 509 I, Bertold — Spuler « The mong ols in history p. 39.

Juwaini « op - cit » vol, II, p. 433.

(٤١) النسوى « المصدر السابق » ص ٢١٢ .

(42) Defremery « Fragements de Geographi et d'historiens Arabes et Persians et indets » pp. 46 — 48.

(٤٣) ابن الأثير « الكامل » حوادث سنة ٦٢٣ هـ .

وصلته الأخبار عن سوء نية حاكم الاقليم « براق صاحب » وسياسته العدوانية ، وما كان يقوم به من تحريض الأعداء ضده [٤٤] .

وقد ترددت أخبار بأن الكرج حاولوا تجميع شتات جيشهم ، وحاصروا شرف الدين بتفليس ، لذلك وصلت اليهم نجده من قبل أورخان المعين على كنجه ، وعند وصوله تأكد أن كل ما أذيع عن هذه الاضطرابات كذب ليس له أساس من الصحة [٤٥] .

وقد عاد جلال الدين مرة أخرى الى تفليس ، بعد أن وصلته أخبار أن عسكر الملك الأشرف الأيوبى صاحب خلاط قد هزموا جنود الخوارزميين ، ويحثه على العودة الى تفليس فعاد اليها [٤٦] . بعد أن وصل الى تفليس توجه الى مدينة آنى وهى من مواطن الكرج ، حيث كان ايوانى مقدم عسكرهم معتصما بها ، فحاصره جلال الدين ، ثم بعث بفرقة أخرى من الخوارزميين الى مدينة قرس الكرجية أيضا ، فنازل المدينتين ، وظل الحصار طويلا واستمات الكرج فى المقاومة ، خوفا من أن يصيبهم ما أصاب اخوانهم بمدينة تفليس ، فاضطر جلال الدين الى ترك حصار هاتين المدينتين الى جنوده وتوجه الى بقية بلاد الأنجاز ليستأصل شأفة الكرج منهم « فأوقع بمن فيها وضرب البلاد وأحرقها » [٤٧] .

وقد نجح جلال الدين فى الاستيلاء على خلاط من أمراء البيت الأيوبى ، ثم جدد عزمه على استكمال مسيرته فى بلاد الكرج . وفى العام التالى سنة ٦٢٤هـ جدد جلال الدين هجماته مرة أخرى وذلك بعد أن سحب عددا كبيرا من الحامية الخوارزمية الموجودة بتفليس مما أدى الى ضعف الحماية ، ونجاح زعماء الكرج فى العودة اليها حيث يقيمون

---

(٤٤) ابن الاثير « نفسه » .
(٤٥) النسوى « المصدر السابق » ص ٢١٦ .
(٤٦) ابن الأثر « الكامل » حوادث سنة ٦٢٣ هـ .
(٤٧) نفسـه .

بآنى وقرس ، وقد دخل الكرج المدينة مرة أخرى وانتقموا من المسلمين بها وأحرقوها ، لذلك قدم اليها جلال الدين فهرب منها الكرج الى آنى وقرس » (٤٨) .

ولقد وضح لنا الآن أن الملكة روسودان قد تحملت فى عهدها كل هـذه الهزائم والكوارث ، ولم تقم لملكتها قائمة فيما بعد ، وضـاع استقلال بلاد الكرج . ولقد عملت روسودان وقائدها ايوانى على أن تنفخ فى جيشها روحا وأملاً ربما تحقق به انتصارا فقامت بالاستعانة بجيوش البـلاد المجاورة لمدينـة الدربند وهم قبـائل اللكز والآلان والأرمن القفجاق والسون وانجاز والجنيت من أجل تكوين قوة تستطيع أن تقهر بها جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٥هـ / ١٢٥٧م (٤٩) ووصلت عدة الجيش الى ما يقرب من أربعين ألفا ويزيدون ولعل ما شجع ملكتهم على ذلك ما حققه الكـرج على بعض المسـلمين عند منطقة لورى من انتصارات .

لذلك جهز جلال الدين قواته واتجه ناحية البحيرة والتقى بجيش الكرج فهزمه هزيمة كبرى ، وأتى نصر الله بالفتح ، وحضر منهم جماعة فأمر بضرب رقابهم (٥٠) ، واسـتولوا على أسـلحة وعتاد قائد الكرج ايوانى ، ثم توجه جلال الدين بعد ذلك ناحية لورى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وراسل الكرج بها وهددهم وطلب منهم تسليم أى من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى معركة البحيرة حتى تأكد جلال الدين من عدم تواجد أسرى من الخوارزميين لديهم (٥١) .

---

(٤٨) ابن الأثير « الكامل » حوادث سنة ٦٢٣ هـ ، ابن واصل «نفسه»

(٤٩) النسوى « المصدر السابق » ص ٢٩١ .

(٥٠) المصـدر السابق .

(٥١) نفســه .

وقد تعرضت منطقة اسلامية من أملاك الخوارزميين للاغارة من قبل الكرج ، وهى منطقة كنجه ، فقد تعرضت لعدوان تكرر من قبل بهرام الكرجى ، لذلك جهز جلال الدين قواته عند قدومه الى كنجه ، وتوجه نحو قلعة يقيم فيها بهرام تسمى قلعة « شكان » ففتحتها عنوة واقتدارا ثم توجه الى قلعة عليا باذ « كانت للملكة تمستاها » (٥٢) ، ثم توجه الى قلعتى كاله وكوارين فحاصرها حتى اضطر الكرج الى المهادنة ، ودفع الجزية وبذلك دان الكرج بالطاعة للخوارزمية •

أما مصير روسودان فقد هربت من تفليس ولم تتمكن من الاقامة فيها مع بقاء القوات الاسلامية ، وتوجهت صوب كوتابييس « كوتاهية » Kutais وهى عاصمتهم القديمة فى الأنجاز (٥٣) •

والواقع أن هذه الانتصارات التى حققها الخوارزميون على هذا الشعب المسيحى كانت انتصارات وقتية حيث أن قوى الخوارزمية بدأت فى الذبول بعد أن استولوا على خلاط كما ذكرنا ، ثم استولوا على أذربيجان لكن سقوط جلال الدين مريضا وهزيمة قواته على أيدى الأيوبيين والسلاجقة ، كانت بداية النهاية لجلال الدين (٥٥) • والواقع ان هناك ظروفا أخرى قد جدت وهى بداية النشاط المغولى فى هذه المنطقة هذا النشاط الذى سيقضى على كل محاولة أمل وكل بادرة خير بدأت تظهر لربط الصف الاسلامى ، وتقضى على الخلاف الدائر بين أمراء البيت الأيوبى من ناحيةو جلال الدين منكبرتى من ناحية أخرى (٥٥) •

---

(٥٢) المفروض أنها الملكة روسودان ولكن بروسيه Brosset يذكر تمثا Thamatha انها ابنة ايوانى •

(53) Brosset « op - cit » I p. 514.

(٥٤) ابن الأثير « الكامل » ث ٩ ص ٣٨١ •
أبو شامه « ذيل الروضتين » ص١٥٩ •
Juwaini « op - cit » vol II p. 99.

(55) Ibid , p. 452.

(جـ) الخوارزميون والباطنية (٥٦) :

بدأ الخوارزميون يهاجمون قلاع الاسماعيلية منذ عهد خوارزم شاه علاء الدين محمد الذى قام بقتالهم وافتتح قلعة أرسلان شاه القريبة من قزوين وانتقل الى حصار قلعة الموت .

وقد دافع الباطنية عن أنفســهم فقتلوا صدر الدين محمد رئيس الشافعية بالرى الذى اشترك فى هذا الحصار ، ثم عاد خوارزم شاه الى خوارزم وبعد عودته وثبوا على وزيره نظام الملك مسعود فقتلوه(٥٧) .

وحينئذ جهــز خوارزم شاه ابنه قطب الدين محمد لقتالهم الى قلعة ترشيش وهى من أهم قلاعهم فحاصرها ، وصالحوه على مائة ألف دينار وعاد عندما بلغه مرض أبيه (٥٨) .

وفى عهد السلطان جلال الدين منكبرتى الذى عاد من حملاته من الهند واقطع كل رجل من رجاله اقطاعا معينا ومن جملتهم أورخان الذى اقطعه خراسان . وقد كان هذا النائب يتعرض الى بلاد الاســماعيلية وما يتضمنها مثل تون وقلين وقهستان بالنهب والقتل ، لذلك بعث اليهم زعيم هذه الفرقة بأحد رجاله ويدعى الكمال ، وقد كان نائبا لهم عن بلاد الشام ، فتقابل مع جلال الدين الذى أمر بلقاء بين رســول الاسماعيلية والنائب أورخان حتى ينهوا أسباب النزاع ، فما كان من أورخان الا أن استهزأ بالرسول الباطنى الذى سمع منه تهديدا وقام بالقاء السكاكين والسيوف أمام الرسول وقال :

---

(٥٦) عن تفاصيل الباطنية ارجع الى :
عفاف صبره « أخطار الباطنية زمن الحروب الصليبية » ضمن كتــاب « دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية » ص ١٠٧ الى ص ٢٦١ .
(٥٧) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٢٤٨ حوادث سنة ٥٩٥ هـ .
(٥٨) المصدر نفسه .

« هذه سكاكيننا ولنا من السيوف ما هو أمضى واحد » (٥٩) .

لذلك عاد الرسول بدون أن يظفر بطائل من الخوارزمية ، فانتهز الباطنية فرصة رحيل جلال الدين الى كنجه ودبروا مؤامرة لقتل أورخان حيث وثب عليه ثلاثة من الفدائيين وقتلوه ونادوا بشعار علاء الدين(٦٠) .

وفى هذه الفترة أيضا ، وصل مبعوث آخر من قبل الشيخ علاء الدين ، وعندما سمع بما فعله الفدائيون تحير فى الأمر ، هل يعود من حيث أتى أم يستمر فى سفاراته ، واستقر الأمر على أن يعرض على شرف الملك وزير السلطان جلال الدين الذى سهل له قضاء مهمته ، ليس رغبة فى ذلك ، وانما خوفا من أن يلحق به ما لحق بأورخان .

وكانت مطالب الخوارزمية تتلخص فى عدم تعرض الباطنية لمتلكاتهم خاصة بعد استيلائهم على دامغان (٦١). وانتهى الاتفاق على أن تبقى بأيديهم ويدفعوا عنها الى خزانة جلال الدين ثلاثين ألف دينار وكتب لهم بها توقيعا (٦٢) .

وقد بقى رسول الباطنية فترة عند شرف الدين الخوارزمى الذى جالسه ونادمه ، وقد أفشى رسول الباطنية أثناء ثمله بخبر تواجد مجموعة من الفدائيين فى جيش الخوارزمية بدون علمهم ، وفعلا التقى بهم شرف الدين ، ولكنه تحدث وتذلل اليهم ذلا لا حد له مما أثار حمية السلطان جلال الدين ، فأمره أن يحرق هؤلاء الفدائيين الخمسة ، فحرقهم أمام بابه على كره منه .

---

(٥٩) النسوى « سيرة السلطان جلال الدين » ص ٢٢٨ .

(٦٠) المصدر السابق . المقصود به علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث داعى الباطنية فى فارس سنة ٦١٨هـ / ٦٥٣ هـ .

(٦١) مدينة بين الرى ونيسابور .
ياقوت الحموى « معجم البلدان » جـ ٤ ، ص ٣٦ .

(٦٢) النسوى « المصدر السابق » ص ٢٣١ .

وبعدها وصل مبعوث من قبل الباطنية الى جلال الدين يطلب منه دفع ديه عن كل فدائى من هؤلاء الخمسة تقدر بحوالى عشرة آلاف دينار واضطر جلال الدين الى اجابة مطلبهم (٦٣) .

وعندما حصل خلاف بين جلال الدين وأخيه غياث الدين ، توجــه غياث الدين الى بلاد الباطنية فى قلعة الموت مستنجدا بهم طالبا الحماية من أخيه ، لذلك أرسل علاء الدين صاحب القلعة الى جلال الدين يطلب الأمان لغياث الدين ليعود الى الخدمة « فأجاب السلطان الى ما سأل من الأمان وأكد قوله بالايمان » (٦٤) .

وقد تبدلت سياسة الباطنية تجاه الخوارزمية فيما بعد اذ فوجئنا بســفارة من قبل علاء الدين صــاحب قلاع الباطنية الى جلال الدين منكبرتى مكونة من تسعة من الفدائيين « تقربا الى الســلطان على أن يجهزهم الى من شاء من أعدائه فيقتلونهم » (٦٥) .

ويعلل الأستاذ حافظ حمدى ذلك بأن طائفة الاسماعيلية هذه فى ذلك الوقت قد فقدت سلطانها القديم فى أقاليم الشرق الاســلامى ، ولم يعد لها تلك المهيبة التى كــانت تتمتع بها من قبل ويرجع ذلك الى

---

(٦٣) النسوى « نفسه » .

(٦٤) المصدر نفسه ص ٢٤٣ .

يذكر بن الانبر رواية أخرى تختلف عن تلك التى ذكرها النسوى فقال ان جلال الدين منكبرتى لما علم بوجود اخيه لدى طائفة الاسماعيلية هددهم بغزو حصونهم اذا لم يسلموا أخاه اليه ، فرد عليه مقدم الاسماعيلية برسالة جاء فيها « ان اخاك قد قصدنا وهو سلطان بن سلطان ولا يجوز لنا نسلمه ولكن نحن نتركه عندنا ، ولا نمكنه من أن بقصد شيئا من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه ، والضمان علينا بما قلنا ، ومتى كان منه ما نكره فى بلادك ، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار « فأجابهم جلال الدين الى شفاعتهم وعاد الى بلاده » .

ابن الأثير « الكامل » ج ٩ حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٦٥) النسوى « المصدر نفسه » ص ٢٤٧ .

أسـباب كثيرة منها ازدياد شوكة جلال الدين واتسـاع نفوذه فى أقاليم العـراق العجمى وفارس وأذربيجان منها أيضـا ما يرجع الى الخطر المغولى عن بلاد الشرق الاسلامى الى حين مما ترتب عليه اطلاق جلال الدين العنان لنفسه فى هذه البلاد وضعف تلك العلاقة التى كانت أشبه ما تكون بالتحالف بين الاسماعيلية والمغول ، فلا عجب اذا ما حاول قادة الاسماعيلية أن يسلكوا فى هذه الفترة سياسـة المسـالمة مـع الخوارزميين (٦٦) .

ورغم هذه السياسة الا أن التوتر السياسى بدأ فى فارس عندما وصلت الأنباء الى السلطان جلال الدين بأن هناك فئة من المغول قـد توجهت الى بلاد الشام صـحبة تجار الباطنية ، لذا صـدرت الأوامر السلطانية بالقبض على أفراد هذه القافلة عند عودتهم (٦٧) .

ومن المحتمل أن تكون هذه القافلة تحمل رسـلا من قبل المغول والباطنية هدفهم الاتصال بالصليبيين فى بلاد الشام لتأليف حلف ضـد المسلمين وقد نجح شرف الملك الموكل من قبل جلال الدين فى القبض على رجال هذه القافلة وقتل من فيها ، وكانوا حوالى نيف وسبعين رجلا (٦٨) .

لذلك ثارت ثائرة الشيخ علاء الدين شيخ الباطنية بالموت وبعث مندوبا من قبله لمقابلة جلال الدين منكبرتى معاتبا اياه على ما حـدث . فأمر جلال الدين برد جميع ما سلب من القتلى الباطنية الذين بدأت طائفتهم تتنازل عن كبريائها كثيرا مع الخوارزمية . فى هذه الفترة بعد أن لاحت قوة جلال الدين منكبرتى كما أوضحنا من قبل ، حتى أنهم ظلوا يدفعون أتاوة سنوية لجلال الدين والخوارزميين . وقد ذكر النسـوى

---

(٦٦) حافظ حمدى « حاشية كتاب النسوى » ص ٢٤٧ .
(٦٧) النسوى « نفسه » ص ٢٦٥ .
(٦٨) نفســه ص ٢٦٦ .

أن رسولا قدم من قبل الباطنية يلقب بفلك الدين كان يحمل معه عشرين ألف دينار مما يجب حمله من الأتاوه المقررة عليهم ، والتى كانت تقدر بثلاثين ألف دينار ، واتضح انهم قد تأخروا عامين عن سداد ماقرر عليهم، لذلك سلموا لجلال الدين عشرين ألف دينار ودفع الباقى حجج وأرسل النسوى الى علاء الدين شيخ الباطنية لمطالبته برد المال (٦٩) .

ومن جملة المهام التى بعث بها النسوى الى علاء الدين شيخ الباطنية مطالبته برد غياث الدين أخى جلال الدين والذى أخلف الوعد فى ردة ، وقد أمر جلال الدين مبعوثه بعدم تقبيل يد علاء الدين وفق المراسيم المتبعه لدى الباطنية ، وألا يسلم الرسالة الا لعلاء الدين الذى تمت المقابلة بينهم بعد ثلاث ليال (٧٠) .

ومن أهم الموضوعات التى بحثها النسوى فى مقابلته لعلاء الدين أنه طالب باعادة الخطبة للسلطان جلال الدين الخوارزمى طبقا لما كان متبعا فى أيام والده علاء الدين محمد خوارزمشاه ، ولكنهم حاولوا انكار هذا الموضوع ، ومنها ان جلال الدين أراد أن يتحقق من حقيقة الاتصال الذى تم بين الباطنية والمغول ، فأخبروهم أن هذه الغارة ليست الا لمداراة المغول منعا لأذاهم ، ومنها مطالبتهم بالأتاوة المقررة عليهم وضرورة حملها الى الخزانة العامة من غير بخس (٧١) .

وواضح من هذه السفارة الى علاء الدين شيخ الباطنية مدى الاحترام والموده التى عاملوا بها النسوى ، ومدى التذلل والخضوع للخوارامبين مما يؤكد حقيقة أن الباطنية بدأوا ينهارون ويفقدون وزنهم الماضى بين القوى المحيطة .

---

(٦٩) النسوى « المصدر نفسه » ص ٣٣٦ .

(٧٠) نفسه ص ٣٤٠ .

(٧١) نفسه ص ٣٤١ .

ومع ذلك فان الباطنية كانوا يحاولون أن يتقربوا الى أى من القوى الظافرة ، ويلعبون على الحبلين حتى لا يضاروا أو يصابوا بأذى •

فقد سبق أن قام جلال الدين حسن شيخ الباطنية بمراسلة جنكيزخان وأرسل رسولا من قبله اليه ليقدم له فروض الولاء والطاعة عند قدومه على رأس جيشه الى اقليم ما وراء النهر ، وبعد عبوره نهر سيحون (٧٢) ، كانت هزيمة جلال الدين منكبرتى من قبل على يد المغول وانفصال أخيه غياث الدين عنه ، الى جانب هزيمته من علاء الدين كيقباد بن كيخسرو صاحب بلاد الروم ومن الملك الأشرف صاحب دمشق والجزيرة وخلاط جعلت مقدم الاسماعيلية يراسل المغول « يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه وتحثهم على قصده » (٧٣) •

ويعلل بن الأثير موقف الاسماعيلية منه لأنه « عاداهم ونهب بلادهم وقتل منهم فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة » (٧٤) •

(د) الخوارزميون والأيوبيون :

تنتسب الدولة الأيوبية الى صلاح الدين الأيوبى الذى نجح فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وأعاد مصر الى الخلافة العباسية السنية فى مصر ، كما نجح فى فرض سيطرته على مصر والشام ووراثة ملك الزنكيين •

ولقد كان قيام الدولة الأيوبية فى مصر فى وقت هى فى أشد حاجة الى قيام قوة تقف أمام جحافل الصليبيين ، وتستطيع أن تنهض البلاد من كبوتها وعثرتها حيث وضع صلاح الدين تنظيمات عسكرية

---

(٧٢) رشيدالدين « جامع التواريخ » جـ ١ ص ١٧٨ •
D'ohsson « Histoire des mongols » vol II p. 171 .

(٧٣) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٣٨٣ حوادث سنة ٦٢٨هـ •

(٧٤) نفسه •

بارعة واتخذ خططا عسكرية متنوعة فى جهاده ضد الصليبيين استطاع عن طريقها استرداد بيت المقدس ومعظم سواحل الشام • ولقد ورثت الأسرة الأيوبية معظم الممتلكات الخاصة بالأسرة الزنكية فى بلاد الشام والجزيرة الا أن هناك بعضا من الأتابكيات ظل تحت النفوذ الزنكى •

وقد ظلت الوحدة هى طابع الحكم طوال حياة صلاح الدين الأيوبى الا أنه بعد وفاته تعرضت هذه الأسرة للتفكك نتيجة للصراع على العرش بين أبنائه واخوته • فقد حكم العزيز عثمان مصر ، والأفضل نور الدين دمشق وبعض سواحل الشام والظاهر غازى حلب وجميع أعمال بلاد الشام (٧٥) • وأما العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين ، فقد أخذ الكرك والأردن فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، ووزعت الاقطاعات الثانوية بين بقية اخوة صلاح الدين وأبناء بيته (٧٦) •

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبى مما أثر تأثيرا كبيرا على الجبهة الاسلامية التى كانت فى هذه الآونة أشد ما تكون فى حاجة الى الوحدة والقوة ، حتى أن الغرب الأوروبى انتهز هذه الفرصة للقيام بحملة صليبية لاسترداد بيت المقدس لا سيما وان صلح الرملة الذى عقده ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين كان محددا بثلاث سنوات (٧٧) والحقيقة أن العادل الأيوبى نجح فى توحيد الجبهة الاسلامية وتوحيد البيت الأيوبى بعد وفاة العزيز عثمان فى مصر سنة ١١٩٨م ، فقام بتعيين أبنائه بعده فأناب الكامل محمد على مصر والمعظم

---

(٧٥) عماد الدين الأصفهانى « الفتح القسى » صص ٣٥٨ — ٣٥٩ •

(٧٦) ابن واصل « مفرج الكروب » ج ٢ صص ٣٧٨ — ٣٧٩ •
أبو شامة « كتاب الروضتين » ج ٢ ص ٢٢٦ •

(77) Grousset « Histoire des Croisades » Ton III p. p 144.

عيسى فى دمشق والأشرف موسى حران والأوحد ميافارقين ، وكان للعادل الاشراف التام على جميع تلك الأنحاء (٧٨) •

وخـــلال هذه الفترة كانت الدولـــة الخوارزمية قد اكتمل نموها وتوسعها خاصة على عهد الشاه الخوارزمى علاء الدين محمد • فقد حاول الملك العادل الأيوبى أن يكسب وده خوفا من بطشه ولما لمسه فيه من قوة مكنته من فرض نفوذه السياسى على جميع القوى المعاصرة •

وكل ما يهمنا من هذا الموضوع هو دور السلطان جلال الدين منكبرنى الذى حالفه سوء الحظ بظهور قوى المغول فى الشرق •

لقد تعرضت الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان العادل للانقســـام مرة أخرى بين أبنائه ، وهـــذا الانقســـام أعطى الفرصة لظهور القوى الخوارزمية مرة أخرى •

فقد بدأ الملك المعظم عيسى سلطان دمشق فى مراسلة خوارزم شاه للاتفاق معه بعد أن علم « باتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه » لذلك بعث الى جلال الدين مبعوثا من قبله وهو الصدر البكرى (٧٩) محتسب دمشق ورتب معه صوفية •

وقد حاول المعظم عيسى أن يتخذ من موضوع ظهور الجراد الكثير فى بلاد الشام والذى أكل الزرع والشجر والتمر سببا لارسال مبعوثه الى جلال الدين • فقد تحجج بأنه يوجد « ببلاد العجم طيرا يقال له السمرمر يأكل الجراد ، وان هناك عينا يجتمع فيها السمرمر فيأخذ من مائها قوارير ويعلقه على رءوس الرماح فكلما رآه السمرمر تبعه » (٨٠) ولكن أبى شامه يعلق على ذلك بأن المعظم لم يقصد ذلك وانما يقصـــد رغبته فى محالفة جلال الدين •

---

(٧٨) ابو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٦ ص ٢٢٧ •
(٧٩) ابو شامه « ذيل الروضتين » ص ١٣١ •
(٨٠) ابو شامه « الذيل » ص ١٣١ •

وقد حدث خلاف بين أبناء البيت الأيوبى حول مدينة خلاط وهى من بلاد أرمنية ، ومجاوره لممتلكات جلال الدين الخوارزمى • فقد كان الملك الأشرف موسى بن العادل قد أقطع أخاه شهاب الدين غازى خلاط وميافارقين وحانى وحيل حور ، ولم يقنع بذلك حتى عينه ولى عهده فى البلاد التى له جميعا (٨١) •

بدأ شهاب الدين يظهر التمرد ومحاولة الخـروج عـلى أخيـه فقام الأشرف موسى بمراسلته « يستميله ويعاتبه على ما فعل » (٨٢) ، ومع ذلك استمر شهاب الدين فى موقفه العدائى تجاه أخيه ، بل قـام بمراسلة أخيه المعظم عيسى حاكم دمشـق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل لتكوين حلف ضـد الأشرف موسى واعداد العدة لمحاربته • العدة لمحاربته •

وصلت أخبار هذا التحالف الى الأشرف موسى فقام بالاتصـال بأخيه الملك الكامل بمصر ليخبـره بتفاصـيل الموضوع ، ويطلب منه النجدة فأرسل اليه ما طلب ، وبعث الى المعظم عيسى يهدده اذا اعتدى على ممتلكات أخيه الأشرف موسى • لذلك عادت القوات المتحالفة من حيث أتت فى حين توجـه الأشرف موسى بقوات جمعها من الشـام والجزيرة والموصل وتوجه الى خلاط ، وعندما اقترب من المدينة نرعزع مركز شهاب الدين غازى وانتظر وصول النجدة اليه فلم تأتى ، كما أن أهل المدينة كانوا يكرهونه لسوء سيرته لذلك سلمت خلاط للأشرف موسى (٨٣) • فى الوقت الذى عين على خلاط مملوكه أيبك (٨٤) •

---

(٨١) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٣٥٣ حوادث سنة ٦٢١ هـ •

(٨٢) نفســه •

(٨٣) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٣٥٤ حوادث سنة ٦١١ هـ •

(٨٤) أبو شامه « ذيل الروضتين » ص ١٤٢ حوادث سنة ٦٠١ هـ

حدثت هذه الأحداث فى خلاط فى الوقت الذى فتح فيه جـلال الدين خوارزم شـاه أذربيجان • فانتهز المعظم عيسى هذه الفرصـة ومجاوره ممتلكات جلال الدين لممتلكات أخيه ومنافسه الأشرف موسى ، وأرسل اليه رجلا صوفيا من خانقاة السمسياطى يقال له الملق حـاملا رسالة الى خوارزم شاه من أجل الانضـمام الى الحلف الثلاثى المكون من المعظم عيسى ، وشهاب الدين غازى ومظفر الدين بن زين الدين حاكم اربل ضد أخاهم الأشرف موسى (٨٥) •

ويذكر الدكتور العبود نقلا عن بن الجوزى أن جلال الدين أجابهم لطلبهم ، ولكى يضمن المعظم استمرار تحالفه مع جلال الدين عمد الى مصاهرته ، فزوجه ابنته الكبرى المسماه « دار مرشد » (٨٦) وقد وضح لنا المؤرخ الثقة أبو شـامة ، فى الذيل أن جلال الدين خوارزمشـاه كان تواقا هو الآخر لاقامة التحالف مع المعظم عيسى للوقوف فى وجه الخليفة الناصر لدين الله •

كـان جلال الدين قـد عقد العزم عـلى التوجـه الى بغـداد « فانزعج الخليفة وأخرج المال وفرق فى العسـاكر ألف ألف دينار ، ونصب المجانيق على الأسوار وفرق السلاح وفتح الأهـراء » (٨٧) • وكتب الى المعظم عيسى يقول « تحضر أنت ومن عاهـدنى واتفق معى حتى نقصد الخليفة ، فانه كان السبب فى هلاك أبى ومجىء الكفار الى البلاد ، وجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع » (٨٨) •

---

(٨٥) المصدر السابق •

(٨٦) العبود « المرجع السابق » نقلا من :
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٦٩ •

(٨٧) أبو شامه « الذيل » ص ١٤٤ •

(٨٨) أبو شامة « نفسه » •

ومع ذلك فقد رفض المعظم عيسى هذه الدعوة الخوارزمية ، ورد عليه قائلا : « أنا معك على كل أحد الا الخليفة ، فانه امام المسلمين »(٨٩) وبعد وفاة الخليفة الناصر لدين الله وتولية الخليفة الظاهر بأمر الله قام الظاهر بارسال مندوب من قبله يدعى محى الدين يوسف بن الجوزى الى المعظم عيسى ومضمون رسـالته طلب رجـوع المعظم عن موالاة الخوارزمى ، كما قام المندوب بتسليم الخلع الى جميع أولاد السلطان الملك العادل وهم اخوة المعظم عيسى • ونص الرسالة « المصلحة رجوعك عن هذا الخارجى الى اخوتك ، ونصلح بينك وبين اخوتك » (٩٠) •

وقد رد المعظم على رسالة الخليفة الظاهر بتخوفه من ترك تحالفه مع جلال الدين منكبرتى ، خوفا من اعتداء اخوته عليه ، وتشكك فى تقديم الخلافة العباسية النجده له ، حيث قال «اذا رجعت عن الخوارزمى وقصدنى اخوتى ينجدونى قال نعم ، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا هذه كتب الناصر عندنا ونحن على دمياط (٩١) ونحن نكتب ونستصرخ به ونقول انجدنا ، ومجىء الجواب بأن كتبنا الى ملوك الجزيرة فلم يفعلوا » (٩٢) وقد أوضح المعظم عيسى للخليفة الظاهر أنه آثر التحالف مع السلطان جلال الدين ، لأن جميع اخوته قد تحالفوا ضده ، لذلك فقد جعل جلال الدين يتجه الى خلاط حتى يقف فى وجه اخواة الأشرف والكـامل « وقد أنزلت الخوارزمى على خلاط ان قصدنى الأشراف منعه الخوارزمى وان قصدنى الكامل كان فى له » (٩٣) •

والواقع أن جلال الدين منكبرتى قد احتل مكانة كبيرة عند المعظم عيسى حتى انه « كان يلبس خلعة الخوارزمى ويركب فرسـة ، واذا

---

(٨٩) نفســه •

(٩١) أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى توجهت الى هــذه المدينة سنة ١٢١٧م بقيادة دو حنادى بريين •

(٩٢) أبو شامة « الذيل » ص ١٤٧ •

(٩٣) المصدر السـابق •

جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه وعنده الأشرف من هذا المقعد المقيم وهو ساكت » (٩٤) .

كما أن المعظم لبى دعوة أخوه الأشرف موسى عندما قدم اليه فى دمشق معلنا خضـوعه له ، طالبا منه أن يطلب من جلال الدين الرحيل عن خلاط حيث أقام بها أربعين يوما ، فوافق المعظم على طلبه وبعث الى جلال الدين حيث رحل عن خلاط (٩٥) .

والواقع أن المشـاكل الى مرت بها الدولة الأيوبية والصراع الدائر بين الاخوة كان له أهمية كبرى فى علاقتهم بالسلطان جلال الدين منكبرتى والدولة الخوارزمية ، خاصة وان سمعة جلال الدين فى هذه الآونة ملأت الآفاق وسببت القلق والخوف للقوى المعاصرة .

لذلك قام السلطان الملك الكامل الأيوبى سلطان مصر بالاستعانة بالامبراطور فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة لمواجهة الأخطـار الداخلية والخارجية التى هددته وهددت دولته . أما هـذه الأخطـار فقد أتت من ناحية المعظم أولا ثم الخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية والدولة الأيوبية ثانيا (٩٦) .

وقد بدأ المعظم مهاجمة مدينة حماه واستولى على بعض أعمالها مثل المعرة وسلمية ، وكانت حماه وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف والكامل لذلك ، وأرسل الكامل الى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماه « فتركها وهو حنق » (٩٧) وكان ذلك

---

(٩٤) المصدر السابق ص ١٤٨ .
(٩٥) نفســـه .
(٩٦) عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٧ .
(٩٧) المقريزى « السلوك » ج ١ ص ٢١٤ .
بو الفدا « المختصر » حوادث سنة ٦٢٠ هـ .

بداية الخلاف بين المعظم من ناحية واخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى .

غير أن الأشرف هرع الى أخيه المعظم عيسى وهو بدمشق ٦٢٠هـ طالبا منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبى أمام خطر الخوارزمية الذين باتوا يهددون الدولة الأيوبية قاطبة ، وكان الأشرف موسى أكثر احساسا بخطرهم بحكم متاخمة بلاده فى الجزيرة وخلاط لهم (٩٨) . وعندئذ استغل المعظم الفرصة التى اتيحت له فقبض على أخيه الأشرف فى دمشق ولم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماه ، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث الكامل فى مصر ، وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم حتى « رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم وتأول فى ايمانه التى حلفها أنه كان مكرها عليها » ، وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث (٩٩) .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى نشب عندئذ بين أبناء العادل هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية (١٠٠) ، ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أن المعظم كاتب جلال الدين ، واتفق معه معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الملك الأشرف » (١٠١) .

وكان أن رد الكامل على ذلك بأن طلب من الامبراطور فردريك الثانى « أن يحضر الى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع

---

(٩٨) عاشور « نفسه » ص ٩٩٨ .

(٩٩) بو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٢٣ .
المقريزى : السلوك ، جـ ١ صص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(١٠٠) المقريزى : السلوك ، جـ ١ صص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(١٠١) المقريزى : نفسه .

فتوح صلاح الدين بالساحل » ولهذا الغرض أرسل الكامل الى الامبراطور مبعوثا خاصا هو الأمير فخر الدين يوسف (١٠٢) .

ولذلك تدهورت الأمور ، وسنحت الفرصة للسلطان جلال الدين لمهاجمة ممتلكات الأشرف موسى فى الوقت الذى أرسل الى المعظم عيسى « خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل » (١٠٣) .

كان السلطان جلال الدين منكبرتى فى هذه الآنة قد نجح فى الاستيلاء على مدينة تفليس عاصمة بلاد الكرج فجاور بذلك ممتلكات الأيوبية فى الجزيرة وخلاط ، فى الوقت الذى تمت فيه اتفاقية بين جلال الدين ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل والمعظم عيسى صاحب دمشق وصاحب آمد ، وناصر الدين صاحب ماردين « ليقصدوا البلاد التى بيد الأشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب » (١٠٤) . لذلك أحكمت الخطة فيما بينهم على أساس أن يتوجه مظفر الدين الى الموصل ، الا أنه تعثر فى مهمته لتحالف حاكمها مع الأشرف ضد مظفر الدين ، أما المعظم فخطته التوجه الى حمص وحماه ، وأرسل الى أخيه الأشرف يطلب منه أن يرحل كل منهم من المدينة التى يحتلها ويعود الى بلده .

أما جلال الدين فقد كانت وجهته خلاط وهى مركز الأشرف موسى الا أنه لم يتمكن من فتحها مباشرة نتيجة لوصول الأخبار اليه بخروج نائبه بلاق حاجب أمير كرمان عليه ، ومحاولته الاستيلاء على المدينة ، فأخر جلال الدين توجهه الى خلاط واتجه الى كرمان فى الوقت الذى

---

(١٠٢) المقريزى : نفسه .

(١٠٣) نفسه :

(١٠٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦٧ حوادث سنة ٦٢٣ هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٧٦ .

حاول فيه أن يخدع هذا الوالى ولا يبين له أنه أتى لتأديبه على العصيان وعلى الاتصال بالمغول لمعونته ضد سيده جلال الدين (١٠٥) .

فطن بلاق حاجب لخدعة جلال الدين وهرب الى قلعة المدينة واعتصم بها وأرسل لجلال الدين قائلا « اننى أنا العبد والمملوك ، ولما سمعت بمسيرك الى هذه البلاد أخليتها لك لأنها بلادك ، ولو علمت أنك تبقى على لحضرت بابك » (١٠٦) والحقيقة أن الظروف التى أحاطت بجلال الدين جعلته يفضل أن يسامح هذا الوالى ويثبته فى ولايته ، خاصة وأن جنوده الذين وقفوا بالقرب من خلاط هزموا ، فكان لابد من عودته الى تفليس .

اضطر الأشرف موسى أمام الخطر الداهم الذى بات وشيكا وأصبح يهدد دولته الى ضرورة عقد حلف مع سلاجقة الروم ، فتم التحالف بينه وبين علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان على أساس تقديم المساعدة الحربية ضد صاحب آمد .. واستعادة المدينة منه .

وانتهز جيش علاء الدين كيقباذ ذلك وتوجهوا الى آمد وفتحوا حصن منصور وحصن شمكازاد ، فخافهم صاحب آمد فراسل الأشرف موسى ، وأعلن رجوعه اليه وطلب العفو ، فعفا عنه الأشرف وأرسل الى علاء الدين كيقباذ يطلب منه رفع الحصار عن آمد واعادة القلاع التى استولى عليها ، فرفض علاء الدين تنفيذ هذه الأوامر متحججا بأنه ليس تابعا للأشرف . لذلك أرسل الأشرف قوات لمساعدة صاحب آمد ضد علاء الدين كيقباذ ، الا أنهم هزموا أمام قوات السلاجقة الذين أبقوا على القلاع فى أيديهم (١٠٧) . ورحل الأشرف الى حران .

---

(١٠٥) ابن الأثير : الكامل ، ص ٣٦٨ حوادث ٦٢٣ هـ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ١٨٦ حوادث سنة ٦٢٣ هـ .
(١٠٦) ابن الأثير : نفسه .
(١٠٧) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٦٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ١٧٨ حوادث ٦٢٣ هـ .

والعجيب أن علاء الدين كيقباذ سـلطان سلاجقة الروم اتجـه بعد هذا الموقف ناحية جلال الدين منكبرتى فأرسل اليه رسالة يغريـه بمعاداة بنى أيوب ويعده المسـاعدة عليهم يقول « انه كان اشـتغل فى سنته تلك بمن يتاخمة من الكفره ، ففتح عدة حصون لهم ، كما أن السلطان اشتغل بالتاتار فردهم على أعقابهم ؛ ولم يبق الآن الا صرف الهمم الى هؤلاء الفئة الباغية والشرذمة الطاغية ؛ وبالغ حتى أنه ذكر رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر »(١٠٨) .

أما عن الملك الأشرف فعندما وجد أن الهزائم تثرى عليه رأى أن يتجه ناحية أخيه الملك المعظم عيسى راغبا فى ازالة ما فى النفوس ؛ وفعلا أظهر له المعظم ابتهاجه بقدومه اليه «قصدا لقطع مادة الشر»(١٠٩) وضربوا البشائر بدمشق الا أنه وكما وصفه بن واصل « حاله فى الباطن بخلاف ما أظهر » والدليل ان الرسل مازالت تتردد بينه وبين جلال الدين منكبرتى وفى هذه الفترة وصل الى المعظم عيسى رسول من قبل جلال الدين ومعه خلعة سنية فلبسها وركب بها ؛ وعزم الملك المعظم عـلى تزويج احدى بناته من جلال الدين (١١٠) ، وصار بينهما اتحاد كلى . كل هذه الأمور حدثت فى وقت قرر فيه جلال الدين ضرورة مهاجمة خلاط أولا : لرغبته فى ضمها لممتلكاته ، وثانيا لايعاز المعظم عيسى له بذلك وثالثا : لهزيمة عساكر الأشرف لعسـاكر جلال الدين عند خلاط ، واستغاثة رجاله بجلال الدين .

كانت خطة جلال الدين مفاجأة النائب على أخلاط والمدعو الحاجب حسام الدين على حتى لا يستعد للقائه لذلك ترك التفكير فى المهاجمة لمدة عشرة أيام قضاها فى تفليس ؛ الا أن أخبار هجومه وصـلت الى

(١٠٨) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٢٧٨ .
(١٠٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(١١٠) المصدر السابق .

مسامع نائب خلاط قبل وصوله بيومين فى الوقت الذى نجح فى مهاجمة مدينة ملاذكرد — احدى مدن خلاط — فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ٦٢٣هـ ، وبعدها هاجم خلاط وقاتل أهلها قتالا شديدا وهاجم المدينة ثلاث مرات حتى وصل الى الربض « ومدوا أيديهم فى النهب والسلب وسبى الحريم » (١١١) وأسروا أعدادا كبيرة من أمراء خلاط ، رغم الدفاع المستميت الذى قام به الحاجب حسام الدين على ، ولم ينقذ أهل خلاط من هجمات الخوارزميين المتكررة غير دخول الشتاء ونزول الثلج بكثرة واعتداء التركمان الايوانية على الممتلكات الخوارزمية (١١٢) . فى مدينة أشتر وأرمية التابعتان لأذربيجان واستولوا على خراج خوى وبدأوا ينهبون ويقطعون الطريق .

وقد انتهز الحاجب حسام الدين ابتعاد جلال الدين عن خلاط وجهز الجيش للتوجه صوب أذربيجان ، متعللا بسوء مسلك الجيش الخوارزمى مع أهل خلاط الى جانب اهمال جلال الدين لزوجته ابنة السلطان طغرل (١١٣) التى قامت هى وأهل خوى باستدعاء حسام الدين الحاجب ليسلموه البلاد ، فوصل الى أذربيجان واستولى على خوى وما يجاورها من الحصون ، وكاتبه أهل مدينة نقجوان ، وعادوا الى خلاط مستصحبين معهم زوجة السلطان جلال الدين لكنهم عندما رجعوا استرجع جلال الدين البلاد التى أخذت منه وأقامت زوجته بمدينة خلاط معززه مكرمة .

وقد صادف هذه الفترة أن السلطان الأشرف موسى رجع من عند أخيه المعظم عيسى الا أنه عندما رجع الى بلاده « رجع عن جميع ما تقرر

---

(١١١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٣٧٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ١٩٠ .
(١١٢) ابن الأثير : نفسه .
(١١٣) كانت هذه المراة زوجة اوزبك البهلوان وتزوجها جلال الدين .

بينه وبين الملك المعظم وتأول فى جميع ايمانه التى حلفها أنه كان مكرها عليها » (١١٤) .

وقد تهيأت للأشرف الفرصة للتمكين لنفسه فى بلاده بوفاة أخيه المعظم عيسى فى ذى القعدة من هذا العام .

جدد جلال الدين هجماته فى العام التالى ٦٢٥هـ/١٢٢٨م على مدينة أخلاط فتعداها الى صحراء موش وجبل حور « ونهب الجميع ، وسبى الحريم واسترق الأولاد وقتل الرجال وخرب القرى » (١١٥) وقد ذاع صيته بين أهل هذه المناطق فهربوا منها الى بلاد الشام خوفا من أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من أهل البلاد الأخرى .

ولقد كان لتكرر الهجمات الخوارزمية على خلاط أثرها على وضع الحاجب حسام الدين على . فقد تصور الملك الأشرف أن حاجبه حسام الدين تقاعس عن الوقوف فى وجه جلال الدين فى الوقت الذى حدد فيه ابن الأثير مناقبه فى دفع أذى الخوارزمية عن البلاد ، الى جانبه دوره فى تعقبهم الى بلادهم . الا أن الملك الأشرف أمر مملوكه عز الدين آيبك بالقبض على حسام الدين الحاجب فقام أيبك بالقبض عليه وقتله غيلة .

والعجيب أن أيبك قد بعث بمبعوث تركى من قبله لمقابلة جلال الدين منكبرتى حاملا رسالة مضمونها « الخضـوع والطاعة وبذل النفس بلسان الضراعه ، وان الأشرف ما أمره بالقبض على الحاجب — حسام الدين على — الا لاساءته الأدب مع السلطان والتخطى الى بلاده من غير أمر صدر اليه » (١١٦) .

---

(١١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ صص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(١١٥) ابن الاثر : الكامل ، ج ٩ ص ٣٧٨ حوادث ٦٢٥هـ .

(١١٦) النسوى : المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

ومع ذلك فان جلال الدين لم يكترث بهذه الكلمات المعسولة بل أصر على ضرورة مهاجمة أخلاط فى الوقت الذى تم فيه قتل الحاجب على .

ويعلل الدكتور الغامدى استماتة جلال الدين منكبرتى فى السيطرة على خلاط انتقاما لاعتداءات نائب الأشرف التى لم يكن لها مبرر ضد أراضيه ، ومع هذا فان الشىء الذى أثار حنق وغيظ جلال الدين على ما يظهر هو اختطاف زوجته من قبل ذلك النائب الأيوبى حيث يقال بأنه هاجم أراضى خصومه المجاورة لحدود ولايته فدمر الأراضى ، ونهب وقتل وأخذ أسرى وكان من بين الأسرى زوجة الأمير الخوارزمى »(١١٧) .

لذلك تحركت قوات جلال الدين فى أوائل شوال سنة ٦٢٦هـ الى مدينة خلاط ، وقاموا بحصار المدينة حيث اجتمع أهل المدينة مع الجنود على الاستماتة فى الدفاع عنها خوفا من جلال الدين « لسوء سيرته وأسرفوا فى الشتم والسفه » (١١٨) وقد ظل مقيما على الحصار طوال الشتاء ومع تساقط الثلوج ، وظل أهلها يقاومون حتى جمادى الأولى من عام ٦٢٧هـ حتى تمكن من فتحها عنوة .

وقد راسل أهل خلاط الملك الكامل الأيوبى يطلبون منه النجدة الا أنه لم يجب طلبهم (١١٩) . وأظهر أهل البلاد تحملا شديدا لهذا الحصار « فان الناس فى خلاط أكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير ، ويصطادون الفأر ويأكلونه »(١٢٠) .

---

(١١٧) الغامدى : اوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ص ٣٥١ .

(١١٨) ابن الأثير : الكامل ، ص ٣٨٠ حوادث ٦٢٦ هـ .

(١١٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٢٣٦ .

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل ، ص ٣٨٠ .

ويحاول النسوى مؤرخ حياة جلال الدين منكبرتى أن ينفى عن سيده الأعمال البشعة التى قام بها الجند الخوارزمى ضد الأهالى الآمنين حتى طارت سمعتهم فى الآفاق •

فيقول « ان السلطان أراد أن يحمى خلاط من النهب فغلبوه على رأيه فيها » [١٢١] اذ أن جنوده وأمراءه رفضوا هذا الكلام وقالوا « ان تطاول مدة الحصار قد أضعف عسكرك وأفنى خيلهم ودوابهم ، فان منعتهم النهب قعد بهم الضعف عن لقاء عدو يتحرك ، ولعل الضعف يفضى بهم الى تشتت الشمل ، وانتشار الحبل ، فنفثوا عليه من هذا القبيل لسحت شرهوا الى احتجانه حتى أرخى عنانهم من النهب فنهبوا ثلاثة أيام تباعا ، فكان قرحا على قرح وملما فوق الجرح ، واستخرجوا دفائن أهلها وخباياهم بالمعاصير ، فمن وقع بيده واحد من الخلاطية عذبه أنواع العذاب » [١٢٢] وقد وقعت نساء كثيرات فى الأسر منهن زوجة الأشرف موسى ، فتزوج بها جلال الدين منكبرتى فى نفس الليلة التى دخل فيها المدينة [١٢٣] •

وقد قام جلال الدين بترميم المدينة بعد التخريب والتدمير الذى أحدثه بها جنوده « وندم على ما أطلق عليها من النهب والتخريب وأين من الندامة نفوس مدرسه وأجساد تحت أطباق الثرى مطموسه فأطلق من الخزانة أربعة آلاف دينار ليجدد ما خربتها المجانيق من السور» [١٢٤] •

التحالف الأيوبى السلجوقى ضد جلال الدين منكبرتى :

لقد بدأ نجم جلال الدين المتألق فى الأفول ، عندما بدأ التحالف بين البيتين الأيوبى والسلجوقى •

---

(١٢١) النسوى : المصدر نفسه ، ص ٣٢١ •
(١٢٢) المصدر نفسه •
(123) D'ohsson « op - cit » III. p. 42.
(١٢٤) النسوى : نفسه ، ص ٣٢٥ •

فقد شعر كل من الأشرف موسى صاحب خلاط ، وعلاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم بخطورة الموقف ، وبأن جلال الدين سيقوم بالاستيلاء على كل مدينة لهم واحدة فى اثر الأخرى . الى جانب ضرورة توضيح مدى العداء والكراهية التى ملأت قلب الأشرف موسى ضد جلال الدين من جراء ما فعله بممتلكاته فى خلاط ، وما فعله مع زوجته ، أما عن عداء علاء الدين كيقباذ لجلال الدين فى هذه الآونة فقد أوضحه ابن الأثير بأنه كانت هناك عداوة مستحكمه بين علاء الدين كيقباذ وبين ابن عمه جهان شاه بن طغرل حاكم أرزن الروم « أرضروم » حتى أنه تحالف مع جلال الدين منكبرتى وقدم له العون العسكرى فى حصار خلاط ، لذلك خاف علاء الدين سلطان سلاطين الروم من هذا التحالف بين جهان شاه وبين جلال الدين منكبرتى (١٢٥) . فقرر ضرورة التحالف مع الأشرف لاجتماعهما على عداوة جلال الدين .

أرسل علاء الدين كيقباذ الى الملك الكامل أثناء تواجده بحران ، وطلب منه أن « يحضر أخاه الأشرف من دمشق لأنه كان قد ملكها بعد وفاة المعظم عيسى » (١٢٦) .

تكررت النداءات من قبل علاء الدين ، واستعد الكامل مع أخيه الأشرف ، وتوجهت الجنود الى سيسواس (١٢٧) .

لذلك توجه ركن الدين جهان شاه مرة أخرى الى جلال الدين منكبرتى « فأعلم السلطان باتفاق ملوك الشام والروم عليه ، وقال ان الرأى فى مبادرتهم قبل أن يجتمعوا فيصير الأمر خدعه » (١٢٨) .

---

(١٢٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٣٨١ حوادث سنة ٦٢٧ هـ .

(١٢٦) نفســـه .

(١٢٧) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٨١ .

(١٢٨) النسوى : نفسه ، ص ٣٢٩ .

وافق جلال الدين على التعجيل بمهاجمة قوات علاء الدين والأشرف موسى ، فيتوجه ركن الدين جهان شاه الى أرزن الروم ليستعد بها ويتوجه جلال الدين الى خرتبرت .

وقد حاول النسوى أن يعلل أحوال جلال الدين قبل أن يصل بنا الى نتيجة اللقاء الحربى ، فيبين أنه « مرض مرضا شديدا سقط فيه على الفراش وأيس من الانتعاش » (١٢٩) ، وهو بذلك يعطى مقدمة لهزيمة جلال الدين فى هذه المعركة .

دارت المعركة عند « بياس حمار من أعمال أرزنجان » ويقدر عدد جيش علاء الدين ما يقرب من عشرين ألف فارس ، والأشرف خمسة آلاف من خيرة الرجال الشجعان وكان المقدم عليهم أمير العسكر عز الدين عمر بن على من الأكراد الهكارية ، لذلك كان لهذا العدد الضخم تأثير عميق على موقف جلال الدين الذى « بهت من كثرة العساكر » (١٣٠) ، وهزم جلال الدين أمام عز الدين عمر متقدم العسكر « فمضى هو وعسكره لا يلوى الأخ على أخيه وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق » (١٣١) .

عاد جلال الدين الى خلاط وسحب من تبقى من رجاله وأصحابه وتوجهوا صوب أذربيجان ثم مدينة خوى .

أما عن مصير حليفة ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم ، فقد وقع فى أسر علاء الدين كيقباذ ، حيث قام جهان شاه بتسليم ممتلكاته فى آرزن الروم الى علاء الدين ، وظل جهان شاه معتقلا حيث مات فى اعتقاله (١٣٢) .

---

(١٢٩) نفسه : ص ٣٣٠ .
(١٣٠) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٨١ .
(١٣١) نفسه .
(١٣٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ص ٣٠٠ حوادث سنة ٦٢٧ هـ .

وبعد هذه المعارك الحربية فقد سعى هؤلاء الأمراء الى عقد صلح مع جلال الدين ، على أن يقنع كل حاكم بالسيطرة على البلاد التى فى حوزته • ويؤكد النسوى على هذا الخبر بقوله « لما علم الأشرف أن شرف الملك هو المقيم بسكمانا باذ فاتحة بالمراسلة والملاطفة وقال : ان سلطانك سلطان الاسلام والمسلمين وسيدهم • والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم ، وغير خاف علينا ما تم على حوزة الاسلام وبيضة الدين بموت والده ، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الاسلام ، وضرره عائد الى كافة الأنام ، وأنت قد جليت الدهر أشطره وعرفت نفعه من ضرره ، وذقت حلوه ومره فلا ترغبه فى جمع الكلمة ما هو أهدى سبيلا وأقوم قيلا ، ولما لا تدعوه الى الألفة التى هى أحمد فى البدو والعقبى ، وأقرب الى ما يقربه الى الله زلفى ؟ وها أنا من السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ وأخى الملك الكامل ما يرضيه من الانجاد والاسعاد واصفاء النيات على حالتى القرب والبعاد ، والقيام بما يزيل عارض الوحشه ويمحو سمة الفرقه »(١٣٣) •

بعد ذلك توجه الأشرف موسى الى سنجار ومنها الى دمشق ، وأقام جلال الدين بأذربيجان حتى هجوم المغول عليه •

نهاية جلال الدين منكبرتى :

لقد رأينا كيف حاول جلال الدين منكبرتى — رغم هزيمته على يد الأشرف موسى وعلاء الدين كيقباذ — أن يجمع الشمل الاسلامى أمام

---

(١٣٣) النسوى : نفسه ، ص ٣٣٤ •

يذكر أبو شامه فى الذيل : ان الاشرف قد رأى قبل الكسره النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فوعده بالنصر عليهم فقال يا موسى : أنت منصور عليهم ومظفر بهم أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم •

أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٥٩ •

Peter Brunt « op - cit » p. 132 — 133.

Saunders « op - cit » p. 78.

الخطر الكبير الذى بدأ يطل على العالم الاسلامى مرة أخرى ألا وهو خطر المغول •

فلقد رأينا الدور الذى قام به جنكيزخان ضد البيت الخوارزمى وكيف تشتت شملهم حتى هرب جلال الدين الى بلاد الهند •

فى هـذه الفترة توقف دور المغول عن الاعتداء عـلى الأراضى الاسلامية بسبب وفاة جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م ، وبقاء عرش المغول خاليا لمدة عامين ، مما دعى كبار الأمراء ـ ازاء الصحوة التى حدثت فى العالم الاسلامى ، وظهور جلال الدين مرة أخرى الى ضرورة التعجيل بتنصيب خان جديد حتى تنصلح الأمور ، وقرروا بعد انعقاد القور يلتاى انتخاب ابنه أوكتاى خاقانا أى خانا أعظم على الامبراطورية المغولية سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م (١٣٤) •

والثابت تاريخيا أن المغول رغم انشغالهم بموضـوع تعيين خان جديد لهم ، الا أن سلسلة اعتداءاتهم على الأراضى الخوارزمية لـم تنقطع ، فجميع المؤرخين المسـلمين يؤكدون اغارات كثيرة لهم عـلى هذه الأراضى • ويحاول النسوى أن يحمل براق الحاجب أتابك كرمان المسئولية فى مراسلة المغول (١٣٥) •

فقد خرجت فى هذا العام حملات مغولية الى الرى ، لم يتمكن بن الأثير ولابن واصل فى تقدير عددها ، وفى تحديد مدى الهزيمة أو النصر الذى كان من نصيبيها •

وقد تكررت هزيمة جلال الدين وانتصـاره فى منطقة الرى ، وخلال انشغاله بتحالف القوى الاسلامية ضده •

---

(134) Peteer Brunt « op - cit » p. 133, Phillips « op - cit »p. 63.

(١٣٥) انظر النسوى : ص ٢٣٨ •

وقد هزمت قوات المغول فى هذه الآونة بدون تدبير من جـلال الدين ، فقد حدث أن خرج أخوه غياث الدين ومجموعة من الجنود عن صفه وهربوا الى خوزستان لكراهيتهم لجلال الدين •

عندئذ ظن المغول أن هـذه خـدعه ، لمهاجمتهم من ناحية أخرى « فانهزمت التتر لهذا الظن » (١٣٦) •

فى الوقت الذى ظن فيه جلال الدين أن ما قام به المغـول من اظهار الهزيمة ما هو الا خدعة حربية ، لذلك ، خاف دخول أصفهان • مما فتح الطـريق أمـام المغـول لدخـولها ، ودخلـوها فى حين ظن أهلها أن جـلال الدين قـد توفى (١٣٧) ، فراسـلهم جـلال الدين وأخبرهم سلامته وطلب معونته فوقفوا معه صفا واحدا ضـد المغول حتى هزموهم وطردوهم من أصفهان (١٣٨) وتبعهم جلال الدين الى الرى يقتل ويأسر ، واستولى على المدينة ، فى الوقت الذى وصلته رسـالة من الخان أوكتاى يحاول أن ينفى عن جيشه تبعة العدوان على الأراضى الخوارزمية ، وبين لجلال الدين أن هؤلاء الجنود ليسوا تابعين له بل انه أبعدهم وأبعد مقدمهم « فرجع الى أذربيجان » (١٣٩) • ومع ذلك فقد استقرت الأوضاع فى دولة المغول ، وبدأ العدوان من جديد على الأراضى الخوارزمية •

الا أننا قبل أن ندخل فى تفاصيلها يحق لنا أن نقف وقفه هنا حول خيانة غياث الدين شيرشاه أخو جـلال الدين الذى وقف هذا الموقف السيء فى ساعة العسره ، وخان أخاه ، وسحب فرقته العسكرية راغبا

---

(١٣٦) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ص ٣٧٦ •
ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٤ ص ٢٣٢ •
(137) Juwaini « op - cit » vol II pp. 430 — 438.
(١٣٨) ابن الأثير : نفسه ص ٣٧٦ •
(١٣٩) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٢٣٣ •

فى اندحار أخيه على يد المغول تملأ قلبه الغيره والحقد على ما حصله جلال الدين من انتصارات وما استعاده منه من ممتلكات بعد عودته من الهند ، فنراه يتوجه الى دار الخلافة العباسية فى بغداد محتميا بالخليفة الناصر لدين الله لما يعلمه من العداوة الكامنة بين العباسيين والخوارزميين (١٤٠) .

توجه غياث الدين بعد ذلك الى الباطنية فى فارس وتحالف مع شيخهم علاء الدين محمد « لما بلغه من عودة التاتار وظهور السلطان رعبا لم ير معه أرضا تمنع ، ولا عونا يدمغ ولا وازعا يردع » (١٤١) أما ابن الأثير فيذكر أن غياث الدين « قصد بلاد الاسماعيلية فوصل اليهم واحتمى بهم واستجار بهم » (١٤٢) .

وبذلك نرى أن غياث الدين يتحالف مع القوى المعادية لجلال الدين منكبرتى محاولا فى ذلك فى تفتيت عضده واضعافه فى وقت كانت البلاد أحوج ما تكون فيه الى الوحدة الاسلامية .

ولم يتوقف خطر الاسماعيلية عند حد الوقوف فى وجه جلال الدين وايواء أخيه ، بل انهم ، استغلوا فرصة هزيمته على يد السلطان الأشرف موسى الأيوبى وعلاء الدين كيقباذ ، وأرسل شيخهم الى المغول يطلعهم على ما بلغه جلال الدين من ضعف ويهون له من شأنه ويحثهم على غزو بلاده ، ويؤكد لهم أن النصر سوف يكون حليفهم (١٤٣) . ويرجع ابن الأثير ذلك الى أن جلال الدين كان « قد عادى الاسماعيلية ، ونهب بلادهم وقتل فيهم ، وأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة » (١٤٤) .

---

(١٣٩) ابن الأثير : نفسه .
(١٤٠) النسوى : المصدر السابق ص ٢٤٢ .
(١٤٢) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٧٥ .
(١٥٣) نفسه : ص ٣٦٩ .
(١٤٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٨ هـ ص ٣٨٣ .
(١٤٤) نفسه .

والحقيقة أن المغول لم يكونوا فى حاجة الى تذكير من طائفة الاسماعيلية ولا من غيرها اذ أن الأمر الذى لا شك فيه أن الأمور قد استقرت الآن فى دولة المغول كما أوضحنا وانتخب أوكتاى خانا أعظم لهم ، وكان لابد من شن الهجمات على الدولة الخوارزمية واستكمال الخطة المغولية فى تكوين الامبراطورية العالمية .

ففى بداية عام ستمائة وثمان وعشرين وصلت الأخبار الى مسامع جلال الدين بخروج التتار وعبورهم الى بلاد ما وراء النهر الى ايران . وقد كان قائد الجيش هو جرماغون نويان الذى قاد فرقة تزيد على ٥٠٠٠٠ جندى مصطحبا أمهر قواد المغول ، بل ان العدد زاد فيما بعد الى ما يقرب من عشرة آلاف جندى (١٤٥) .

وقد نجحت هذه الفرقة فى الاستيلاء على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد . لذلك أرسل جلال الدين فرقة استطلاعية بقيادة أحد بهلوانيته المدعو يرغو ليبين له أخبار المغول ، وعند عودة القائد — بعد القضاء على جميع ما معه من الرجال — الى جلال الدين أخبروه بأن المغول على الحدود . فى الوقت الذى كان جلال الدين يتصور أن المغول « يشتى بالعراق ، ولن يتعدى الى أذربيجان الا فى الربيع » وقد كان فى ظروف سيئة ومقيما بتبريز بعد هزيمته على يد الأيوبيين والسلاجقة . لذلك رحل من تبريز الى موقان (١٤٦) وهو مجاور للساحل الغربى من بحر قزوين ، قبل أن يتمكن من جمع جيوشه ، ولم يكد يستقر

(145) Peter Brunt « op - cit » p. 135.
Saundeers « op. - cit » p. 85.

(١٤٦) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٥٠ .
فقد كانت جنود جلال الدين قد هجروه وتركوه وحيدا وتشتت معظم جيشه حتى أنه توقع زوال ملكه .
انظر ايضا :
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٧٥ حوادث سنة ٦٢٨ .

فى منطقة موقان حتى علم بمسير المغول اليه ، فاضطر الى العودة ثانية الى أذربيجان (١٤٧) ، وأقام بالتحديد فى منطقة تابعة لها تسمى ماهان حيث كان يصله أخبار المغول من قبل عز الدين صاحب قلعة شاهق واستمر مقيما هناك طوال الشتاء .

وصلت اليه الأخبار أن المغول يتعقبونه ، وأنهم خرجوا من أوجان لقصده ، وطلب اليه عز الدين أن يتوجه الى آران حتى يساعده من بها من التركمان ، ويكون الطريق مفتوحا أمامه الى بلاد الهند عند حصار المغول له (١٤٨) .

حاول جلال الدين مراسلة القوى الاسلامية الموجودة فى هذه الفترة راغبا فى توحيد الجبهة أمام جحافل المغول على أن يبقى لنفسه على أران وأذربيجان فقط ، الا أن النسوى نراه يعتبر أن مراسلة جلال الدين للأشرف ولعلاء الدين كيقباذ كان خطأ حتى أنه يقول « فلما باض الشيطان فى رأسه فرخ وشوى السوداء فى رأسه وطبخ كاتب علاء الدين كيقباذ والملك الأشرف وباذلا لهما الطاعة » (١٤٩) .

ومما كتبه الى القوى المعاصرة « ان جيشا جرارا من عساكر التتار كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا ، فاذا ترك وشأنه فسوف لا تصمد أمامه القلاع والأمصار ، وقد تمكن الرعب من قلوب الناس فى هذه المنطقة ، فاذا هزمت وخلا مكانى من بينكم ، فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو ، واذن فأنا لكم بمثابة سد الاسكندر ، فليسارع كل منكم الى امدادنا بفوج من الجنود حتى اذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم ، وفت فى عضدهم فيتشجع جنودنا وتقوى قلوبهم » (١٥٠) .

---

(١٤٧) النسوى : نفسه ، ص ٣٥٦ .
(١٤٨) نفسه : ص ٣٥٧ .
(١٤٩) نفسه .
(150) Juwaini « op - cit » vol. II. p. 452.

ويبدأ النسوى حديثه بعد ذلك بعرض للحركات المناوئة للدولة الخوارزمية ، والتى بدأها بمدينة تبريز التى خرجت على شمس الدين الطغرائى الوالي الخوارزمي لسوء معاملته لأ هلها ، « فهمت عامة تبريز بقتل من بها من أتباع الخوارزمية تقربا الى التاتار ، وتشفيا من الأحقاد والأوتار » (١٥١) ، وتبعهم أهل كنجه من الكرج التابعين لجلال الدين ، فقد قاموا بقتل الخوارزميين الموجودين بها بعد ابتعاد جلال الدين عنهم « وحملت رءوسهم الى التاتار وأظهروا العصيان » (١٥٢) ، الا أن جلال الدين أمر رجاله بالتوجه الى كنجه محاولين استمالة أهلها مرة أخرى ، وتعبئة الرأى العام الى جانب جلال الدين ، وافهامهم بخطورة التتار عليهم وعلى العالم الإسلامى أجمع ، الا أنهم « كانت الموعظة اذا ألقيت عليهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا » (١٥٣) ووصل جلال الدين وأقام بالقرب منها ، وترددت الرسل بين الطرفين الا أن السلم لم يجد لذلك واجههم بالقوة العسكرية « فانحلت العزيمة عن ساقط أجسام وأبدان فوق هام وهاموا على وجوههم كأنهم قطعان الغنم راعتها الذئاب» (١٥٤) . ونجح جلال الدين فى دخول كنجه بالقوة .

وأخيرا قرر الاستنجاد بالملك الأشرف موسى طبقا للصلح الذى تم بينهم فيما سبق ، الا أن الأشرف موسى تلكأ « وهيهات ان الضغينة اذا تمكنت من القلوب تلبث وربما تورث وان المستعين على العدو بذى ثايره كالمستجير من الرمضاء بالنار » (١٥٥) .

وقد يتوجه الملك الأشرف الى مصر ليضيع الوقت على جلال الدين ووعدهم بأنه سيأتى بعساكره لنجدة جلال الدين من مصر .

---

(١٥١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٣٥٩ .
(١٥٢) نفسه : ص ٣٦٠ .
(١٥٣) نفسه : ص ٣٦٩ .
(١٥٤) نفسه :
(١٥٥) النسوى : ص ٣٧١ .

وقد ظل جلال الدين يتنقل من مدينة الى مدينة ومعظمها من المدن التابعة للكرج .

وقد وصلت رسالة الى جلال الدين من مختص الدين أكبر رسله الموجهين الى الملك الأشرف يؤكد له اليأس من وصول نجده من قبل الأشرف « وانه لا يرجع من مصر الا بعد انفصال أمر السلطان مع التتار على احدى الحالين » (١٥٦) .

بعث جلال الدين رسله الى الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر يطلب النجدة منه ومن حكام آمد وماردين ، وقد توقع جلال الدين وصول نجدتهم اليه بعد أن وعد المظفر بتمليكه ما يرغب من البلاد فى حالة انتصاره على التتار (١٥٧) .

وللأسف فان المظفر عند وصول بعثة النسوى اليه تحجج حججا واهية وادعى عدم قدرته السياسية والعسكرية على تقديم مثل هذه المعونة . وحاول جلال الدين أيضا الاستنجاد بالخليفة العباسى ، الا أن المغول لم يتركوا له فرصة لتحقيق هدفه .

ويؤكد النسوى على أنه قد علم أثناء سفارته للملك المظفر بأن المغول قد تجهزوا فعلا للقضاء على السلطان جلال الدين ، لذا حاول استمالة المظفر بتوضيح خطورة المغول وانهم سيتعرضون لنفس الخطر اذا سقط جلال الدين ، الا أن المظفر أفهمه أنه لا يستطيع أن يتخذ أمرا دون الرجوع الى اخوته (١٥٨) .

وقد ذكرنا أن السلطان جلال الدين كان يتنقل من بلد الى آخر

---

(١٥٦) نفسه : ص ٣٧٢ .

(١٥٧) نفسه : ص ٣٧٢ .

(١٥٨) النسوى : نفسه ، ص ٣٧٤ .

حتى وصل الى مدينة حانى ، فوصل اليه النســوى وأوضح له عدم تمكنه من تحقيق رغبته فى وصول أى نجدة من القوى الاسلامية « وأنهم يضربون فى حديد بارد فما من منجد ولا مساعد » (١٥٩) .

فكر جلال الدين والمخلصون من رجاله أن يتركوا أثقالهم بــديار بكر ويتوجهوا بنساءهم وأطفالهم الى أصفهان فى الوقت الذى وصــل اليهم فيه رسول صاحب آمد يعرض المساعدة العسكرية عليهم عــلى أساس أن يتوجه جلال الدين للأستيلاء على ممتلكات سلاجقة الــروم للعداء بين صاحب آمد وسلطان سلاجقة الروم .

اقتنع جلال الدين بفكرة صــاحب آمد وعدل عن فكرة الاتجــاه صوب أصفهان ، وبعدها توجه بكل ما معه الى آمد ونزل بجسر بقربها (١٦٠)

أما رواية ابن الأثير فى هذا الموضوع فانه يذكر أن جلال الدين بعد أن رأى ما فعله التتار فى أذربيجان من أهوال وقتل وسفك للدماء تركها متوجها الى خلاط ، وأرسل الى نائب الأشرف موسى يقول « ماجئنا للحرب ولا للأذى انما خوف هذا العدو » (١٦١) ، بل ان جــلال الدين رغب أيضــا فى الاتصال بالخلافة العباسية .

الا أنه عندما وصل الى خلاط تعقبته الجيوش المغولية فلما أدرك ذلك اتجه مباشرة صوب آمد التى كان يحكمها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد الأرتقى (١٦٢) .

---

(١٥٩) نفسه : ص ٣٧٧ .

(١٦٠) نفسه : ص ٣٧٧ .

(١٦١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٤ حوادث سنة ٦٢٨ هـ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ٣٢١ حوادث سنة٦٢٨ هـ .

(١٦٢) ابن واصل : نفسه .

ومهما كانت الحقيقة فقد توجه جلال الدين منكبرتى صـوب آمد فى الوقت الذى داهمته الجيوش المغولية من كل جانب (١٦٣) .

عندئذ هزم جلال الدين من المغول الذين أحاطوا بالخوارزميين من كل جانب ، وقتلوا عددا كبيرا من الخوارزميين وتفرق الباقون وكـان السلطان نفسه ضمن من لاذوا بالفرار .

وتوجه جلال الدين منهزما الى ميافارقين من أجل لقاء المظفـر شـهاب الدين غازى ليعتصم بها حتى يجتمع اليه جيشه (١٦٤) . فأقام بقرية من قرى ميافارقين « فنزل ببيدرها » فى الوقت الذى تركه أورخان قائد جيشه ، وكذلك قام المغول بارسال خمسة عشر فارسا من فرسـانهم وأدركه اثنان منهم فقتلهما جلال الدين أما الفرسـان الباقين فقـد عادوا من حيث أتوا بعد أن يئسوا من اللحاق به (١٦٥) .

وتختلف رواية ابن الأثير والنسـوى وابن واصـل فى حقيقة مقتل جلال الدين . فنرى بن الأثير يذكر أنه بعد هرب جلال الدين لم يعرف أحد طريقه « ولم يتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها والله أعلم » (١٦٦) .

---

(١٦٣) النسوى : نفسه .

ص ٣٧٨ يذكر النسوى أن جلال الدين من شدة همومه سكر فى هـذه الليلة ودارت رأسه وداهمه المغول وهو فى هذه الحالة . أما النسوى نفسه فيقول « كنت ملازما للسلطان جلال الدين — سهرت تلك الليلة للكتابة فغلبنى النوم فى أخرياتها ، فلم أشعر الا بالغلام ينبهنى ويقول « قم فقد قامت القيامة ، فلبست سريعا ، وخرجت هربيا وتركت فى المنزل ما ملكته جميعا » .

انظر ص ٣٧٨ .

(١٦٤) ابن واصل : ج ٤ ص ٣٢٢ حوادث سنة ٦٢٨ هـ .

(١٦٥) النسوى : نفسه ، ص ٣٨١ .

(١٦٦) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٨٦ حوادث سنة ٦٢٨ .

أما النسوى فيذكر وهو أشد التصاقا بالسلطان جلال الدين « أنه بعد أن قتل الفارسين المغوليين ، أقلع بقية الفرسان عن مطاردته خوفا من أن يلحق بهم ما لحق باخوانهم ، بعدها ، صعد جلال الدين جبلا يقوم على حراسة مدخله الأكراد الذين كانوا يعتمدون على السلب والنهب فأخذوه وسلبوه ما معه كعادتهم ، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرا اننى أنا السلطان فلا تستعجل فى أمرى » ووعده بمراكز عليا فى دولته ، فى حالة ايصاله الى الملك المظفر شهاب الدين » (١٦٧) .

لذلك قرر رئيسهم ضرورة ايصاله الى بلاده وصعد به الى عشيرته ، وأدخله بيته وتركه عند زوجته وذهب هو ليعد خيلا له ، وفى أثناء غياب ذلك الرجل الكردى جاء الى امرأته رجل آخر فوجد جلال الدين فسألها عن هذا الرجل الخوارزمى ولم لم يقتلوه « لا سبيل الى ذلك وقد آمنه زوجى وعرف أنه هو السلطان » (١٦٨) فعرفها أن السلطان جلال الدين قتل له بخلاط أخ خير منه « فضربه بالحربة ضربة أغنت عن الثانية وألحقته بالنفوس الفانية » (١٦٩) .

أما رواية بن واصل فتختلف فى تفاصيلها بعض الشىء عن رواية النسوى ، وهى أنه عندما وصل جلال الدين الى قرية من قرى ميافارقين بعث بعض أهالى هذه القرية الى الملك المظفر شهاب الدين يعرفه بوصول جلال الدين ، وكان بتلك القرية رجل كردى كان عسكر جلال الدين قد قتلوا أباه وأخاه ، فوثب ذلك الكردى على جلال الدين فقتله(١٧٠)

---

(١٦٧) النسوى : نفسه ، ص ٣٨٢ ص ٢٤١ .
(١٦٨) نفسه .
(١٦٩) نفسه .
المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ حوادث ٦٢٨ هـ .
(١٧٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٣٢٢ حوادث سنة ٦٢٨هـ كان مقتل جلال الدين فى منتصف شعبان سنة ٦٢٨هـ ١٥ أغسطس ١٢٣١م .
أما الحافظ الذهبى فيذكرها انها تمت فى أوائل سنة ٦٢٩هـ .
الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، ج ٥ ص ١١٤ .

وعندما وصلت أخبار قتله الى الملك المظفر شهاب الدين بعث الى القرية ليكشف عن أمره فأحضرت له عدة جلال الدين وملبوسة ، فعرف ذلك بعض الخوارزمية الذين كانوا هربوا اليه من أصحاب جلال الدين وشهد عنده أن هذه عدة جلال الدين وملبوسة فتحقق حينئذ قتله [١٧١]. ويردف بن واصل قائلا أن الناس كانوا يظنون أنه ذهب الى بلاد الهند كما فعل أول مره ، أو الى بعض الجهات ويقوامده يترجونه وبقى جماعة من العجم والخوارزمية بعد موته مدة طويلة ينتظرون «عودة كما ينتظر الحاكمية عودة الحاكم والامامية محمد بن الحسن المنتظر والكسيسانية محمد بن الحنفية » [١٧٢] .

وبهذا سقطت الدولة الخوارزمية التى كان لها هذا الدور القــوى كدولة هامة من دويلات المشرق الثغرية حتى أن جماعة دخلوا على الأشرف موسى بعد مقتل جلال الدين فهنأوه بموته فقال « تهنئونى به وتفرحون وسوف ترون غبة والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام ، وما كان الخوارزمى الا مثل الســد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج » [١٧٣] .

ولابد لنا فى هذا المقام من تقييم بسيط لهذه الشخصية المحاربة الفذه التى اختلفت فيها الآراء ، وتعددت . فنرى أن معظم المؤرخين الفرس والأتراك يحاولون أن يضيفوا عليه حالة من القداســة فى حين أن المؤرخين العرب قد تحامل عليه معظمهم ووصفه بأحط صفات الغدر وسوء الأخلاق .

فنرى النسوى يصفه لنا بأنه كان أسمر قصــيرا تركى الشــارة والعبارة ... أما شجاعته فحسبك منها ما أوردته من وقائعة فكان أسدا

---

(١٧١) نفســه .
(١٧٢) نفسه .
(١٧٣) ابو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

ضرعاما ، أشجع فرسانه اقداما ، وكان حليما لا غضو بأولا شتاما ، وقورا لا يضحك الا تبسما ولا يكثر كلاما »(١٧٤) .

أما ابن الأثير « فقال انه كان سىء السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته ، فمن ذلك أنه أول ما ظهر فى أصفهان وجمع العسكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها وسار الى دقوقا فنهبها ، وقتل فيها فأكثر وهى للخليفة .... الخ » (١٧٥) .

وبهذه الأحداث وبمقتل جلال الدين أسدل الستار على التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية ليتبقى لنا شراذم الخوارزمية الذين انساحوا فى أرض المسلمين راغبين فى استعادة مجدهم السالف وعزهم البائد .

---

(١٧٤) النسوى : نفسه ، ص ٣٨٤ .
(١٧٥) ابن الأثير : نفسه ، ص ٣٨٣ .

الفصل السابع

البقايا الخوارزمية
في العالم الاسلامى
بعد سقوط الدولة الخوارزمية

تشتتت القوات الخوارزمية — بعد مقتل جلال الدين واستيلاء المغول على معظم أراضى الجزيرة وأرمينية وخلاط — حتى أصبحوا بمثابة جنود مرتزقة لمن يدفع أكثر ، الى جانب أنهم حاولوا أن يجدوا لهم وسط الفوضى السياسية منفذا يحققون به أحلامهم الضائعة ويعوضون مجد دولتهم الزائل .

ويبدأ لنا بن واصل حديثه بأن ما يقرب من اثنى عشر ألف فارس من جنود جلال الدين اتجهوا الى خدمة السلطان علاء الدين كيقباذ للاستعانة بهم كجنود مرتزقة فى حروبه ضد أعدائه ومنهم بركت خان وكشاوخان وصاروخان وفرخان وبردى خان وبدأ نشاطهم أولا فى جبهة علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، حين بدءوا صراعهم مع الأيوبيين .

فقد حاول سلاطين الأيوبيين التحالف مع علاء الدين كيقباذ للوقوف فى وجه الخطر المغولى الداهم الذى بدا ينساح فى العالم الاسلامى الا أن علاء الدين خوارزم بادرهم بمحاولة الاستيلاء على مدينة خلاط التى كانت تابعة فى الأصل للأيوبيين ، وذلك بعد خروج التتار [٢] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٢٥ حوادث سنة ٦٢٨هـ .
أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٥٩ حوادث سنة ٦٣٤هـ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

عندما وصلت هذه الأخبار الى مسامع الملك الكامل تحرك لاسترجاع المدينة فى الوقت الذى كانت فيه قوات علاء الدين كيقباذ الخوارزمية تستعد للاتجاه نحو خلاط . فخرج الملك الكامل من القاهرة — واستناب عليها ابنه العادل وبدأ فى تأليب الرأى العام الاسلامى ضد كيقباذ (٣).

اجتمعت الى الملك الكامل اعداد كبيرة من الجنود توجه بهم لملاقاة علاء الدين وجنوده الخوارزمية ، الا أن جنود الكامل رغبو فى الانفضاض عنه والاتجاه الى علاء الدين لكراهتهم للكامل لرغبته فى «يعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم بدل ما بأيديهم ، ويجعل الشام والشـــرق مضافا الى مصر » (٤) لذلك فكر المجاهد صـــاحب حمص والأشرف موسى فى الاتصال بعلاء الدين كيقباذ للاتفاق معه ضد السلطان الكامل فاضطر الكامل الى التراجع (٥) .

شارك الخوارزمية علاء الدين فى استكمال دوره التوسعى ضـــد الأيوبيين والأراتقة عندما قام بانتزاع خرتبرت من الأراتقة وكذلك حران والرها (٦) .

وقد استمر الخوارزمية يخدمون البيت السلجوقى طوال حياة علاء الدين كيقباذ ، حتى وفاته وتولية ابنه غياث الدين كيخسرو الذى أساء معاملتهم ، فقبض على بركت خان وهو أكبر مقدميهم ، لذلك اضطروا الى ترك خدمته واتجهوا للاقامة فى آسيا الصغرى فى انتظار الفرصة السانحة ، بل نهبوا ما كان فى طريقهم (٧) .

---

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٢٤٧ .
(٤) نفسه : ص ٢٤٨ .
(٥) المقريزى : نفسه .
(٦) نفســـه .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، صص ٢٨٢ — ٢٩٧ .
(٧) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٥٩ .

والحقيقة أن هؤلاء الخوارزميين قدموا خدماتهم للخلافة العباسية فيذكر أن الخليفة المستنصر بالله استخدم منهم فى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أربعة آلاف فارس (٨) .

وبعد أن خرج الخوارزمية عن طاعة علاء الدين وأصبحوا أحرارا نجد أن الدولة الأيوبية فى هذه الآونة كانت فى ظروف سياسية حالكة ، فقد كانت منشقة على نفسها فالأشرف موسى صاحب دمشق خرج على أخيه الأكبر السلطان الكامل بعد أن كان حريصا حتى ذلك الوقت على محالفته (٩) لكن الأشرف مالبث أن توفى فبدأت الحرب الأهلية بين أبناء البيت الأيوبى

كان الكامل هو الشخصية الكبيرة الموجوده على مصر آنذاك وكان ابنه الصالح نجم الدين أيوب حاكما على حصن كيفا فى عام ٦٣٤ هـ ١٢٣٦م . فأرسل الى أبيه الكامل يستأذنه فى أن يضم الخوارزمية الموجودين فى الجزيرة الى جيشه ، فوافق أباه وبذلك بدأ الجنود الخوارزميين الآن يتغيرون من خدمة السلاجقة الى خدمة أعدائهم الأيوبيين (١٠) .

بعد وفاة الأشرف موسى . نجح الملك الكامل الأيوبى فى الاستيلاء على دمشق فى الوقت الذى نجح فيه ابنه الصالح أيوبه فى الاستيلاء على سنجار ونصيبين بفضل الجنود الخوارزمية (١١) .

لم يطل المقام بالملك الكامل اذ توفى قبل عودته الى مصر ، وخلفه

---

(٨) نفسه .

(٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، صص ٢٨٢ — ٢٩٧ .

(١٠) المقريزى : نفسه ، حوادث سنة ٦٣٤هـ ، ص ٢٥٥ .

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

(١١) المقريزى : نفسه ، ص ٢٥٧ .

على العرش الأيوبى ابنه الملك العادل الثانى وصــارت له الســلطنة والسلطة العليا فى الدولة الأيوبية .

استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — عــلى دمشق سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م مما أوقعه فى نزاع مع أخيه الســلطان العادل (١٢) وفى ذلك النزاع اســتعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من البيت الأيوبى نفسه ، فاعتمد العادل الصغير على شيركوه صاحب حمص واعتمد الصالح على المظفر تقى الدين الثانى ملك حماه ، هذا فضلا عن أن كل فريق منهما استعان بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا ببلاد الشام (١٣) .

وما يهمنا فى هذا المقام هو الصالح نجم الدين أيوب الذى ذكرنا أنهملك دمشق الا أن تفصــيل ذلك يرجع الى حين وفاة الكامل فقــد كان الصالح موجودا على الرحبة ، وعند سماعه نبأ وفاة والده تركها ، وفجأه نجد أن جنده الخوارزمية — الذين أصــبحوا رجالا أصحاب مطامع يرغبون فى استعادة مــــاض فقــدوه — يخرجون عليه وبدأو فى نهب أملاكه ، بل هموا بالقبض عليه ، « فقصد سنجار وظل بها فترة تاركا خزائنه وأشغاله ، فانتهبها الخوارزمية وتحكموا فى البلاد الجزرية »(١٤).

أصبح الخوارزمية هم المسيطرين على البلاد الجزرية ، وشكلوا خطرا كبيرا على هذه المنطقة فهم لا يراعون حرمته ، كذلك أصــبحت هذه المنطقة من العالم الاسلامى مفتوحة للقوى المتصارعة ، فانتهــز

---

(١٢) ابو شامه : الذيل ، ص ١٦٨ .
(١٣) عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ١٠٣٢ .
(١٤) المقريزى : نفسه ، ص ٢٧٠ .
أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ حوادث سنة ٦٥٣هـ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، صص ٢٤١ — ٢٤٣ .

غياث الدين كيخسرو ، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الفرصة لتحقيق مآربهما السياسية .

فنجد غياث الدين قد « عزم على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح الرها وسروج ويمنحها للناصر صلاح الدين أبى المظفر يوسف صاحب حلب ، وكذلك سنجار ونصيبين للمنصور ناصر الدين الأرتقى وعانه والخابور للمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأن يضم آمد وسميساط الى ممتلكاته الخاصة [١٥] .

أما بدر الدين لؤلؤ فقد أراد أن يبقى على الصالح أيوب رهينة فى سنجار ثم يحمله الى بغداد فى « قفص حديد كراهه فيه لما كان عنده من التجبر والظلم والتكبر » وبعدها سيتولى على سنجار لذلك بعث الملك الصالح القاضى بدر الدين يوسف الزرزارى الى الخوارزمية لاستمالتهم وللمصالحة معهم ويستدعيهم لنصرته ، وقد وعدهم بالوعود الجميلة [١٦] .

فى هذه الفترة كان الخوارزمية قد أساءوا السيرة فى ممتلكات الصالح أيوب واتفقوا مع صاحب ماردين وهاجموا حران وسلبوا ابنه الملك المغيث « بن الصالح أيوب » ممتلكاته وأمواله حتى هرب من المدينة ، ووصل الى منبج مستجيرا بعمة أبيه الملك الصالح والدة الملك العزيز [١٧] الا أنها ردته ردا جميلا فتوجه الى حران فوصله كتاب أبيه الملك الصالح يأمره « بموافقة الخوارزمية والوصول اليه بهم » [١٨] للوقوف فى وجه بدر الدين لؤلؤ .

---

(١٥) المقريزى : نفسه ، ص ٢٧ .
(١٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٨٧ حوادث سنة ٦٣٥هـ
(١٧) نفسه .
(١٨) نفسه .

فى هذه الآونة بدأت القوات الخوارزمية فى تجديد العهد للملك المغيث وحلفوا للقاضى بدر الدين الذى توجه اليهم على مواله الصالح أيوب وابنه .

التزم القاضى بدر الدين للخوارزمية باقطاعهم حران وسنجار والرها « فطابت قلوبهم وحلفوا للملك الصالح »(١٩) .

لذلك قاموا بالوقوف أمام حركة بدر الدين لؤلؤ ، فقد اجتمعوا مع الملك المغيث بن الصالح أيوب وتوجهوا الى سنجار التى حاصرها بدر الدين وقواته فهربوا وتبعهم الخوارزمية ، واستولوا على كل ما معهم « فقوى الملك الصالح بالخوارزمية »(٢٠) توجهت القوات الخوارزمية بعد ذلك لمواجهة غياث الدين كيخسرو المحاصرين لآمد فنجح الخوارزمية فى دفعهم عن آمد ، وخلصوا المعظم غياث الدين تورانشاه بن الملك الصالح المحصور فى هذه المدينة حيث توجه بعدها الى حصن كيفا(٢١) .

وتدخلت القوات الخوارزمية فى الصراع الدائر بين البيت الأيوبى فقد توجهت هـذه القوات الخوارزمية حينما بعث بها الصالح أيوب الى منطقة جينين(٢٢) لمواجهة قوات أخويه الملك العادل الثانى ، والناصر داود التى قدمت للقضاء على نفوذ الصالح .

كان نائب السلطنة على دمشق الملك الجواد ، الذى حاول العادل والناصر استمالته اليهما الا أنه رفض ، لذلك توجهت القوات المتحالفة فى

(١٩) المقريزى : نفسه ، ص ٢٧١ .
(٢٠) المقريزى : السلوك ، نفسه .
ابن واصل : ص ١٨٩ .
ابن العديم : نفسه .
(٢١) المقريزى : نفسه .
أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .
(٢٢) جنين بلدة بين نابلس وبيسان وهى من أرض الأردن .
ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

اتجاه دمشق ، عندئذ خاف الملك الجواد على نفسه وقرر أن يسلم قلعة دمشق للملك الصالح أيوب « فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع وأجابه اليه » (٢٣) .

توجه الصالح أيوب الى دمشق فى الوقت الذى قطع فيه الملك الجواد الخطة للعادل الثانى ، وفى نظير ذلك قرر الصالح أيوب منح الخوارزمية حران والرها وجميع البلاد الجزرية (٢٤) وكان فى رفقة الصالح أيوب عند دخوله دمشق الملك المظفر صاحب حماه .

قدمت القوات الخوارزمية تحيط بالصالح والمظفر عند دخولهم دمشق وبعدها توجهوا صحبه المظفر الى حمص لضمها الى ممتلكاته فى حماه ، الا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها من حاكمها المجاهد أسد الدين شيركوه (٢٥) .

والواقع أن أطماع الخوارزمية وضحت وأنهم لا يقنعون بشىء ، فقد طمعوا فى حمص بعد أن منحهم الملك الصالح هذه الممتلكات الكبيرة فى الجزيرة .

وقد أراد المجاهد أسد الدين شيركوه أن يدفع شرهم فمنحهم كمية كبيرة من الأموال ليبعدهم عن بلاده (٢٦) .

حاول الصالح أيوب أيضا زيادة ربط مصالحه بالخوارزمية ، خوفا من المشاكل السياسية التى تواجهه ، ورغبة فى الاستفادة من قوتهم العسكرية فقام بتزويج اخته من أمه لمقدم الخوارزمية الأمير حسام الدين بركة خان (٢٧) .

---

(٢٣) المقريزج : نفسه .   ابن واصل : نفسه .
(٢٤) المقريزى : نفسه .
ابن العديم : نفسه .
(٢٥) أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٦٨ .
(٢٦) ابن العديم : نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .
(٢٧) المقريزى : نفسه ، ص ٢٨٠ .

بدأ نجم الصالح أيوب يسطع اذ قام المصريون بمراسلته للقدوم اليها والاستيلاء على ملكها من أخيه الملك العادل الثانى ، عندئذ انزعج العادل ، واضطربت البلاد وقد تدخل الأمراء الأيوبيين والخليفة العباسى للاصلاح بين الأخوين فى وقت كان فيه العادل فى أزمه بين جنوده من الأكراد والأتراك . وظل مقيما ببلبيس من أجل التوجه الى الشام لمحاربة الصالح قبل قدومه اليه .

وقد استمر الصراع بين البيت الأيوبى حتى وقع الصالح أيوب فى خدعة من قبل الناصر داود صاحب الأردن والكرك حيث تم اعتقاله بالكرك ، ولم يكتف العادل حاكم مصر بذلك بل طلب أن « يبعث اليه بأخيه الصالح فى قفص من حديد تحت الاحتفاظ » (٢٨) .

وعندما رفض الناصر ارسال الصالح أيوب للعادل تكدرت العلاقة بين الطرفين ، ووصلت من مصر سفارة مكونة من محى الدين بن الجوزى وجمال الدين بن مطروح لتسوية الخلافات الا أنهما لم يتمكنا ، ومما وكل اليهما ما طلبه الملك المظفر صاحب حماه من ابن مطروح من ارسال رسالة الى الخوارزمية بالشرق يستحثهم على القيام بنصرة أستاذهم الملك الصالح نجم الدين ، وحملوه للخوارزمية رسالة أخرى من الناصر داود يقول فيها أنه لم يقبض على الصالح أيوب الا « صيانه لمهجته خوفا عليه من أخيه الملك العادل ومن عمه الملك الصالح عماد الدين » (٢٩) .

لذلك أفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين وهو بمصر ، واجتمع عليه رجاله من الخوارزمية حيث توجهوا الى القدس ، وتحالف معه على أن تكون ديار مصر للصالح والشام والشرق للناصر ، وان يعطيه مائتى ألف دينار . وفعلا نجحوا فى خلع العادل فى شوال سنة ٦٣٧هـ (٣٠) .

---

(٢٨) المقريزى : نفسه ، ص ٢٩٠ .
(٢٩) المقريزى : نفسه ، صص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
(٣٠) نفسه : ص ٢٩٣ .

وبذلك انفتح الطريق أمام الخوارزمية جند الصـــالح أيـوب للتوغل فى بلدان العالم الاسلامى .فنراهم يأخذون فرصتهم ، ويغيرون على قلعتى جعبر وبالس ونهبوها وقتلوا كثيرا من الناس ففر من بقى بها الى حلب ومنبج ، الا أن الخوارزميين لحقوا بهم ، ثم عبروا الفرات من جسر الرقة وساروا حتى نزلوا نهر بوجيار (٣٢) .

وقد انتهز بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصـل هذه الهجمات التى قام بها الخوارزمية فأغار فى سنة ٦٣٨هـ على سنجار وانتزعها من الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل الأيوبى وظلت بيده الى أن توفى فى الثالث من شعبان ٦٥٧هـ/١٢٥٩م (٣٢) .

شارك الخوارزمية بدر الدين لؤلؤ فى نفس العام فى اغارته على حلب حتى أصبح جيشه يقدر بحوالى اثنى عشر ألفا ، وكان سبب هذه الحملة على حلب أن أميرهم محمد تركان خان بن دولة شاه الخوارزمى خطب ابنه الملك العادل صاحب حلب ، فلم يجب الى ذلك بل أمر باهانة رسوله ، وحينذاك جمع العساكر من ملته وقصد حلب (٣٣) .

وجـاءت الخوارزمية مع مقدمهم بركة خان ومعـه من المقدمين صاروخان وكشلوخان ، وبردى خان وغيرهم من المقدمين والملك الجواد وابن الملك الحافظ والملك الصالح ابن صاحب حمص ونجدة من ماردين (٣٤)

عبرت الجيوش نهـر الذهب والتقى الفريقان فى قرية تسـمى البيرة فى شهر ربيع الأول فى هذه السنة ٦٣٨هـ « فصـدموا عسـكر حلب صدمة تزحزحوا لها ... وأحاطوا بالعسكر الحلبى من جميـع

---

(٣١) ابن العديم : نفسه ، ج ٣ ص ٢٥٠ .
(٣٢) المقريزى : نفسه ، صص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(٣٣) العبود : المرجع السابق ، ص ١٧١ .
(٣٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٨٣ حوادث سنة ٦٣٨هـ
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

الجهـات ... وانهزم عسـكر حلب هزيمة قبيحة واسـتولت عليهم الخوارزمية قتلا وسبيا وأسر الملك المعظم مقدم العسكر » (٣٥) « وقتلوا فيها ما لا يحصى عدده من الناس ، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء فى الجامع علانية وقتلوا الأطفال وعادوا وقد خرب ما حول حلب »(٣٦).

اتجه الخوارزمية بعد ذلك صوب جيلان (٣٧) وامتدوا على النهر الى فافين (٣٨) ، واستولوا على أموال العسكر بهذه المناطق « وشربوا طول اليوم وسكروا وقتلوا جماعة من الأسرى صبرا » (٣٩) .

استمر الخوارزمية فى عبثهم فى المناطق المحيطة بحلب مثل عزاز وتل باشر وبرج الرصاص وجبل سمعان « وأخذوا من الغنائم من المواشى والأمتعة والنساء والصبيان ما لا يعد ولا يحصر ، وفعلوا من ارتكـاب الفواحش مع حرم المسلمين ما لا يفعله التتر ولا غيرهم من الكفار »(٤٠).

اتجه الخوارزمية بعد ذلك صـوب بزاعا والباب وعذبوا أهل هذين البلدين وسلبوهم أموالهم ، ثم ساروا الى منبج فاعتصم أهلها بسور المدينة ولكن الخوارزميين تمكنوا من دخولها ووضعوا السيف فى أهلها وقتلوا منهم ما لا يحصى عدده ، وارتكبوا الفواحش بالنساء فى جامع المدينة علانية وغنموا أموالا عظيمة وعادوا (٤١) .

---

(٣٥) نفسـه .
(٣٦) المقريزى : نفسه ، ص ٣٠٣ ، أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .
(٣٧) قرية من قرى حلب ، ياقوت : معجم البلدان .
(٣٨) فافين قرية معروفة قرب حلب .
ابن العديم : ج ٣ ، ص ٢٥١ حاشية ٤ .
(٣٩) ابن العديم : نفسه .
(٤٠) نفسه ، ابن واصل : ج ٥ ، ص ٢٨٥ حوادث ٦٣٨ هـ .
(٤١) بن العديم : نفسه ، ج ٣ ص ٢٥٣ .
أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٦٧ .

والحقيقة أن ما قام به الخوارزميين فى هذه الآونة لأشد خطــرا ووبالا على العالم الاسلامى مما كانوا فيه من مشاكل ومحن ممتله فى الاحتلال الصليبى الكامن فى أراضيهم ، والخطر المغولى الداهم الذى بدأ يتهدد حدودهم ، كل هذا والفرقة فى صف البيت الأيوبى لا تقل خطرا عن هذا أو ذاك .

عندما رأى الملك المنصور صاحب حمص ما قام به الخوارزميون فى حلب وما فعلوه بأهلها والبلاد التى حولها أخذته الحمية وقــــرر ضرورة حمـــاية حلب من هذا العدوان رغــم أنه كــان متجهزا لمقابلة الفرنج (٤٢) .

وصل المنصور الى حلب واجتمع بصاحبها الملك ألناصر « الملك الطفل » وقرروا ضرورة تجميع القوى للمواجهة مع الخوارزمية فى الوقت الذى قــرر فيه الخوارزمية من ناحيتهم قطع الطريق على الأيوبيين بحران — بعد حروج بعض من قيادتهم عن الصفوف — وأخيرا آثروا عدم الاصطدام مع الأيوبيين فعبروا الفرات الى الرقه ، فى الوقت الذى نصب المنصور خيام الحرب شرقى حلب .

ونتيجة للفساد الذى بدأ الخوارزمية ينشرونه فى كل مكان يحلون به سواء الفايا (٤٣) الى دير حافر ثم الجبول أو أرض النقرة فان الملك المنصور كان يغير موقع خيمته تبعا لتنقلاتهم ... ومن أسوأ ما قامت به الفرق الخـــوارزمية « احراقها الأقوات التى فى القرى ، وأخذهم ما قدروا عليه » (٤٤) .

---

(٤٢) ابن واصل : نفسه ، صص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
ابن العديم : نفسه ، ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٤٣) الفايا قرية من عمل المعره .
زبدة الحلب : ج ٣ ص ٣٥٥ حاشية ٢ .

(٤٤) ابن العديم : نفسه ، ص ٣٥٥ .

رحل الخوارزمية الى الصافية وسرمين مقر الدعوة الاسماعيلية ببلاد الشام ونهبوا جميع ممتلكاتهم ، ومنها توجهوا الى المعرة . وكفر طاب وأخربوها ، وتوجهوا الى شيزر ، فاعتصم أهل البلد بالربضة تحت القلعة ، فهاجمهم الخوارزمية (٤٥) .

عندما تأكد الخوارزمية أن المنصور قد استعد ليقطع عليهم الطريق الى بلاده توجهوا صوب حماه الا أنهم لم يتعرضوا لهذه المدينة بأذى لأن حاكمها من الحزب الموالى للصالح نجم الدين أيوب الذى يعتبر سيدا لهم . حتى أنهم كانوا يبررون جميع أعمالهم هذه بأنها خدمة له لتوطيد نفوذه بعد العداء الذى أظهره كل من أصحاب حلب ودمشق وحمص له (٤٦) .

استمر السباق دائر بين قوات المنصور والخوارزمية ، الذين انساحوا من بلد الى بلد من سلمية الى الرصافة والرقة ثم وصلوا الى الفرات مقابل الرقة ، فى الوقت الذى توجهت فيه قوات المنصور الى صفين من أجل أن يتحكموا فى مواقع المياه ويمنعوا الخوارزمية من العبور ناحية الشرق . لكنهم وصلوا بعد فوات الأوان فقد سبقتهم الخوارزمية الى هذا المكان « فوجدوا الخوارزمية قد احتموا فى بستان البليل ، وأخذوا منها الأبواب وجعلوها ستائر وأداروا عليهم خندقا »(٤٧) .

ومع ذلك نجح الملك المنصور فى التصدى للخوارزمية وانتصر عليهم وغنم منهم مغانم كثيرة حتى وهنت أحوالهم بسبب نقص العلوفة للدواب والزاد للجنود ، فتقهقروا الى صفين ، وبعدها عبر الخوارزمية الفرات الى الرقة بعد هلاك دوابهم ورجالهم ، حتى وصلوا الى حران ،

---

(٤٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٢٩٠ حوادث سنة ٦٣٨هـ أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٦٨ .

(٤٦) ابن العديم : نفسه ، ص ٣٥٥ .

(٤٧) نفسه ص ٣٥٥ ، ابن واصل نفسه ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .

فأحضروا لهم دواب فى الوقت الذى توجه فيه المنصور الى البيرة وعبر الجسر ليصل الى المنطقة التى تفصل سروح عن الرها وتعقب الخوارزميين الى سروج وحران ، ولما وجد الخوارزميون أن الملك المنصور قد تعقبهم الى حزان اجبروا أهلها على الخروج معهم لملاقاته ليظهروا له كثرتهم أمام جيشه كما أنهم أرادوا تدبير خدعة ضد الملك المنصور فعملوا رايات من القصب وضعوها على الجمال ليلقوا الرعب فى قلوب عسكره بتكثيرهم السواد (٤٨) والغريب فى الأمر أن غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم أرسل جيشا لنجدة الأيوبيين (٤٩) .

لم يعبأ الملك المنصور لذلك بل التقى بالخوارزمية « فى يوم الأربعاء لتسع بقين من شهر رمضان ، فانكسرت الخوارزمية واستبيح عسكرهم » (٥٠) وتبعت الجنود الأيوبية العساكر الخوارزمية حتى هربوا الى حران وعينوا عليهم بركة خان واليا من قبلهم (٥١) .

توجهت الفرق الخوارزمية من حران الى الخابور ، ووراءهم الجنود الأيوبيين ، الا أن الظروف الطبيعية عاقت حركة سيرهم فقد أمطرت السماء سيلاً ، أغرق أعدادا كبيرة منهم ، لذا أخذوا طريقهم الى مدينة عانسة التابعة للخليفة المستنصر العباسى ليبعدوا عن أملاك الأيوبيين (٥٢) .

أما عن الدور الذى لعبه الملك المنصور فقد نجح فى أن يدخل حران بعد خروج الخوارزميين ، وتمكن من الاستيلاء عليها وسلمها الى الملك الناصر صاحب حلب وأخرج جميع الأسرى الحلبيين منها .

---

(٤٨) ابن العديم نفسه ج ٣ ، ص ٢٥٨ .
(٤٩) نفسه .
(٥٠) نفسه .
(٥١) نفسه ، أبو الفدا « المختصر » ج ٣ ، ص ١٦٨ .
(٥٢) نفسه ، ابن العديم « زيده الحلب » ج ٣ ص ٣٥٨ .

انتهز بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فرصة ما حل بالخوارزميين من هزائم لذلك قرر أن يستخلص بعض الممتلكات التى سبق ، لهم أن سلبوه اياها مثل نصيبين ودارا فاستولى عليهما ، « واستخلص من دارا الملك المعظم بن صلاح الدين » وأوصله الى الموصل ، وعين على هذه المناطق أميرا يقوم على ادارتها (٥٣) •

وبدأت قوات الناصر صاحب حلب أيضا تنتهز الفرصة وتسترد معظم الأراضى التى فقدتها ، واستولت عليها الخوارزمية • فى الوقت الذى تلاحمت فيه مرة أخرى قوات السلطان غياث الدين كيخسرو مع القوات الحلبية ، وتوجهوا للاستيلاء على آمد — فنجحوا أولا فى دخول السويداء وسلموها للسلاجقة ثم حاصروا آمد وبها الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب — فسلمها لهم وتوجه الى حصن كيفا (٥٤) •

أما عن الخورزمية ، فقد استمروا مقيمين بعانة التابعة للخليفة العباسى حتى نهاية عام ٦٣٨هـ ، وبعدها بدوءا تحركهم مرة أخرى فتوجهوا الى الموصل حيث بدر الدين لؤلؤ ، فحاول مسالمتهم خوفا من بطشهم وأرضاهم بتسليم نصيبين اليهم (٥٥) • وبعدها تبسم لهم الزمان بالتحالف الذى تم بينهم وبين المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل حاكم ميافارقين •

ويرجع هذا التحالف اخوف المظفر من اعتداء السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو على أراضيه ، ومراسلته لحكام حلب طالبا النجدة الا أنهم رفضوا لأنهم متحالفين مع غياث الدين ، فلم يجد المظفر شهاب

---

(٥٣) ابن العديم : نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .
ابن واصل ، نفسه ، ص ٢٩٥ .
أبو الفدا : نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .
(٥٤) ابن العديم : نفسه .
ابن واصل : نفسه ، ص ٢٩٦ .
(٥٥) ابن العديم : نفسه ، ج ٣ ص ٢٦٠ ، ابن واصل ج ٥ ص ٣٠٥

الا أنهم رفضوا لأنهم متحالفين مع غياث الدين ، فلم يجد المظفر شهاب الدين غير الخوارزمية كقوة مرتزقة من الممكن أن تقدم له يد العون .

كانت آمد هى هدف الخوارزمية لذلك خرج الحلبيون للدفاع عنها تحت قيادة المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ونجحوا فى ابعاد الخوارزميين عن هذه المدينة ، وتوجهوا صوب ميافارقين للاغارة عليها فى الوقت الذى اعتصمت الخوارزمية خارج البلد (٥٦) .

ظلت الاشتباكات بين القوتين الخوارزمية والحلبية ، حتى تمت الهدنة بينهما على أساس أن يقطع غياث الدين كيخسرو والخوارزمية ما كان اقطاعا فى بلاده أن يقيموا فى أطراف بلاد الروم . وعلى أن تعطى الخاتون أم العزيز أخاه المظفر شهاب الدين ما يختاره بدون شروط (٥٧) . وبعدها تم اطلاق أسرى الخوارزمية . الا أنه رغم ذلك لم يتوقف الخوارزمية عن أعمال الاغارات فتحركوا صوب الموصل « ونهبوا رستاقها » (٥٨) واستقاوا مواشيها ثم توجهوا الى ناحية الخابور » (٥٩) بعد ذلك توجهوا الى رأس عين فدخلها الخوارزمية وأمنوا أهلها وأخذوا من كان بها من العسكر .

فى هذا الوقت كان الملك المنصور صاحب حمص ومعه الجنود

---

(٥٦) المصدر السابق : نفسه ، ص ٢٦١ .
المقريزى : نفسه ، ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٥٧) ابن واصل ، جـ ٥ ص ٣٠٦ .
ابن العديم : نفسه .

(٥٨) الرستاق . جمع رساتيق لفظ معرب عن الفارسية بمعنى ارض السواد والقرى .

(٥٩) ابن واصل ، نفسه
ابن العديم : نفسه

الحلبيون قد توجهوا صـوب حران وعبروا الى رأس عين ، فلما علم الملك المظفر شـهاب الدين غازى بقدومه عاد ومعه الخوارزميين الى ميافارقين بينما توجه الملك المنصـور وجيشه الى آمد واجتمعوا بمن كان بها من عسكر سلاجقة الروم بانتظار وصول عسـاكر أخـرى من السلاجقة لمنازلة ميافارقين (٦٠) .

الا أن الظروف لم تكن فى صالح المنصور ، اذ أن سلاجقة الروم لم يكونوا فى وضـع سياسى يسمح لهم بالقدوم لتقديم المسـاعدة العسكرية للعسـاكر الحلبية . فقد هاجم المغول مدينة من مدنهم وهى أرزن الروم (٦١) لذلك انشغلوا بقتالهم ، فى الوقت الذى شدد المغول هجماتهم على خرتبرت لذلك اضطر الملك المنصور الى التقهقر مرة أخرى الى رأس عين . وتشجع الخوارزمية والملك المظفر ، فأغاروا على دينسر وهى تابعة لصاحب ماردين (٦٢) ، وانضم اليهم جماعة من التركمـان وعلى رأسهم بن دودى وساروا معهم الى حلب فى سنة ٦٤٠هـ/١٣٤٢م فخرج اليهم الأمير لؤلؤ الحلبى ومعه عسـكر حلب وساعده محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ وكان صاحب سنجار حينئذ والتقوا مع الخوارزميين فى المجدل واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المظفر غازى والخوارزميين ووقع العسكر فى الخيم والخركاهات وبها الأقمشة والنساء فنهبوا جميع ما فى العسكر وأخذوا النساء وجميع ما كان معهن من الأموال والحلى والذهب ولـم يفلت من النساء واحده » (٦٣) .

---

(٦٠) ابن واصل : نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٦١) أرزن الروم : بلدة بأرمينية على مقربة من خلاط .
ياقوت الحموى : معجم البلدان .

(٦٢) ابن واصل : نفسه ، ص ٣١٠ .
ابن العديم : جـ ٣ ، ص ٣٦٣ .

(٦٣) ابن العديم : نفسه ، ص ٢٦٤ ، ابن واصل : نفسه ، ص ٣١١

ولم يقف الملك المنصور والحلبيون عند هذا الحد بل نزل المنصور على خيمة المظفر غازى والخوارزميين واستولى على خزائنه « وجميع ما كان فى وطاقه وغنم العســكر من الخيــل والبغال والجمال ما لا يحصى » (٦٤) .

ومع ذلك لم يتوقف عبث الخوارزمية فى البلاد ، فقــد تجمعــوا ومعهم بعض العساكر التركمانية « وعاثوا فى الشرق » لذلك تصدى لهم مرة أخرى عسكر حلب بزعامة جمال الدولة اقبال الخاتونى وتجمعوا فى منطقة رأس عين ، وانضم الخوارزمية الى الملك السعيد نجم الدين غازى صاحب ماردين . وبدأت المعارك تنشب بين الطرفين لولا تدخل رسول من قبل غياث الدين كيخسرو وسلطان سلاجقة الروم للوساطة بين الاخوة المسلمين وتمت الترضية فيما بينهم على أساس أن يمنح الملك السعيد رأس عين الخوارزمية خرتبرت وبعض المناطق الأخرى والمظفر غازى خلاط وما بعدها (٦٥) .

ولا شك أن هذه الوســاطة التى قــام غياث الدين كانت بسبب الهجمات المغولية التى هددت ممتلكاته ، والتى أصبحت وشيكة لتدمير مملكته ، حتى أنه أرسل لهذه القوى الاسلامية « أموال عظيمة يستخدم بها هؤلاء العساكر للقاء التتر » (٦٦) .

والحقيقة أنه كان لابد لهذه القوى الاسلامية المتناحرة أن تترك هذا الصراع السياسى ، والعسكرى الدائر بينها ، وان تتنبه للخطــر الكبير ، خاصة الخوارزمية الذين اندحر ملكهم وولى ، وضاع زعماؤهم ولم يعتبروا ، بل استمروا على نفس السياسية .

---

(٦٤) : انظر ماسبق .

(٦٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ص ٢٦٧ .
ابن واصل : ص ٣١٤ .

(٦٦) نفسه .

الخوارزميون بين الأيوبيين والصليبيين :

لا شك أن الصراع الدائر بين أبناء البيت الأيوبي كان له أكبر الأثر على زيادة طموح الخوارزمية فى تحقيق مآربهم ، ومطامعهم الى جانب القوى الصليبية التى بسطت نفوذها على بلاد الشام ، وتعددت حملاتها على الممتلكات الأيوبية فى مصر والشام .

ولعل الفترة التى نحن بصددها شهدت نزاعا دب بين الصالح نجم الدين أيوب من جهة وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق الجديد من جهة أخرى ، والذى شارك فيه بقية أفراد البيت الأيوبى فى الشام مثل ملوك حماه وحمص والأردن مما أوقع الدولة الأيوبية فى حالة شديدة من الفوضى (٦٧) .

والواقع أن الوضع فى بلاد الشام فى هذه الآونة كان يعايش نتائج الحملة الصليبية السادسة التى قام بها فردريك الثانى (٦٨) . والتى قدمت لاستخلاص بيت المقدس من يد المسلمين ، وكنتيجة أيضا لنداء الملك الكامل الأيوبى للامبراطور فردريك لتخليصه من الأخطار الداخلية والخارجية التى باتت تهدد دولته خاصة من الخوارزمية (٨٩) .

يؤكد ذلك المقريزى بأن الكامل طلب من فردريك « أن يحضر الى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل » (٧٠) .

---

(٦٧) عاشور : الحركة ، ج ٢ ، ص ١٠٣٣ .

(٦٨) عن هذا الموضوع انظر :
عاشور : الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ، بحوث فى تاريخ العصور الوسطى .
عفاف صبره : الامبراطور والدولة فى عهدى فردريك الثانى ولويس التاسع . مجلة كلية الدراسات الانسانية عدد ١ .

(69) Grousset « op. - cit ». vol. II p. 280.

(٧٠) المقريزى : السلوك ج ١ قسم ١ ص‌ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وفعلا قدم فردريك ونجح فى تحقيق أغراضه بدون حرب وبعد صلح يافا سنة ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ ، حيث تم تسليم بيت المقدس للصليبيين على أن يبقى خرابا ولا تجدد أسواره وسائر قرى القدس للمسلمين (٧١) . وقد ظل هذا الموضوع أساسا للصراع والنزاع بين الملك الكامل واخوته من أبناء البيت الأيوبي والعجيب أن أبناء البيت الايوبى لم يتمكنوا من انتهاز فرصة عودة الامبراطور فردريك الثانى الى الغرب لصالحهم ، لأنهم تخوفوا من الخوارزمية ، وصاروا يلتفتون لخلافاتهم وللعزل والتولية كما ذكرنا حتى أيام الصالح أيوب .

ولعل الظروف التى حدثت فى هذه الآونة أجبرت الأيوبيين على مواجهة الصليبيين .

فقد انتهت فترة الصلح المعقودة بين فردريك الثانى والكامل ، وبذلك بدأ الصليبيون فى تجهيز أنفسهم للخروج بحملة محاولين استرداد بيت المقدس ، فوصلت فرقة منهم ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م الى عكا ، بقيادة الأمير الفرنسي ثيبوت الرابع ، فتوجه الناصر داود صاحب الأردن الى القدس واحتلها بحجة أن الفرنج عمروا بها قلعة ، لذلك ثارت ثائرة الصليبيين بها ، وقرروا مهاجمة عسقلان ، الا انهم انسحبوا بعد ذلك (٧٢) وحدث ما يؤكد انقسام البيت الأيوبى اذ قام الملك المظفر تقى الدين صاحب حماه بطلب معونة الصليبيين ضد أعدائه شيركوه صاحب حمص والصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وضيفه خاتون الوصية على حلب .

فى هذه الآونة تم عزل العادل الثانى وتولى الصالح أيوب السلطنة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م لذلك استاء الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق

---

(٧١) المقريزى : نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٧٢) عاشور : الحركة ، ج ٢ ص ١٠٣٦ .
Setton « Ahistory of the Crusades » II pp. 476 — 477.

لذلك الانقلاب لا سيما وان الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود صاحب الكرك فوعد بمساعدته فى الحصول على دمشق من الصالح اسماعيل (٧٣) •

اضطر الصالح اسماعيل الى محالفة الصليبيين ضد الصـــالح أيوب فى مصر والناصر داود فى الأردن على أساس أن يسلم الصالح اسماعيل القدس لهم مرة أخرى • بل انه لم يتورع عن تسليمها لهم فى الحال (٧٤) •

واستمر الصراع بين البيت الأيوبى عندما تمكن الصالح اسماعيل من انزال الهزيمة بالناصر داود الذى فر الى الكرك ، والصراع الدائر بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل عند غزة (٧٥) •

خلال هذه الفترة برز الخوارزمية كقوة بدأت تتدخل فى الصراع الاسلامى الصـــليبى • فقد أرســـل الصـــالح أيوب الى حلفـــائه من الخوارزمية « يستدعيهم الى ديار مصر لمحاربة أهل الشام فخرجوا من بلاد الشرق (٧٦) • وقد ظل الصالح أيوب منتظرا وصولهم ليلقى بهم عمه وابن عمه الملك الناصر صـــاحب حمص والملك الصالح اســـماعيل اللذين جهزا جندهما وتوجهـــا رفقـــة المنصور للوقوف أمـــام جند الصـــالح أيوب •

عندما وصلت دعوة الصالح أيوب الى الخوارزمية وجدوها فرصة سانحة لتعويض ما فاتهم فى أرض الجزيرة ، لذلك تحركوا مباشرة ، تحت قيادة مقدمهم حسام الدين بركة خان وجان بردى وصـــاروخان

---

(٧٣) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٢٢ •

(٧٤) عاشور : نفسه ، ص ١٠٣٧ •

(٧٥) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٣٠٥ •
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٣٢٣ •

(٧٦) المقريزى : نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٥ •

وكشلوخان فى قوة تزيد على عشرة آلاف فارس ، ومعهم مجموعة من الأمراء القيمرية (٧٧) .

وقد أفاضت المصادر الاسلامية فى ذكر الأسلوب الوحشى الذى اتبعه الخوارزمية أثناء مرورهم فى البلدان الاسلامية منذ عبورهم الفرات « فقد كانوا ينهبون ويقتلون ويسبون » (٧٨) .

وقد قسمت الخوارزمية الى فرق واحده توجهت نحو بعلبك وفرقة نحو غوطة دمشق التى كانت حصينة ، فاتجهوا صوب الجليل حيث استولوا على طبرية ثم نابلس وتوجهوا بعد ذلك صوب بيت المقدس .

كان بيت المقدس أشبه ما تكون بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين وليس فيها ملك أو زعيم صليبى يدافع عنها ، واستنجد من فيها من الصليبيين بأمير أنطاكية وطرابلس بوهمند الخامس ، وملك قبرس هنرى الأول فضلا عن الصليبيين فى عكا وحلفائهم ملوك حمص ودمشق والأردن ، ولكن أحدا من هذه الأطراف لم يلبى النداء اذ كان الصليبيون فى الشام وقبرس فى شغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم فى حين كان ملكا دمشق وحمص — وهم حلفاء الصليبيين — لا يجسران على التدخل فى ذلك الموقف لحماية مصالح الصليبيين فى بيت المقدس ، مما يعرضهم لنقمة الرأى العام فى البلدان الاسلامية (٧٩) .

---

(٧٧) القميرية نسبة الى قيمر ، وكانت قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط .
ياقوت : معجم البلدان .
(٧٨) المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ٢ ، ص ص ٣١٥ — ٣١٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٦ .
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣ .
ابو الفدا : المختصر ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .
(٧٩) عاشور : الحركة ، ص ١٠٤٥ .

اقتحم الخوارزميون بيت المقدس فى ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م . « وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ولم يبقوا على أحد منهم وسبوا ذراريهم ونساءهم » (٨٠) فهربت الفرنج من القدس ، ودخل الخوارزمية كنيسة القيامة التى أطلقوا عليها « القمامة » فهدموا المقبرة التى تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام ، ونبشوا قبور النصارى وقبور الفرنج التى بالقمامة ، وأحرقوا عظام الموتى (٨١) . وتدخل الناصر داود صاحب الأردن فى تأمين الفرنج الذين حاولوا الهرب من القدس .

تعقب الخوارزمية الفرنج الفارين الى غزة ، والمقيمين بها مع جنود دمشق والملك المنصور حتى أن الجيوش الاسلامية التابعة لهؤلاء كانت ترفع فوق رؤوسهم الصلبان « وبأيديهم أوانى الخمر تسبقى الفرسان » (٨٢) . لذلك هاجمهم الخوارزمية ومعهم جنود الصالح

---

(٨٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٣٣٧ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٨١) ابن واصل : نفسه .

أبو المحاسن : نفسه .

سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، صص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(٨٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٣١٧ .

(٨٣) بعث الصالح نجم الدين الأمير ركن الدين بيبرس وكان من اجل مماليكه واحضهم به وهو الذى كان معتقلا معه بالكرك . وبعث الصالح بطائفة أخرى من العساكر بقيادة حسام الدين الى على بن محمد الهذبانى الى نابلس . انظر :

الحنبلى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ص ٧ .

نجم الدين أيوب فهزم الملك المنصور صاحب حمص ، وكذلك عسكر الكرك الذين كانوا يحتلون الميسره ، لذلك أصبح الهجوم على الفرنج ميسورا ، فنجح الخوارزمية فى تطويعهم « ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسرا ولم يفلت منهم الا من شرد » (٨٥) .

أما بالنسبة لجنود الملك المنصور فقد هربوا فى اتجاه دمشق فى أسوأ حال وهم لا يصدقون النجاه حتى أن المنصور كان يبكى ويقول « والله لقد حضرت الحرب ذلك اليوم ، واوقع الله تعالى فى قلبى لا ننتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين » (٨٦) .

وقد قدر المقريزى عدد من أسر من جنود الفرنجه حوالى ثمانمائة رجل وقتل من الفرنج وجنود الشام ما يزيد على ثلاثين ألفا » (٨٧) .

---

(٨٤) كان القائد على جيوش دمشق الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص لأنه كانت له حروب مع الخوارزميين فى الشرق ، وانتصر عليهم مرتين وكان شهما مقداما ، فرجا الملك الصالح اسماعيل انه على بده يكون كسر الخوارزمية فى هذه المرة ومن معهم من العساكر المصرية .

انظــر : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٩٣ .
أبو المحاسن : نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٨٥) المقريزى : نفسه ، ص ٣١٧ .
أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، نفسه .

(٨٦) ابن واصل : نفسه ، ص ٣٣٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٣٢٤ .
سبط بنا لجوزى : نفسه ، جـ ٨ ص ٤٩٤ يقول « كان المنصور يبكى ويقول « لقد علمت انا لما سرنا تحت صلبان الفرنج أنا لانصلح » .

(٨٧) المقريزى : نفسه ، ص ٣١٧ .
الحنبلى : الأنس الجلبل ، جـ ٢ ص ٧ .

وصلت أخبار هذا الانتصار الى مسامع الصالح أيوب فى مصر « فزين البلدان القاهرة ومصر والقلعتان قلعة الجبل وقلعة الجزيرة »(٨٨)

وبعدها وصلت جيوش مصر من الشام وبصحبتها الأسرى من الفرنج ورؤوس القتلى تحت قيادة الظهير بن سنقر وكثير من الأمراء « وأركب الفرنج الجمال ومعهم المقدمين على الخيول » وعلقت رءوسهم على أبواب القاهرة (٨٩) .

لم يتوقف دور الخوارزمية على هذا الدور الذى لعبوه فى القدس وغزةاذأن الصالح نجم الدين أيوب أغرته هذه الانتصارات وأراد أن يحقق أحلامه بالقضاء نهائيا على خصومه السياسيين من البيت الأيوبى لذلك ما ان علم بنبأ هذه الانتصارات أرسل الى الأمير ركن الدين بيبرس قائد الفرقة المصرية ، والأمير حسام الدين بن أبى على بالتوجه صوب عسقلان وتخليصه من الفرنج الا أن المدينة استعصت على المسلمين لمناعتها ، فتوجه ابن أبى على الى نابلس فى الوقت الذى استمر فيه ركن الدين بيبرس محاصرا لعسقلان ، وبذلك نجح نواب الصالح اسماعيل فى الاستيلاء غزة والسواحل والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، ولم يبق بيد الناصر داود الا الكرك والبلقاء والصلت وعجلون (٩٠) .

أراد الصالح أيوب أن يعضد القوات المصرية الموجودة فى الشام من أجل استكمال هدفه ، فطلب من وزيره معين الدين بن شيخ

---

(٨٨) ابن واصل : نفسه ، ص ٣٣٩ .
المقريزى : نفسه ، ص ٣١٦ .
(٨٩) انظر ما سبق .
(٩٠) المقريزى : نفسه ص ٣١٨ .
ابن واصل : نفسه ص ٣٤٠ .
ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٦ ص ٣٢٤ .

الشيوخ (٩١) أن يرأس جيشا ويتوجه به صوب بلاد الشام ، وأعطاه من السلطات ما يماثل سلطات السلطان ، ومن الأموال ما يكفى لهذه الحرب .

نفذ معين الدين أوامر السلطان وتوجه صوب غزة ، وهناك أقبلت عليه الجنود الخوارزمية وانضموا اليه وتوجهوا صوب بيسان ومنها الى دمشق حيث الملك الصالح اسماعيل ومعه الملك المنصور صاحب حمص . ويؤكد المقريزى أن الخوارزمية « عاثوا فى أعمال دمشق فسادا » (٩٢) .

اضطر الصالح اسماعيل ازاء هذا الموقف الخطير من جانب الصالح أيوب والخوارزميين الى ارسال وزيره أمين الدولة الى بغداد مستشفعا بالخليفة المستعصم بالله ومتوسلا اليه ليصلح بينه وبين ابن أخيه السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، الا أن هذه الوساطة لم تفلح (٩٣) . لذلك شدد معين الدين والخوارزمية الهجمات على دمشق وعلى الصالح اسماعيل ، لذلك اضطر الصالح اسماعيل الى طلب الأمان حتى جرت محادثات سرية بين المنصور صاحب حمص ومقدم الخوارزمية بركة خان من أجل الصلح ، وأخيرا تم الصلح على أساس أن يسلم الصالح اسماعيل دمشق ويخرج منها هو والمنصور بأموالهم لا يعترضهم أحد ،

---

(٩١) عن اسرة شيخ الشيوخ ودورهم السياسى . انظر :
عفاف صبره : دور الفقهاء وعلماء المسلمين فى جهاد الصليبيين ، صص ٦٤ — ٧٥ .

(٩٢) المقريزى : نفسه ، صر ٣١٩ .

(٩٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٥ ص ٣٤١ .
أبو المحاسن : النجوم ، جـ ٦ ص ٣٢٤ .
المقريزى ص ٣١٩ فيذكر أن الخليفة بعث محى الدين بن الجوزى الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه خلعة وهى عمامة سوداء وفرجية مذهبه وثوبا ذهب وسيف بذهب وطوق ذهب وعلمان حرير وحصان وترس ذهب ، فلبس الصالح أيوب الخلعة كالعادة .

ولا يمنعوا من نقل أموالهم ومتاعهم ، وان يعوض الصالح اسماعيل عن دمشق ببعلبك وبصرى واعمالهما وجميع بلاد السواد ، وللمنصور حمص وتدمر والرحبة (٩٤) .

وكان الصالح نجم الدين أيوب قد أرسل رسالة الى معين الدين ابن الشيخ يطلب منه ألا يؤمن عمه الصالح اسماعيل ويقبض عليه ويرسله اليه ، وعندما لم ينفذ معين الدين أوامر سيده نجم الدين أيوب غضب عليه لذلك عين على دمشق حسام الدين بن أبي على (٩٥) .

نهاية الخوارزميين :

بعد أن أدى الخوارزميون هذه الخدمات الكبيرة للصالح نجم الدين أيوب نجد أن معين الدين بن الشيخ بعد دخوله دمشق يمنع الخوارزميين من دخولها معهم ، وقرر عليهم أن يتوجهوا الى الساحل وكتب لهم مناشير بذلك (٩٦) .

ويرجع المؤرخون المسلمون سبب ذلك الى ضيق الصالح أيوب من الخوارزمية لأنهم كانوا يظنون أن السلطان اذا دخل دمشق فستكون مناصفة بينهم وبينه ، كما أنهم « صار لهم عليه اذلال كثير سيما » وقد تقدم لهم كسرهم لبدر الدين صاحب الموصل لما نازل الملك الصالح وهو محصور بسنجار » (٩٧) كما أنهم طمعوا فى جزايا عظيمة يجب أن ينعم بها عليهم الملك الصالح خاصة فى مصر .

---

(٩٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٤٨ .
(٩٥) المقريزى : نفسه أبو المحاسن : النجوم ، ص ٣٢٤ .
(٩٦) المقريزى : نفسه ، ص ٣٢١ .
(٩٧) ابن واصل : نفسه ، ص ٣٥٠ .
أبو المحاسن : ص ٣٢٥ .

لذلك قرر الخوارزمية الخروج علي الصالح أيوب ، وضرورة تكوين حلف ضده ، فقاموا أولا بالاتجاه نحو داريا (٩٨) ونهبوها وراسلوا الأمير ركن الدين بيبرس الأمير على غزة وكان من أكبر أمراء الصالح نجم الدين علي أساس « أن يكون هم يدا واحدة ويزوجوه امرأة منهم » (٩٩) .

وافق بيبرس علي هذا العرض وانضم اليه يحدوه الرغبة فى تحقيق السلطان السياسي في بلاد الشام ، كما أنهم قاموا بالاتصال بالملك الناصر داود المطرود من دمشق للانضمام معهم فوافق لأن أمه كانت خوارزمية ، كما أنه تزوج هو الآخر منهم (١٠٠) الا أنه توجه ناحية الكرك وأرسل نوابه الي نابلس والقدس والجليل وبيت جبريل والأغوار فنجحوا في ضمهم الي الناصر داود وهرب منهم نواب الصالح أيوب ولعل هذا الحلف الخوارزمي الجديد الذي نجح فى تحقيق هذه الانتصارات قد ازداد عراه عندما راسلوا الصالح اسماعيل (١٠١) . سلطان دمشق المطرود وعم الملك الصالح أيوب .

قدم الصالح اسماعيل بقواته ، واتفق جميع هؤلاء علي محاربة السلطان نجم الدين أيوب .

---

(٩٨) قرية كبيرة بالغوطة من قرى دمشق والنسبة اليها داراني على غير قياس .

انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٣٦ .

(٩٩) ابو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٢٥ .

(١٠٠) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٩٠ ؛
أبو المحاسن : نفسه ،ص٣٢٥.
المقريزى : نفسه ، ص ٣٢٢ .

(١٠١) يذكر المقريزى أن الصالح اسماعيل هو الذي راسل الخوارزمية وليس العكس ، فقد خاف فحلفوا له على القيام بنصرته .

عندما وصلت أخبار هذا التحالف الى مسامع الصالح أيوب قرر استدعاء ركن الدين بيبرس اليه فقدم عليه فقام باعتقاله فى قلعة الجبل وبذلك انحلت أول حبة فى العقد (١٠٢) ، وقام الصـــالح أيوب بتجهيز جيشه للقاء هؤلاء الأعداء وخرج الى العباسة حيث لاقاه مبعوث الخليفة العباسى حاملا الخلع السلطانية بتقليده مصر والشام (١٠٣) .

توجه الجيش الخوارزمى والحلفاء الأيوبيين تجاه دمشق ، فهاجموها هجوما عنيفا فى الوقت الذى كان يتولى قلعتها شهاب الدين رشيد ، وحاكم المدينة حسام الدين أبو على ، كما كانت المدينة خالية من الجنود للدفاع عنها ، الا أن حسام الدين أبو على حاول قدر استطاعته حراسة المدينة وحمايتها وتقوية أســـوارها ومع ذلك نجـــح الخوارزمية فى قطع المواد التموينية عن المدينة وأطالوا حصارها فاشتد بها الغـــلاء كما استفاضوا فى القتل والنهب ومات الناس من شوة الجوع (١٠٤) .

واستفاض جميع المؤرخين فى وصف الحالة السيئة التى أمست فيها مدينة دمشق وما أصـــابها من انعدام الأقـــوات والموت الجماعى والوباء ، ورائحة عفن جثث الموتى والفسوق بين الناس .

لذلك فكر الملك الصالح نجم الدين آيوب فى ضرورة اللجوء الى الحيلة وجذب بعض العناصر الأيوبية المتناحرة ، فقرر الاتصال بالمنصور

---

(١٠٢) يذكر المقريزى فى السلوك ص ٣٢٣ أن الصالح ايوب أرسل القاضى نجم الدين محمد بن سـالم النابلسى المعروف بابن قاضى نابلس وكان متقدما عنده الى مملوكه ركن الدين بيبرس فمـــازال يخدعه ويمنيه حتى فارق الخوارزمية وقدم معه الى ديار مصر فاعتقل بقلعة الجبل وكان آخـــر العهد به .

(١٠٣) أبو المحاسن : نفسه ص ٣٢٥ .

المقريزى : نفسه ص ٣٢٣ .

(١٠٤) انظر ما سبق .

ابراهيم صـــاحب حمص حتى نجح فى ضمه الى صـــفه ضـــد الحلف الخوارزمى ، كما اتصل بالحلبيين ، واجتمعت هذه الجيوش مع جيش الصالح أيوب وقرروا الاتجاه صوب دمشق (١٠٥) •

عندما علم الخوارزمية وحلفهم الأيوبى بأخبار قدوم العســاكر المصرية قرروا رفع الحصار عن دمشق ، فتنفست المدينة الصـــعداء ، فدخلها الصالح أيوب ومع ذلك لم يتوقف الخوارزمية عن أعمال النهب والسلب وسفك الدماء وانتهاك للحرمات حتى تم اللقاء الحربى بينهم وبين حلف نجم الدين أيوب عند منطقة القصب (١٠٦) ، وفيها هــزمت الجنـــود الخوارزمية وحلفهم الأيوبى ، وقتل مقدمهم حسام الدين بركه خان قتله مملوك من مماليك الأمير ســعد الدين بن الدريوش أحـــد أمراء حلب (١٠٧) •

تشتتت الخوارزمية بعد هذه الموقعة ولم تقم لهم قائمة بعد أن انساحوا فى الأراضى الاســلامية يغيرون ويقتلون وينهبون فى وقت كان العالم الاسلامى فى حاجة الى الوحدة الاسلامية للقاء الصليبيين والمغول ، وقد توفى بعد ذلك بركه خان وهـــو أحـــد الأمراء الكبـــار الأربـــع •

أما من تبقى من الخوارزمية فبعضهم وقع فى الأسر ، وبعضهم فروا الى التتار وانضموا اليهم وفيهم من توجه الى البلقاء وخدم الملك الناصر داود صـــاحب الكرك حتى أن الناصر تزوج منهم •

---

(١٠٥) المقريزى : نفسه ، ص ٣٢٣ •
ابن واصل : نفسه ٣٥٣ •
(١٠٦) ابن واصل نفسه •
المقريزى : نفسه •
منزلة القصب هى منطقة قبلى حمص •
(١٠٧) انظر ماسبق : وقد حملت راسه الى حلب ونصبت على باب قلعتها •

توجهت فئة قليلة من الخوارزمية الى نابلس وبعضهم الى حران وانضمت مجموعة الى الصالح اسماعيل أثناء عـــودته الى حلب الا أن الملك الناصر صاحب حلب قبض عليهم .

والحقيقة أن الصالح أيوب لم يرغب فى أن يبقى للخوارزمية أثر فى بلاده ، فأمر فخر الدين بن الشيخ بتجهيز جيش توجه به الى الكرك لمحاربة الناصر داود ومن معه من الخوارزمية ، وفعلا انتصر عليهم وبدد شمل من معه من الخوارزمية « فقـــد بعث اليـــه يطلب من عـــدة من الخوارزمية « فبعث بهم الناصر اليه فجعلهم من جملة خدامه »(١٠٨) .

وعند هذه الأحداث وفى هذه الفترة من الزمن اندثر الخوارزمية كما اندثرت دولتهم من قبل ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى أصـــبحوا أمة بائدة .

(١٠٨) المقريزى : نفسه ، ص ٣٢٥ .

الخاتمة

وبعد فقد عرضنا موضوعنا عن التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية وهى الدولة التركية التى قامت فى المشرق الاسلامى .

هذه الدولة بدأت أول أمرها تابعة للسلاجقة فى فارس الا أن حكامها نجحوا فى التخلص من السيطرة السلجوقية .

وقد برز لنا خلال هذه الدراسة مدى ما أصاب العالم الاسلامى فى هذه الآونة من نزعات استقلالية الهدف منها البعد عن سلطان الخلافة العباسية فى بغداد . ومع ذلك فاننا نعتبر هذه الدويلات دويلات أطراف على الثغور المحيطة بالأقوام الوثنية من الفرس والأتراك والهنود ولو أنهم سارزوا على الهدف المرجو منهم وهو نشر الاسلام بين هذه الأقوام لتحقق الكثير كل الخير للعالم الاسلامى .

الا أنه اتضح أن الدولة الخوارزمية ، وان كانت قد لعبت دورها فى نشر الاسلام خاصة بين الأتراك الخطا ، الا أنها قضت عمرها دولة محاربة تسعى لتوسيع ممتلكاتها على حساب القوى المجاورة ، ووقفت للدولة العباسية وهى الخلافة الأم ، ودخلوا فى معارك انتهت بضياع السيطرة العباسية نهائيا على العراق العجمى ، ودخوله تحت طاعة الخوارزميين .

ولعل هذا الاتساع فى الممتلكات دفع حكام خوارزم الى المجاهرة بالعداء للدولة الغورية ولدولة الخطا التركية ولسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . وقد خاضوا حروبا كبيرة ضد جميع هذه القوى . حتى أن الأتابكيات الأيوبية فى الجزيرة وأرمينية لم تسلم هى الأخرى من هجمات الخوارزميين .

ويتبين من البحث أن هذا التخلخل السياسى ، فتح الطريق أمام الغزو المغولى ، ونجح المغول بقيادة جنكيزخان فى القضاء على علاء

الدين محمد خوارزمشـــاه والاســـتيلاء على معظم أملاكه حتى وفاته ،
وتحمل ابنه جلال الدين منكبرتى تبعة الجهاد ضـــد المغول ، الا أنه
دحر على أيديهم وسقطت عاصمته مما دفعه لترك ممتلكاته والهروب
الى الهند •

واستطاع جلال الدين أن يعود مرة أخرى مســـتغلا انشـــغال
المغول عنهم باختيار خان جديد خلفا لجنكيزخان • وفعلا نجح جلال الدين
فى استعادة معظم ممتلكاته فى العراق العجمى وبلاد الجبل ، واستولى
على الأتابكيات الأيوبية ودخل بلاد الكرج وحارب ســـلاجقة الروم ،
وبهذا نرى أن الصراع السياسى بين القوى المختلفة كان هو سمة هـــذه
الفترة وبعدها وضح أن المغول تحركوا من جديد وقضوا عـــلى جميع
ممتلكات جـــلال الدين ، حتى هام على وجهه وقتل فى نهاية الأمـــر ،
وتشتت جنوده فى بقاع الأرض حتى استعان بهم الصالح نجم الدين
أيوب فى صراعه مع آل بيته ، وانتهى الأمر بقضائه عليهم •

ولعل ما وضح فى هذه الدراسة هو الخلاف والفرقة بين المسلمين
فى هذه الآونة مما فتح الطريق أمام أعدائهم من الصليبيين والمغول
ليرثوا أرضهم وأرض آبائهم •

كما وضح أيضا كيف كان المسلمون يستعينون بقوى الكفر عـــلى
قوى الاسلام من أجل تحقيق السيادة والملك •

ووضح كيف كان الحكام المسلمين خاصـــة الدولة الخوارزميـــه
وحكامها لا يراعون حرمة الأرض لبشر ، أو لعرض مما أدى الى كراهية
المسلمين لهم وتمنيهم زوال ملكهم •

واندثرت الخوارزمية نهائيا من التاريخ ومن بقى منهم انضـــم
الى القوى السياسية المعاصرة دون النظر الى دينها أو مذهبها ، أو
هدفها •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ••

قائمة المصادر العربية

— ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم المعروف بابن الجزرى ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م .

— الكامل فى التاريخ : ١٠ أجزاء ، بيروت سنة ١٩٨٠م .

— التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، نشر عبد القادر طليمات القاهرة سنة ١٩٦٣م .

— ابن الأزرق الفارقى « أحمد بن يوسف بن على بن الأزرقى » : ت ٥٩٠ هـ / ١٠٩٤م .

— تاريخ الفارقى أو الدولة المروانية ، تحقيق د/ بدوى عبد اللطيف بيروت ، ١٩٧٤م .

— ابن أعثم الكوفى :
ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م .

— كتاب الفتوح ، جـ ٧ .

— ابن اياس « محمد بن أحمد بن اياس المصرى » :
ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م .

— بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ٣ أجزاء بولاق سنة ١٣١٢م .

— ابن أيبك الدواداري « أبو بكر بن عبد الله بن أيبك » :
ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م .

— الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٧ تحقيق سعيد عاشور القاهرة ، سنة ١٩٧٢م .

— ابن تغرى بردى « أبو المحاسن جمال الدين يوسف » :
ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م .

— « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » .
١٢ جزء ، القاهرة ، سنة ١٩٣٠م .

— « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » .
مخطوط ٣ أجزاء دار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ جـ ١ تحقيق يوسف نجاتى ، سنة ١٩٥٦م .

— ابن الجوزى « أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على » :
ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .

— « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » .
حيدر آباد ، سنة ١٣٥١هـ .

— ابن الجوزى « يوسف بن قزغلو » سبط بن الجوزى :
— « مرآة الزمان » تحقيق دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد — الدكن — سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥٧ .

— ابن حوقل « أبى القاسم بن حوقل النصيبى » :
ت القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى .
— « صورة الأرض » ، بيروت سنة ١٩٧٩م .

— ابن خلكان « شمس الدين أحمد بن أبى بكر » :
ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، سنة ١٩٧٧م .

— ابن خلدون « عبد الرحمن بن محمد المغربى » :
ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ أو ١٤٠٦م .
— « العبر وديوان المبتدا والخبر » ، القاهرة سنة ١٣٠٢هـ .
— « المقدمة » ط دار الشعب ، سنة ١٩٧٠م .

— ابن الشحنه « محب الدين أبى الفضل محمد » :
ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م .

— « الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب » :
بيروت سنة ١٩٠٩م .

— ابن شداد « عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم » :
ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م .

— « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » :
تحقيق يحيي عباره . دمشق ، سنة ١٩٧٨م :

— ابن العبرى « غريغوريوس الملطى » :
ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م :

— تاريخ مختصر الدول ، بيروت سنة ١٩٥٨م .

— ابن العديم « كمال الدين أبي القاسم » :
ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١ — ١٢٦٢م :

— « زبدة الحلب في تاريخ حلب » :
ج ٢ ، ج ٣ تحقيق سامى الدهان ، دمشق سنة ١٩٦٨م .

— بغية الطلب فى تاريخ حلب ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٤٢٣

— ابن فضل إلله العمرى « شهاب الدين أبو العباس أحمد » :
ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م .

— « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » .
مخطوط دار الكتب المصرية برقم ٢٥٦٧ تاريخ .

— ابن القلانسى « أبى على حمزة بن القلانسى » :
ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .

« ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت سنة ١٩٠٨م .

— ابن كثير الدمشقى « عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر » :
ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م .
— البداية والنهاية .
١٤ جزء ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢م .

— ابن واصل « جمال الدين عبد الله بن محمد بن سليم » :
ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م .
— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
جـ ١ — جـ ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة سنة ١٩٦٠م
جـ ٤ ، جـ ٥ تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٤ — ١٩٧٧م

— ابن الوردى « زين الدين عمر بن الوردى » :
ت ٧٥٠هـ / ١٣٩٤م .
— تتمة المختصر فى أخبار البشر . المعروف بتاريخ ابن الوردى .
جزآن ، القاهرة سنة ١٩٣٩ .

— أبو شامه « عبد الرحمن اسماعيل المقدسى » :
ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م .
— « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » .
جزءان الأول فى قسمين تحقيق محمد حلمى أحمد ، القاهرة سنة ١٩٧٤ .
— الذيل على الروضتين والمسمى « تراجم رجال القرنين » ، القاهرة سنة ١٩٤٧م .

— أبو الفدا « عماد الدين اسماعيل بن محمود » :
ت ٧٣٢هـ / ١٢٣١م .
— « المختصر فى أخبار البشر » .
١٤ جزء ، القاهرة سنة ١٣٢٥هـ .

— الاصطخرى « أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى » :
ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م •
— مسالك الممالك •
ليدن سنة ١٩٢٧م •

— الأصفهانى « عماد الدين الكاتب » :
ت ٤٦٧ هـ / ١٢٠٠م •
— « تاريخ دولة آل سلجوق » •
القاهرة ،سنة ١٣١٨ •

— الفتح القسى فى الفتح القدسى :
تحقيق وشرح محمد محمود صبح ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥م •

— أقبال « محمد » :
— « تاريخ ايران » ، ليدن ، سنة ١٩٢١م •

— البغدادى « ابن عبد الحق صفى الدين » :
ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م •
— « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » •
تحقيق على محمد البجاوى ، القاهرة سنة ١٩٥٤م •

— البلاذرى « أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى الشهير بالبلاذرى » :
ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م •
— فتوح البلدان •
نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد ، القاهرة سنة ١٩٥٦م — ١٩٥٧م •

ـ البنداري « الفتح بن علي بن محمد » :
ت أواخر القرن السابع الهجري .

ـ مختصر تاريخ آل سلجوق .
بيروت سنة ١٩٧٨م .

ـ الحسيني « صدر الدين علي بن ناصر » :
ت بعد ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م .

ـ زبدة التواريخ « أخبار الأمراء والملوك السلجوقية » .
تحقيق محمد نور الدين ، بيروت ١٩٨٥م .

ـ الحموي « شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي » :
ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .

ـ « معجم البلدان » ٥ أجزاء ، ط بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

ـ الحنبلي « مجير الدين عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي » :
ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م .

ـ « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ، بيروت سنة ١٩٧٣م

ـ خواندامير « غياث الدين بن همام الدين » :

ـ « تاريخ حبيب السير في أخبار افراد ـ ى بشر » :
تحقيق م. د سياقي ، طهران سنة ١٣٣٣هـ .

ـ الذهبي « شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز » :
ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م .

ـ العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد السيد ، الكويت سنة ١٩٦١م .

— الراوندى « محمد بن على بن سليمان » :
عاش من ٥٧٠هـ / ٦٠٣هـ ـ ١١٧٤ / ١٢٠٦م .
ـ راحة الصدور وآية السرور .
ترجمة عبد النعيم حسانين وآخرون ، القاهرة ١٣٧٩هـ
١٩٦٠م .

— السبكى « أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين » :
ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م .
ـ طبقات الشافعية الكبرى .
٦ أجزاء ، تحقيق محمود الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو .
القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٨م .

— السيوطى « جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر » :
ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م .
ـ « تاريخ الخلفاء أمير المؤمنين القائمين بأمر الأمة » .
ط ٣ ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤م .

— الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير » :
ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م .
ـ تاريخ الأمم والملوك .
تحقيق محمد ابراهيم أبو الفضل ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠م

— العينى « بدر الدين محمود » :
ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .
ـ « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » .
مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

— القزوينى « زكريا محمد بن محمود » :
ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م .
— آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، سنة ١٩٦٠م .

— القلشقندى « أبو العباس أحمد بن على » :
ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .
— صبح الأعشى فى صناعة الانشا :
١٤ جزء ، القاهرة ، سنة ١٩١٩م .

— الماوردى « أبى الحسن على بن محمد بن حبيب » :
ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م .
— الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، ١٩٧٨م .

— المقريزى « أحمد بن على » :
ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .
— السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزء الأول والثانى تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٨م .

— ميرا خواند « محمد بن خواند شاه » :
— تاريخ روضة الصفا فى سير الأنبياء والملوك والخلفا .
طهران ١٣٣٨هـ .

— النسوى « شهاب الدين محمد بن أحمد المنشىء » :
ت ٦٣٩هـ / ١٢٤١م .
— سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، تحقيق حافظ أحمد حمدى . القاهرة ، سنة ١٩٥٣م .

— النويرى « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب » :
ت ٧٣٣هـ / ١٣٣١م .
— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٥ مخطوط .

— الهمذانى « رشيد الدين بن فضل الله » :
— جامع التواريخ ، نقله الى العربية عبد المعطى الصـياد .
بيروت ، سنة ١٩٨٣م .

— الوطواط « رشيد الدين محمد العمرى » :
ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م .
— مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط .
جزآن ، القاهرة ، ١٣١٥هـ .

— اليعقوبى « أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح » :
ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م .
— تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، سنة ١٩٦٠ م .

— اليونينى « قطب الدين » :
ذيل مرآة الزمان . تحقيق دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد ، سنة ١٩٥٤م .

قائمة المراجع العربية والمترجمة

— بارانسكى :جغرافية الاتحاد السوفييتى الاقتصادية ، الترجمـة العربية ، موسكو سنة ١٩٦٠م .

— بارتولد : فازيلى « فلاديمير وفتش » :
— تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . ترجمة أحمد السعيد سليمان
القاهرة ، سنة ١٩٠٨م .

— بروكلمان — كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية .
تعريب منير بعلبكى ، بيروت ، سنة ١٩٦٥م .

— حسانين « عبد المنعم محمد » : سلاجقة ايران والعراق ، القاهرة
القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

— حلمى « محمد كمال الدين » :
— السلاجقة فى التاريخ والحضارة . الكويت ، سنة ١٩٧٥م .

— حمدى « حافظ » :
— الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ، سنة ١٩٤٩ م .
— الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى . القاهرة ، سنة ١٩٥٠م .

— سترانج لى :
— بلدان الخلافة الشرقية : تعريب فرنسيس وكوركيس عواد .
العراق ، سنة ١٩٥٤م .

— الشريف — أحمد ابراهيم :
— العالم الاسلامى فى العصر العباسى . القاهرة ، سنة ١٩٦١م .

— صبره « عفاف سيد محمد » :
دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية . القاهرة ، سنة ١٩٨٥م .

— الصياد « فؤاد عبد المعطى » :
المغول فى التاريخ . القاهرة سنة ١٩٦١م .

— عاشور « سعيد عبد الفتاح » :
— العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة ، سنة ١٩٦٥م .
— بحوث فى تاريخ العصور الوسطى . بيروت سنة ١٩٧٥م .

— عاقل « نبيه » :
— تاريخ خلافة بنى أمية . بيروت ، بسنة ١٩٨٣م .

— عبد الرؤوف « عصام الدين » :
— الدولة الاسلامية المستقلة فى المشرق . القاهرة د.ت .

— العبود « نافع توفيق » :
— الدولة الخوارزمية . بغداد ، ١٩٧٨م .

ـ العريني « السيد الباز » :

ـ المغول . بيروت ، د.ت .

ـ الغامدي « سعد بن محمد بن حذيفة » :

ـ أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي . الرياض ، سنة ١٩٨١م .

ـ فامبري أرمينيوس :

ـ تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى الوقت الحاضر . القاهرة د . ت .

ـ فهمي عبد السلام عبد العزيز :

ـ تاريخ الدولة المغولية في ايران . القاهرة ، سنة ١٩٨١ م .

فيصل « شكري » :

ـ حركة الفتح الاسلامي . بيروت ، سنة ١٩٦٧ .

القزاز « محمد صالح » :

ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير . بغداد سنة ١٩٧١م .

ـ لي سترانج ، غي :

ـ بلدان الخلافة الشرقية : ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد . بغداد ، سنة ١٩٥٤م

ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية . ترجمة بشير فرنسيس ، بغداد سنة ١٩٣٦م .

المليم « عبد العزيز » :

ـ نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية . الرياض ، ١٠٤٢هـ .

مصطفى « شاكر » :

ـ دولة بني العباس . جزءان ، الكويت ١٩٧٤ م .

قائمة المراجع الأجنبية

— Barthold. W. Turkestan down to the mongol invasion London 1928.

— Bertold Spuler. « The mongols in history » Tran — by, Geoffrey wheeler N. Y. 1971

— Bretschneider. E. Medieval Researches From eastern Asiatic Sources. London 1967.

— Brosset. A. Histoire de la Georgie, Paris 1910.

— Brown. E. G. The literary history of persia London 1906.

— Cam - Med. Hist. vol. IV. Cam. 1966.

— Curtin. J. The mongols history. Boston 1908.

— Defremery. M Fragements de Geographes et Historiens Arabes. et persians et Inedits, J. A. Nov — Dec. 1849. pp. 447 - 513.

— D'ohsson M. Histoire des Mongols depuis Ginguiz Khan Jusqu'a Timour Bey. ow Tamer Lan Paris 1824.

— Douglas. R. K

— The Life of gen ghiz Khan. London 1877.

— Gibb, H. A. R

— The Arab Conquests in central Asia London. 1923.
— Studies on the Civilization of Islam. London 1962.

— Grousset R. Histoire des Croisades. III vol. Paris 1936.

— Howorth. H. H. History of the mongols. London 1876.

— Juwaini. Ala - AL - Din - Ata - Malik . Tarikh. Jahan - Gushay, English . Trans. by Boyle. J. A. Entitled. « The history of the world Conquerors. Manchester 1958.

— Lamb. H. Genghis Khan. The Emperor of Allmen. London, 1934.

The Crusades - The Flame of Islam. London 1931.

— Minorsky. V. The Turcs, Iran and Caucacus in medieval ages. London 1953.

— Peter. Brent . The mongol empire Genghis khan. His Triumph and Legacy . London 1976.

— Phillips. E. D. The mongols. London 1969.

— Runciman. S. History of the Crusaders camb. University 1952 — 1954.

— Saunders . J. J. The history of the mongol Conquests. London 1971.

Setton - K. M. Ahistory of the Crusades vol. I. and II wisconsin 1969.

Skrin, F. H. & Ross, E. D. The heart of Asia. Lonon 1899.

— Sykes P. Ahistory of Persia . Oxford 1922.

— Vladimirtsov. The Life of Chingis Khan. London 1930.

المحتويات

الفصل الخامس

الفصل السادس

جلال الدين منكبرتى والقوى السياسية المجاوره

كتب وبحوث للمؤلفة

- **المستشرقون ومشكلات الحضارة** دار النهضة العربية ١٩٧٩ م
- **الامبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان**
  دار النهضة العربية ١٩٨٢ م
- **الامبراطورية والدولة فى عهدى فردريك الثانى ولويس التاسع**
  بحث بمجلة الدراسات الانسانية جامعة الأزهر — عدد ١
- **فن التراجم فى عصر السخاوى** الهيئة العامة للكتاب — ندوة السخاوى
- **العلاقات بين الشرق والغرب** دار النهضة العربية ١٩٨٢ م
- **دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ويشمل :**
  ١ — دور الفقهاء وعلماء المسلمين فى جهاد الصليبيين .
  ٢ — اخطار الباطنية زمن الحروب الصليبية
  ٣ — التركمان وجهاد الصليبيين .
  ٤ — الكرج والقوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية
  دار الكتاب الجامعى ١٩٨٥ م
- **الحروب القوطية لبروكوبيوس القيصرى . الجزء الأول ترجمة ودراسة وتعليق** دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧م
- **الحروب القوطية لبركوبيوس القيصرى — الجزء الثانى دراسة وترجمة وتعليق** دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧
- **الامير مودود بن التونتكين ودوره فى حركة الجهاد الاسلامى**
  مجلة الدارة السعودية عدد محرم ١٤٠٧ هـ
- **الجراجمة المرده واثرهم على العلاقات الاسلامية البيزنطية**
  مجلة الدراسات الانسانية العدد الرابع ١٩٨٦ م
- **بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه**
  مجلة الدارة السعودبة عدد محرم ١٤٠٨ هـ
- **التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية** دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧ م

مطبعة الجبلاوي
٣٠ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨٠٢ / ١٩٨٧